

تاج شمس

رواية

اسم الكتاب: تاج شمس

اسم المؤلف: هاني القط

الناشر: مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية

القط، هاني

تاج شمس: رواية / هاني القط.

- القاهرة: مجموعة بيت الحكمة للصناعات الثقافية، 2023.

396 ص، 20 سم

تدمك: ISBN 9789778970449

رقم الإيداع: 2023/25392

1 - القصص العربية

أ- العنوان: 813

مجموعة بيت الحكمة للثقافة

شارع التحرير - ميدان التحرير - القاهرة

ت: +20223936038 +201030328888

info@baytelhekma.com

www.baytelhekma.com



جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأي المؤلف ولا تعبر
بالضرورة عن رأي الناشر

جميع إصداراتنا متوفرة على منصات البيع الكبرى
والمكتبات بالدول العربية والعالم.

للطلبات والحجز:

Tel./ Whatsapp: +201030965555

لا يجوز نسخ أو استخدام أي جزء من هذا الكتاب سواء بالتصوير
أو الطبع أو إعادة إنتاجه عبر أي وسائط مسموعة أو مرئية أخرى،
أو عبر أي من وسائط تسجيل واسترجاع البيانات دون إذن كتابي من
الناشر، وكل من يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية.

الإشراف العام

د. أحمد السعيد

مدير التحرير

عمرو مغيث

متابعة وتنفيذ

السعيد شعبان

علي قطب

المراجع

محمد ماهر بسيوني

الغلاف

عبد الرحمن ناصر

الإخراج الفني

حسام عنتر

حقوق الطبع والتوزيع

محفوظة

©baytalhekma



تاج شمس

رواية

هاني القط



1

يدنو المركب إلى مرسى «تاج شمس»، يهبط منه أناس يحمل بعضهم أجولة ثقيلة على الأكتاف، وآخرون يقبضون على صُرر أمتعتهم وما بقي من الزاد، يعبرون المدق الوعر، ويرتقون الطريق الضيقة الموصلة إلى الربوة.

تفيق أعينهم على الجليلة تجلس على مقعدها العالي في مهابة، وحيدة ناعمة بدفء يسلمها إلى ذلك الشرود الجميل، أمام دارها فوق الربوة المواجهة للنهر؛ تحجب أشعة الشمس كلما قاظت بكفها المخطوطة من ظاهرها وباطنها، كأنها نقشٌ يؤرخ للأبد، تغيب في الشرود قليلاً، وتفيق عيناها - اللتان لا تبرحان القلق ولا تغادران الطمأنينة - على شراع المركب المتوقف، فتطل بقامتها السامقة، تقرأ وجه السماء وصفحة النهر، وتنتظر.

ترنو أعين القادمين إلى الجليلة، تهزهم قسما ت وجهها المهيّب، وكلما اقتربوا أخذتهم الحيرة: هل ترفع عصاها لهم؟ أم ترفعها إلى السماء؟

يبش لمرآها أهل البلد، يقتربون، يحيونها بتوفير، وينحنون
يقبلون ظهر يدها ملتمسين البركة راجين الدعاء. بقبضة يدها
النحيلة ترفع وجه المُسلم، تتملى ملامحه، تتمتم ثم تدعو، بينما
حفيدتها صفية - ابنة الثانية عشرة - تبسم لاهية وتنثني بجسدها
اللين، تكنس أمام الدار بـ «قحف» نخلة وهي تغني.

يريح التُّجار السريحة الغُرباء ظهورهم من أجولة بضائعهم
بجوار زير الماء المستظل بشجرة التوت الحبشي الكبيرة، يجفون
عرقهم بأكماسهم، ويبددون عطشهم بالماء البارد، يهمس أشيب
من بينهم مُشيرًا: «هذه الجلييلة صاحبة البركة والنبوءات!».

يفغرون أفواههم جميعًا مستعذبين الأحاديث التي تُروى
عنها من هنا وهناك، وهم على المركب، ما فرغ أحدهم من
حكاية إلا ولضم آخر بها طرف حكاية أخرى عن الجلييلة؛ بركة
هذا البلد، التي بنظرة منها تتكشف لروحها أسرارهم، لكنها لا
تبوح بشيء، ولا تفضح سترًا.

يحمل الغُرباء أجولة بضائعهم ويتفرقون كلٌّ إلى مقصده،
تاركين دار الجلييلة وحيدة فوق الربوة العالية تطل على البلد
وكأنها الحارس الحاني.



صفحة النهر المترققة بالضوء تغازل عيون الجلييلة، تهل
النساء بالذكرى، الماضي يتجسد، يعيدها صغيرة بصفائر،

تخرج من الدار مشدودةً إلى نداء ساحر كأن الريح أتت به، تنسى كل شيء -أمها وأباها ودارها، وما كانت تصنعه- وتمشي تحديق في النهر مغوية، على حشائش الجسر تركض بفرحة ونزقٍ لا يخلو من عناد، تبتعد أكثر مما يجب، صوت النداء يدفعها ألا تتوقف، تمشي والنهر يتسع، والبلد يبتعد خلفها حتى يتلاشى، وعندما تلسعها الشمس وينهكها العطش، تميل برأسها لتشرب؛ فيكشف الماء الرائق عن وجهٍ يشبهها تمامًا، يهمس بكلمتين: «عُمرِكَ طویل».

يسري الماء الذي نهلته في بدنها كالخمر، يسكرها، ويأخذها في سبات وديع، تصحو على وجه شاب عفي يمسك بلبجام حصان بني، يلمسها من بعيد بطرف عصاه؛ خوفًا من هلاكه على يد جنينة تخبئ شرها في هيئة فتاة، وعندما تبددت ظنون الشاب؛ ابتسم، وأمسك كف الصغيرة بكفه الخشنة، متطلعًا إلى وجهها الباسم: «ما اسمك يا حلوة، ومن أين جئت؟!».

- الجليلة، وبلدي هناك.

وأشارت بكفها الرقيقة، فنظر الشاب إلى المدى، وأركبها ظهر حصانه، وهو يجذب اللجام مبطنًا؛ ليتمتع بحديثها المرح، برفق ينزلها أمام دارها، يسلم الطفلة إلى أبيها، ويشرب معه الشاي ثم يمضى إلى حال سبيله، السنوات تمر، وتفتح الزهرة وتكتمل أنوثتها، وتشرق في وجهه مرة أخرى مدعوة في عرسٍ مع أبيها! تصرخ روحه من عذوبة وجهها ومخاطلة جمالها الرقيق،

حتى يستحيل على قلبه الفكاك منه، ويشعر أنه لم يكن يعزف في سنواته الفائتة عن التفكير في الزواج إلا انتظاراً لها، الطفلة التي رفعها على حصانه منذ سنوات -بيد واحدة- تحاصر قلبه الآن، كما لا تستطيع ثلة من الفرسان أن تفعل.

يقطع المسافة من بلدته البعيدة إلى مجلس أبيها مرتين، يطلب يدها ويعرض مهرًا كبيرًا، ترفض يده مُسترهبةً ذلك الحلم الذي تردد عليها كنذير، لكن نداء قلبها يغلب الحلم؛ فتوافق مع طلبه الثاني، وعلى ظهر جمل مزدان هودجه بالحرير الوردى؛ تزف إليه. تحبه كما يليق بمليحة وحسبية إزاء رجل مكتمل يحسن العشرة. تذوب معه أيامًا وشهورًا في الهناء والسكينة، لكن سرعان ما يعود صوت النذير يصرخ، ولم يكف حتى عاد زوجها ذات مساءً جثةً مطعونة الصدر، يومها أيقنت أنها منذورة للانتظار الطويل، فارتضت بالحلم العابر نصيبًا من الهناء.

بكته أربعين يومًا، وبعد المشاورة؛ باعت إرثها وإرث ابنتها الصغيرة، نجاة، وغادرت بالمال الكثير إلى دار أبيها. اشترت أرضًا واسعة في البلد، واهبة الناس نصيبًا مُقدَّرًا من محاصيل أرضها.

تفيق الجلييلة من ذكراها على صيحة ابنتها نجاة قادمة من عمق الدار: «موجوع يا قلبي».

فترد أمها همسًا، وهي مستقرة على كرسيها: «لم يئن الأوان يا نجاة».

السنوات تمر، وقلب ابنتها نجاه مفطور على رضيعها المخطوف، تركته قرب عتبة الدار في دعة الشمس، وانشغلت في حجرة أمها، فلما بكى؛ هرعت تلقمه صدرها، ولكنها لم تجده! تنصت على البكاء الذي انقطع، وهي تنظر حولها بدهشة. هدتها حيرتها أن تركض إلى المرسى؛ تفتش وتصرخ باسمه، ثم ارتدت لتنزل الربوة كالمجنونة؛ تطرق أبواب الدور وتساءل الناس ذاهلة، وعلى مقربة من دار حماتها كعب الخير، تقابل أمها فتصرخ: «خطفوا مختار!».

تنزل الجليلة عن دابتها، تمسح صدر ابنتها بحنو، وتطمئنهما: «سيضم صدرك مختار يا نجاه.. اصبري».

العمر يمضي، وكلما وخزت قلب نجاه عضبة الفقد، تتحامل على قدميها المرتجفتين، لتجلس كما الآن، بوجه مصفر جوار أمها تسأل: «متى الوعد يا أمي؟!»، فترد الجليلة بيقين: «كُلُّ شيءٍ بأوان».

تلقي نجاه برأسها إلى حجر أمها، وتردد اسم ولدها وهي تبكي، تمسح الجليلة دموع ابنتها، وكفها حانية فوق جبهتها المتعركة، حتى تغيب في نوم هادئ مطمئن، وتصحو وقد انسل من قلبها بعض ما كان يثقله. تشرب من ماء الزير البارد وتنظر إلى طريق المرسى الخالي قائلة: «القادمون كلهم عبروا يا أمي ولم يأت خليل».

- اصبري، يا نجاه.

ولا يمر وقت، حتى يظهر زوجها خليل، يرتقي الرتبة العالية متجنبًا الحلفا والبوص، وخلفه بنتٌ سوداء، تحمل على رأسها جوالاً من خيش، وحال يقتربان، يسمع سؤال نجاة داهشة: «من هذه البنت يا خليل؟!».

يقول: «حكايتها طويلة يا نجاة». وينحني متلهفًا، يُقبل كف حماته بمحبة: «مشتاق إليك، يا خالة».

- سلامة رجوعك، يا خليل.

منذ تفتحت مدارك خليل، وهو يبحث عن اليقين! يخرج أسئلته مع أنفاس دخان تبغه؛ فتعاوده الأسئلة نصلاً تضرب عقله وتثقب روحه، وعلى الرغم من ليله الشائك ما زال يبحث، متقلبًا بين اليأس والأمل!

عمل بعد زواجه مُحفظًا، يتلو للصغار الآيات، ويعلمهم الكتابة على اللوح، رأى محبو الجلييلة فطنة وذكاءً بعينيه، ولم يتلمسوا ما بروحه من حيرة، وما بعقله من أسئلة. بعثوا بأولادهم لكتابته، وتابعوهم حتى اطمئنوا، حينها كان خليل قد سئم المهنة، وملَّ التكرار؛ نحى الحفظ وأخذ يحكي للأولاد القصص، سارحًا بخياله، جادلًا أسئلته الشائكة في صفائر حكاياته، وبالصدفة انكشفت أهوال المصيبة؛ عندما استعان أحد الخفراء بالفقي الضرير، ليطمئنه على حفظ ولده عند خليل، فأوقف الفقي ابن الخفير أمامه، وسأله يمتحنه: «أسمعني سورة الإخلاص»؛ فتلا الولد بأجمل ما يكون النغم: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ

يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ...}، ثم توقف معانداً، كأن الشيخ الضرير يهزأ به؛ فسأله الشيخ بلين: «أسمعني سورة التكويد يا شاطر»، ويرد الولد ساخراً: «اسمها التكوين، يا شيخ»، وأخذ يترنم، وهو يهتز بجسده على نبر اللغة: «فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَكَانَتِ الْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ...».

بفزع، ينهض الشيخ. يمشي بوجه مخطوف، معلّقاً يميناه في يد دليله؛ ليشق قفطانة، ويرمي بجبته أمام غرفة خليل، صارخاً فيه بصوته الجهوري الأجش: «حرام عليك... جمعت مع القرآن غيره!».

ويرد خليل: «أليس كله كلام الله؟!».

- ما شاء الله، تنشر الجنون وترد بفجر، يا كافر!

وهرول الشيخ برفقة بعض الناس إلى الجليلة يشكونها المصيبة؛ فابتأست وصرفتهم، وبصوت حزين أنبأت خليل وعيونها تلمع في عيونه: «تشقيك لا، وتحريك أخرى!». ثم تركته يفتش في نبوءتها، ويراجع نفسه!

خرج خليل من عزلته واهن الجسد، صلب الإرادة، أغلق حجرة التحفيظ، وقرر أن يعمل بالتجارة.

ما إن يتخطى خليل المرسى، حتى يتبدى نهمه لكشف أسرار الحياة، يتاجر ويرتاد المواخير، يكسب ويجالس البغايا، يتأملهن ويسأل نفسه الحائرة: «أين تكون السعادة؟».

يأخذ خليل من هذا المرسى بضاعة، ويبيعها في مرسى آخر، ويعود بالمكسب. وفي كل سفرة يروح ببراءة للجليلة بكل ما فعل فتسكت قليلاً، وتنصحه دون أن يخلو وجهها من إشفاق: «كفاية يا ابن كعب».

لكن خليل، هذه المرة، عاد بمغامرة جديدة، قذفت الحيرة في قلوبهم جميعاً!

تجلس البنت السوداء على المصطبة، ترنو إلى الجليلة وهي تهش بعصاها -المنحوت مقبضها بجسد أسد ورأس إنسان- فتتجه الدواجن وجماعات البط والإوز إلى مبيتها داخل الدار، وتهبط أسراب الحمام، فتؤنس البنت بالسؤال: «ما اسمك؟».

لا ترد البنت، وتنكمش على نفسها كقبضة يد، تتابع الشمس وهي تغيب، وتلتفت بكل جوارحها؛ عندما تسمع موال الجليلة الحزين عن الصبر؛ تتملى شفة العجوز بوجه أسيان، ثم تستجيب، وتدخل الدار طائعة لإشارة الجليلة التي أحست بوجعها.

على كنبه في وسط الدار، يتربع خليل بعد تبديل جلباب سفره، والجليلة جواره تقبض على رأس عصاها، تتمم وهي تجول بعينها بين البنت المنزوية، وبين حفيدتها، صفية، وتسامر خليل: «كيف الحال يا خليل؟».

فيلتفت مبتسماً: «نحمد الله يا خاله، رحلة كلها خير».

صفية تصب الماء للجميع كي يغسلوا أيديهم. يشمر خليل أكمامه ويجلس، يفرق الخبز ويوزع قطع البطلة المحمرة. نجاة

تأكل وهي شاردة، والجليلة تلوك ببطء في فمها الخالي من الأسنان تمراتها الثلاث، وهي تضع عينيها على البنت السوداء في ركنها المنزوي لتأمرها: «اقتربي وكلي». وعندما لا تستجيب؛ يشير خليل إلى البنت بكفه لتقبل، ثم يجمع أصابعه ويقربها إلى فمه، فتسأل نجاة: «أخرساء يا خليل؟».

- لا تفهم غير قليل الكلام من لغتنا، حادّثها بالإشارة.

تأكل البنت بلا شهية، مسترقة السمع لوسوسة الليل الآتي عبر بوابة الدار المفتوحة، ويطلب خليل من حماته بود: «بعد إذنك؛ ستبقى البنت هنا، حتى يهدينا الله إلى تدبير».

تومئ الجليلة بالموافقة. يتسم خليل ويوزع من الجوال هداياه: أقمشة حريرية وأساور ذهب لصفية، وعطور وبخور للجليلة، ويخفي هدايا نجاة حتى ينفرد بها. يشربون الشاي، وخليل يحكي عن رحلته ومصاعبها، وهو يمسح بحنو على رأس ابنته الحبيبة صفية.

يوغل الليل، ويغلق خليل بوابة الدار، ويأوي كل إلى مخدعه؛ فتصحب الجليلة البنت السوداء إلى حجرتها، حتى تختار لها في الصباح غرفة تريحها.



لم يفلح قميص النوم الأحمر الجديد أن يخرج نجاة من حزنها وذهولها. فعل خليل ما بوسعه ليخرجها من حدادها الطويل، وعندما آمن أنه مهما فعل؛ ستظل توقف السعادة على

أعتاب حياتها، ولن تكون غير سجينة لما فقدت؛ أخذ يبحث
عن راحته في الخارج، مشفقاً عليه وعلى زوجته ذات الأصل
الطيب الذي لا يخلو من مزايا.

- أتعجبي يا خليل؟

- والله أحبك يا نجاة.

يقولها قاصداً حب الألفة، لا العشق، لكنه أبداً لن يجرحها.
الحقيقة إن المحبة التي تقصدها قد فترت منذ تحزمت نجاة
بثوب الحزن الأبدي، دون أن تعي أن ابنها المفقود أخذ معه
قطعة من كبد أبيه. لكن خليل واجه الفقد بالصبر، وأكمل الحياة.
وعلى الرغم من جزعه مما تفعله نجاة، يرق أحياناً لحزنها الذي
يتمنى أن ينتهي.

2

القمر محبوسٌ خلف الغمام. لا يبدو منه سوى ظل باهت ضئيل، كأنه يستجدي المساعدة من العيون، وتفرق الهمس في البلد هنا وهناك: «الجان يخنقون القمر!». تحول الهمس إلى صياح، وسرعان ما تجمع الناس تحت وطأة الرهبة، ليتصرفوا بتلقائية ورثوها ممن كانوا قبلهم.

*

صوتُ الجموع الهائفة يقترب من دار الجليلة، يستيقظ خليل شبه عار، ونجاة بجواره تدعو: «اجعله خيرًا يا رب». وتهرعُ تلبس الجلباب الأسود، تقمط الطرحة، تفتح البوابة فتجد حماتها كعب الخير - وخلفها جمع من أهل البلد-: «دستور يا أهل الدار»، وتجتاز صحن الدار الواسعة، وتدخل إلى حجرة الجليلة وهي تقول: «القمر طالب العون يا أختي».

- العون من الله، يا كعب.

وترفع الجليلة رأسها وتتنصب واقفةً، تلبسها كعب الخير الطرحة، تقرب المداس من قدميها، وتخرجان من براح وسط الدار إلى الخارج.

تعلو الجلبة، ويشتد الطرق. وبين الحين والحين تضرب
 زغردة من هنا وزغردة من هناك، فتسقط الزغاريد في القلب
 كأنها استغاثاتٌ مُتتابة خالية من أية فرحة، استغاثاتٌ تبحث عن
 نقطة النور التي سُرقت من كل العيون؛ فجرحت القلوب أمام
 أصحابها.

على مقعدها، تجلس الجلبة تفض الظلام عن قلبها
 بالتمتمات والأناشيد، بينما يأخذ الظلام نجاة إلى لجة بعيدة من
 الحزن؛ وكأن القمر المحبوس، هذا، هو طفلها الذي خطفوه في
 قُماطه! يتلفت خليل. يحدق في وجه نجاة الذي أضناه الحزن،
 وسلب منه النور، فأصبح كالظل الباهت الضئيل. ينفث خليل
 تبغّه في الهواء، ويراقب دخانه وهو يعلو حتى يتلاشى على وجه
 القمر المحبوس.



العمدة راضي يبحث عن فتوته التي انجبت في جسده
 المترهل، واستسلمت لوهن يدب فيه. يتمدد نصف عارٍ وعيناه
 مكسورتان من زوجته مرزوقة التي تمسح على شعيرات صدره
 البيضاء وتقول: «استرح وفي الصباح تروق يا عمدة».

ثم تنسرق بخفة من جواره لتتابع صوت الجلبة. لم يهتم
 راضي لهوضها، وقال لنفسه: «خيرًا فعلت». لكن صوتًا من
 بعيدٍ يصدمه: «القمر محبوس يا عمدة!».

ينظر راضي عبر طاقة الغرفة، ويرى القمر مطموسًا بالغيوم، فيزعق على الخفير رضوان من خلف الباب: «خذ الكلوب القديم واطلع الربوة يا بغل».

ينصرف الخفير رضوان وهو يعرف المطلوب منه، بينما يبقى راضي شاردًا، تهدده ذكرى الجرح البعيد الذي كم حاول نسيانه: المركب الذي حمله في الليل الأسود إلى تاج شمس لا ونس فيه ولا ضحكة. فقط قمر محبوس، وجوع وعطش وظلمة. جاء عبدًا ومالكه سيد ممتلي، عيونه ميتة وضحكته نتنة، وفمه فج وقاس إذا بدت سنته الذهب. ينحرف المركب إلى مرسى البلد، فيدنو منه سيده الذي يقبض الثمن ويلكزه: «إلى دوار عمدة البلد، هيّا».

وأشواك المرسى تنغز بطن قدمه الحافي. يكتم أنينه وهو يمشي وسط الخفر الساخرين. يعبر المدق الوعر الممتلي بالأشواك، ويرتقي الطريق الضيقة المحفوفة بالبوص، ليتوقف الخفر عند الربوة أمام دار الجليلة؛ يروون عطشهم، بينما يتسمر في مكانه لا يجرؤ على الاقتراب من الماء دون إذن. وينتبه إلى الجليلة، وإناء الماء الذي أظمأه في يدها، تمده إليه وتساءله: «ما اسمك؟».

- راضي.

ثم يتهته ويصمت، فتنظر إليه بشفقةٍ وتقول: «أنسيت اسمك يا راضي يا ابن مرزوق»، وتؤكد على الاسم مرتين، وهي تحديق في وجهه المنكسر، ويبقى بينهما كلامٌ لم ينطق به، وسرٌّ لم يُبح به!

يساق راضي إلى الدوار، ليحمل فوق أكتافه ما لا يطيق من القربة إلى الحجارة، ولا مانع من ربطه بدلاً من الثور كي يُكمل ري أرض العمدة. ولما انتبه العمدة إلى عملقته؛ أجلسه تحت قدميه ككلب حراسة مخيف، وأخذ يختبره حتى يوقن من إخلاصه. ويزداد كلب الحراسة ضخامة، ويهن جسد العمدة، وتفتت همته، وتزداد غيرته على نسائه وبالأخص «أم الولد». يكلف راضي أن يكون حارسها إن خرجت من الدوار. ويفشي للعمدة بما يراه. أم الولد تركب الركوبة وتستنكر جلباب راضي المنحول وهو يشد لها اللجام، تشتري لراضي جلباباً. يرسم الجلباب على عملقته مهابة، ويغير ملامحه في عيون الجميع، وبالأخص الخادمة الصغيرة مرزوقة، تراودها أحاسيس خفية نحو راضي، تضمهرها وقتاً، ثم تفشيها بعد فشل خطتها في الإيقاع بالعمدة ليتزوجها، بالطريقة التي تزوج بها أم الولد.

ترى مرزوقة في راضي ما لا يراه في نفسه، تغمز وتضحك، فتشتعل غرائزه، يشتهيها ويكبح اشتهاه، يأمره العمدة بشراء أغراض لأم الولد، من الضفة الأخرى، ويبعث معه مرزوقة حمالة تساعده. يجمعهما الليل عاشقين في الأحراش، ويستمر عشقهما في الخفاء، دون أن تنسى مرزوقة طموحها، وحقدتها على أم الولد، التي تهينها وتضربها بقسوة، كي لا تنسى أنها خادمة، تتظاهر مرزوقة بالامثال وتخفي تصميمها على الانتقام! تنهر مرزوقة ارتعاد راضي، وتزجر خوفاً، وتفح بحلمها في أذنه: «لِمَ لا تكون أنت العمدة وأنا زوجة العمدة؟!».

ويخاف راضي من جسارتها، فيصم أذنيه ويقرر البعد عنها، وبفتنتها ترجعه، وبذكائها؛ تهدئ خوفه، وهي تضع بين يديه نصيحتها الجسور: «العمدة قدمه والقبر، وابنه صغير والخفر جنباء ألا ترى عملقتك؟!».

ويفاجئ الجميع القدر، ويموت العمدة بذبحة في الصدر، ينشغل الخفر وشيخهم بالغسل والجنابة، وتنشغل مرزوقة بالوسوسة لراضي عن هشاشة الوضع، فيتشجع ويخلع ثوب الطاعة، ويعلن عن جبروت قوته، فيرضخ له كل من بالدوار كعمدة جديد، وتمسي مرزوقة -بعد أن تتخلص من كارهيها- زوجة وسيدة للدوار، ودت لو لم يكن راضي عقيماً أن تهبه ذرية، لم يشأ الله أن توجد.

يتنهد راضي، يقطع تذكره، ويستعيد واقعه، شاعرًا أن في حبس القمر مصيبةً ستلحق به. يتذكر غريب العراف، الذي مناه في آخر لقاء بينهما بهناء الطالع، وبهدية من مسحوق قرن الفيل الذي يرجع الصُّبا لأوله؛ فيهمس: «أين أراضيك يا غريب، متى سأراك؟».

ويغمض راضي عينيه محاولاً الهرب إلى النوم.



الربوة تمتلئ بالحشود. الجليلة تجلس صامتة فوق كرسيها، وكعب الخير وسط الناس بيدها عصاة تنغز بها الفراغ؛ فيهتز

جسمها القصير الممتلئ وهي تصيح بأعلى صوتها: «ارحلوا يا بنات الحور».

فيهتف الناس، رجالاً ونساءً، صبياناً وبناتٍ: «فكوا القمر المأسور».

كل من بالدار خرجوا إلا صفية؛ تركوها ناعمة بأحلامها. أهل البلد يطرقون على الأواني وهم يتابعون عراك القمر والجنيات. والخفير رضوان يصعد الربوة فتقترب منه كوكب، وهي تتغندر بدلال يفضحه ضوء «الكُلُوب» المترنح في كف زوجها. وبين الخطوة والخطوة، توزع نظرة غواية على المحدقين بفتنتها، دون أن يأبه زوجها لما تفعل.

الواقفون شاخصةً أبصارهم، إشفافاً على القمر، يطرقون الأواني، وقلوبهم خائفة تستنهضه أن يجتاز محنته.

بالصدور غم، وبالعيون تضرع، وبالسما غيوم، وكعب الخير لا يخفت حماسها؛ تصيح والناس ترد، والطبول تدق، والأفق حالك.



تحت ستر تلك الظلمة؛ انطلق الرجل المسمى بـ «الميت» إلى ملاذه. يتلفت كل حين، كأن الجن يطارده. يحدق بعينه الضيقتين البارزتين اللتين تلمعان في الظلام، ويصدر فحيحه. تتمدد عظام وجهه، فتبدو أكثر بروزاً. ينخطف جسده بين

العدو والثبات. كلما توقف، يحدق في نثار البيوت التي هجرها أصحابها إلى الربوة، فأصبحت كالمقابر التي يقصدها الآن. صوت الجلبة يحفزه على العدو. لكنه يتوقف إثر النداء البعيد القادم من الجبل؛ بصوت يشبه صوت عطية الكاتب: «عُد يا ولد ولا تجرح ستار السكينة».



ما زال خليل ينفخ دخان تبغه، ينظر إلى الكسوف في السماء ويسأل عن الحقيقة، ثم يخفض عينيه. يتابع الناس بسخرية، مُتندراً على بلاهة ما يفعلونه. وزوجته نجاة إلى جواره؛ وجهها يحتقن، وتزداد كرباً، وهي تلوك ذكرى فقدانها. يراودها الخوف ألا يهتدي ولدها الغائب إلى المرسى في طريق عودته!

ينبُح صوت كعب الخير من طول الهتاف، فتمرق شرقاوية -والدة الميت- من بين الناس تأخذ العصا منها وتنغز الفضاء بساعدها الفارع، تستحث القمر على النهوض من محنته. عله ينفلت حرّاً، ويهب نوره إلى الناس والبلد.

الربوة تزدهم بالناس، والبنت السوداء لا تعي شيئاً مما حولها، حواسها مشغولة بهتاف بعيد، كأنه من صفحة السماء إليها، أفواه أهلها الذين أفناهم الطاعون تنطق في صوت واحد: «لا تخافي». يكررون طمأنتها، قبل أن يتلاشوا بين طيات الغيوم. تشعر بهم وتراهم كأطياف تضرب قلبها بأجنحة من الهواء. لشد ما

تعلقت بأبيها؛ لكن ها هو طيفه يحدق، وصوته يحشرج في حنجرة الريح: «أبقي هنا».

تُفاجئ السوداء الجميع، وتصرخ صرخة واحدة لم يفهمها أحد، وإن بدت كنداء موحش: «أبي».

ثم تندفع كالطلقة إلى داخل الدار، والكل يراقبها، وترتد وفي يدها إناء كبير من النحاس الأحمر، تشق الجموع، وتخطف عود الحديد من يد أحدهم، وتضرب النحاس ضربات فتية، وهي تشدو بلغتها، وبصوت حاد يشبه أنين ناي موجوع، تردد البنت عدودة موحشة لها رنين غريب كأنه صادر من جوف البرية: «أين أنت يا أبي البعيد؟ أين ذهبت؟ صوتك المحبوس تتخطفه الريح من خلف الغمام وتأتيني به».

ويتوقف الدق، وتسكت الجموع مأخوذة بصوتها الحزين. تلتفت عيون الواقفين تنظر إلى الوجه الأسود المرفوع، يشق غمام السماء، بحدة صوتها القاطع الذي لا يفهمونه، لكنهم يتلمسون وجعه.

- صوتك البعيد يفزعني، ثم يملؤني بالسكينة ثم يتركني حزينة ويمضي من حيث أتى!

صوت البنت يزداد فتوة وحزنًا وجمالًا كلما تبادت في السؤال، حتى جنح هتافها بالناس من الواقع إلى الخيال. ومن شجن صوتها المتألم، علا صوت نجاة بالنشيج، ونفضت الحزن

الكاتم على صدرها في الدموع. وانشد خليل إلى ما يسمعه،
 وحقق في الفتاة وقد تعرقت، فبدا وجهها الأسود كأنه مغسول
 باللؤلؤ، وبدت كأنها فتنة ولدت لتوها من أزمنة غابرة، كفيلاً بأن
 تبعث الروح في قلبه الهامد، وتدفع الملل عن روحه المتعبة.

تنسحب الغمامة مقدار خيط عن حافة القمر؛ فيلوح الأمل،
 وتتعلق الأنظار، وتبتهج القلوب، وتتابع النداءات؛ فتنفلت
 الجنّيات تسحب شعورها من فوق جسد القمر مهزومة، فيشرق
 مكتملاً كمولود جديد على صفحة السماء.

تراقص كوكب، وتزغرد شرقاوية، وترتاح كعب الخير،
 وتصمت السوداء إلا من ابتسامة أسيانة، كشفت عن بهاء أسنانها
 البيضاء، ثم انكسى وجهها بالخجل.

يتفرق الناس إلى دورهم متهللين، وتلتفت السوداء فيلتقيها
 جسد الجليّة، يضمها إليه، لتربت على رأس البنت براحتها
 هامة: «طاوعي النداء وابقى هنا».

3

«الأبيض» بطل الحكاية الجديد. من بلدته، عبر إلى الضفة الأخرى، ليتم اتفاقه، ثم يدخل تاج شمس من جهة الشرق، كي يؤمن لمهمته مدخلاً مُباغتًا ومهربيًا آمنًا عند الخطر.

اشترى بعد عبوره، جملاً وقربة ماء وما تيسر من طعام. خاض صحراء لا ترحم. ربط منديلاً على الرأس يحميه من قيظ الشمس. ومع كل غروب، يبحث عن ملاذ آمن يؤويه حتى طلوع النور. استدفاً في الليل البارد بنار جمع حطبها بعناء، حتى وصل إلى «بحر» في مخبئه الجديد، عقد معه الاتفاق في الليل، وودعه قبل الشروق. اجتاز دروباً وعرة، وبعد سير مضنٍ، رأى تاج شمس، واحةً خضراء في البعد. ربط لجام الجمل بجذع شجرة سنط، وافترش الأرض يستريح. أوقف تاجر تمر جائلاً، باع له الجمل مقابل نقود قليلة والقفة المملوءة تمرًا، دون أن يجيب عن سؤال التاجر المستغرب الذي نعتة بالجنون، وهو ينصرف مسرعاً خشية أن يرجع الأبيض في اتفاقه!

لم يترك الأبيض في تاج شمس شارعاً إلا وسار فيه. يقف واضعاً يسراه على أذنه ينادي على تمره، مستمتعاً بالرؤية الأولى

لهذا البلد المستكين على ضفة النهر. يمرق من الشوارع الرئيسية إلى الحواري الضيقة التي تشبه الأخاديد، ينقش تفاصيل الأماكن في ذاكرته، دون أن ينفك من دهشته لما يراه: الأبواب تعلوها مجسمات من الحجارة والفخار. والحيطان مزخرفة بالطوب الأخضر على أشكال تشبه الصليبان. الواجهات موشاة بالخضاب الملون، وآيات من القرآن الكريم بخط بديع، ورسومات لرجال أبطال يرفعون أذرعهم منتصرين، وأعداؤهم يجلسون القرفصاء، وأكفهم فوق رؤوسهم، وأبو زيد الهلالي ملامحه مهابة، شامخ منتصب، منفرج الساقين. تحت قدميه تتمرغ أفعى غارقة في دمها. ونساء على رؤوسهن الزينة، وعلى صدورهن الذهب، وفارس على رأسه عمامة وعلى كتفه سيف، وبخصره خناجر، يشي وجهه بعظمة محارب. وحيطان عليها مراكب تمخر فوق موج أزرق. وحيطان أخرى عليها نجوم تلفها دوائر متداخلة، بالأحمر والبرتقالي. خشب الأبواب عتيق يعبق برائحة حلوة، عليه آثار ضربات إزميل نحات مبدع. وبعض الواجهات مكسوة بطبقة من طين وتبن، لكن أبوابها ملونة بالأحمر على الأخضر. وعندما اقترب الأبيض من المقابر فوق التلة جهة الغرب، اضطرب قلبه بالرهبة.



بيت الجلييلة الكبير وحيدٌ على الربوة العالية. يصعد الأبيض إليه مأخوذاً بموقعه، يحمل قفة التمر على كتفه، وعند الزير يضع قفته ويشرب. وحالما يرتوي، يريق ما تبقى في الإناء على شعره

الأجعد ووجهه الجامد، ويقلب عينيه متفحصًا المكان، محدقًا
قبالة كرسي الجلييلة الخالي. ثم يلتفت على لمسة إصبعها لكتفه
وترحيبها الدافئ: «العافية لك يا ولدي».

يرد تحتيتها وهو يتملّئ قسمات وجهها المنحوت بالجلال
والمهابة، وتطول النظرة بينهما قليلًا. يرتبك الأبيض من نباهة
ذلك الوجه الذي يتفرسه ويوشك أن يفضح سره؛ فيضمّر في
نفسه أن يختصر الكلام، لكنها عاجلته سائلة: «ما اسمك؟».

- الأبيض.

- غريبٌ أم تقصد أحدًا في البلد؟

- قاصدُ الرزق ليس غريبًا!

مدت نظرها إلى عينيه، وهي تسأل نفسها: «ماذا وراءك، أيها
الغريب؟»، وخبأت في صدرها هواجسها. ثم شردت في خاطرٍ
بعيد.



نزل الأبيض عن الربوة. مشى في الشوارع الباردة يغشاه
الليل. بحث عن مكان للراحة فوجده في عشة قنديل على
أطراف البلد. دخل ووضع قفة التمر، والتفت يمينًا ويسارًا؛
فأدركه قنديل العائد من البوص بعد أن قضى حاجته. رحب
بالغريب، فقصده الأبيض في كوبٍ من الشاي.

الأبيض لم يتهافت إلى الكلام. يتسم فتطل من عينيه أمارات الدهاء، وهو يتفرس في كل شيء يراه. وبعد حديث قصير، طلب الأبيض المبيت؛ فرحب قنديل.

انزوى الأبيض إلى ركن العشة؛ فلمح قنديل وهو يخرج مضغة التبغ يضعها بين شفته واللثة. ابتسم الأبيض ثم وضع يده في سيالته وأخرج قطعة حشيش، ألقاها في حجر قنديل قائلاً: «هذا أفضل». خف قنديل طرباً. جهز نار جيلة وقرب مبسمها إلى كف الأبيض، وظلا يدخان، حتى انبسط الحديث في سهرة لم تكن في الحسبان. وعرف الأبيض من قنديل الكثير مما يجب أن يعرفه.



لم تغمض جفون الأبيض. ترك قنديل نائماً، وتسلسل إلى البستان الواسع المحاط بالأشجار السامقة. استتر خلف شجرة كافور كبيرة، وتلصص من بعيد على دوار العمدة راضي. تابع الخفر الواقفين أمام الباب، ودرس تحركهم وعددهم، وتراجع خلف جذع الشجرة الضخم عندما شك في إطالة أحدهم النظر تجاهه. حبس أنفاسه، وانحرف مختبئاً وراء الشجر، حتى اقترب من أعشاش الدجاج. سمع بأذنه وقع أقدام تطحن الورق الجاف، وتقترب في اتجاهه. اضطربت أعصابه للمفاجأة، وسرعان ما لجم توتره، وانزوى بركن في جدار العشة منتظراً الصوت الموشك، ثم انتفض في سرعة ذئب، وانقض عليها قابضاً على

خصرها لاجمًا فمها بكفه. تموء وتتلوى بين يديه، فيشد قبضته عليها بعنف. يرخي كفه عن فمها بالقدر الذي تتنفس به فتسأل بصوتٍ لا يفضحه: «من أنت؟». يشدها إلى جسده بقوة، ويضع يده في سيالته مخرجًا نقودًا يضعها على وجهها: «أنا سعدك، لو حفظت السر، وموتك لو فتحت فمك!». حركت رأسها تعطيه الأمان، فأرخی قبضته عن فمها وأفلت إحدى يديه؛ فخطف النقود من يده، وقالت متلهفة: «سرك في بئر. ولكن، من أنت وماذا تريد؟».

- لا شأن لك بذلك!

- قل لي، أساعدك. هل جئت تسرق؟

فابتسم ناظرًا لها: «ضعي نقودك في صدرك، ولا تكثري الأسئلة».

تركها، واختلس النظر إلى منبت نهديها النافرين عبر فتحة صدر جلبابها المتهدلة. ابتسم لابتسامتها، وقد اطمئن قليلًا. وضعت النقود في صدرها، ثم رتبت وضع نهديها، فانشد إلى بروز شديد الغواية في عينيها المكحولتين، وحدة شفيتها المقلوبتين. وانتبه أكثر إلى فتوة جسدها وطراوته. وكأنها اشتمت ما دار بخلد؛ لمست صدره النافر بأصابع حانية، مؤكدة: «سرك في بئر. اذهب، كي لا يراك الخفر». وأفلت كفها ببطء، فاهتاج من لمستها. استدارت جهة طريق تعرفه. وبعد خطوات همس

يسألها: «ما اسمك؟»؛ فالتفت إليه مبتسمة بدلال، وقبل أن تمرق كغزالة، همست: «حور».



مع طلوع النور، مرق الأبيض بخطواتٍ خاطفةٍ من أمام الجليلة، دون أن يلتفت إليها أو يحييها. تخطى الطريق الوعرة، ولحق بالمركب المتوقفة عند المرسى، تاركاً قفة التمر لقنديل، وهواجس في قلب الجليلة التي رمشت عينها أثناء عبوره، فأخذت تتمتم: «اجعل القادم رحيماً يا رب».



البنت السوداء أسمتها الجليلة أنس. رأت أنس أقاربها في المنام. طمأنوها ونصحوها بالبقاء؛ فاستيقظت من حلمها هائنة. طلعت من بوابة الدار قاصدة الجسر. مسحت صدرها، ورمت بما في صدرها من أحزان وذكريات إلى النهر، ثم قطفت زهرة صفراء ألقته في الماء الجاري، ووقفت تنظر إلى السماء وتبتسم.



دون معين، تعلمت أنس الكثير؛ من متابعة عينيها الشغوفتين وأذنيها المرهفتين. جمعت حصيلة من كلمات أهل البلد، لكن لسانها المَعُوج أجبرها على نطق الأسماء بانحراف يبدو أحياناً جميلاً، وأحياناً يبدو ركيكاً عندما تقفز على الكثير من الحروف، أو تغير أصواتها، مما أغرى صفية بالتندر عليها، فلا

تلبث قليلاً إلا وتداعب أنس مقلدة نطقها: «مسا الكير يا أنس»؛ فترد أنس، بحسن نيتها وابتسامتها الطيبة واهتمامها الذي لا يفتر: «مسا الكير يا أفيه».

تفتح أنس أمام خليل؛ وردة لها شكل ورائحة خاصة بها، تتابعها عيونه -دون قصد- في محاولاتها المتعثرة أثناء الحديث معه، وفي بسمتها الخجلى وهي تعتذر عن خطأ اقترفته دون قصد، وفي غنائها الحزين وفرحتها الطفولية. يسافر خليل مرة بلهفة، وأخرى دون رغبة، يودع أهل الدار، وفي سلامه على أنس يشعر بوحشة؛ فيهمس: «خائفٌ ألا أعود، يا أنس»؛ فتتنفض برشاقة إلى الجسر وتعود إليه بزهرة زرقاء، يسمونها في بلدها زهرة العودة، تحكي للجليلة عنها وعن أسرار بقية الزهور المنتشرة على الجسر، مستعينة بالإشارة مع حصيلتها القليلة من الكلمات.

ينتقل خليل بين المواني؛ يشتري التوابل من مرسى، ويبدلها بالأقمشة في مرسى آخر، ويحمل الأقمشة لبيعها إلى تاجرٍ في المدينة. يفكر في سر القدر الذي رمى بأنس في طريقه، ويتلمس الزهرة الذابلة في كفه؛ ينظر إليها ويتسم.



على جسر الضفة الأخرى، بالقرب من ربوة يضيق عندها النهر، بنى الأبيض كوخاً صغيراً؛ أوقفه على دعائم من خشب

صَلَد، بمساعدة قنديل. ومن سَعَف النخيل والبوص عَرَّشاً سَقْفَه. غادر الأبيّض، وعاد بعد أيام بقاربٍ قديمٍ وحبلٍ طويلٍ. ربط طرف الحبل بجذع شجرة، ودلّى القارب إلى الماء، محاولاً ربط الطرف الآخر بجذع شجرة على ضِفّة تاج شمس. وبعد مشقّةٍ وعِراكٍ بين القارب وتيار النهر الجارف؛ نجح في ربط الحبل.

أصبح قارب الأبيّض الوسيلة الأسهل للوصول إلى الضفة الأخرى. كان القارب يتسع لستة أشخاص، ويظل الأبيّض واقفاً على حرف القارب، يمسك بالحبل المشدود على البكرة الحديدية، يسحبه فيتحرك القارب بعرض النهر. طوال رحلاته، يسمع الأبيّض حكايات زبائنه. أمسى يعرف الكثيرين بأسمائهم، وتوطدت علاقته بأهل البلد الذين أطلقوا عليه اسم «الريس».

قنديل أقرب الأصحاب إلى الريس. يسهران كل ليلة في الكوخ يدخنان؛ قنديل يحكي ما خفي من أسرار البلد، والريس يسمع بانصات. وفي وقت قليل تكشفت للأبيّض شبكة المصاهرات بين العائلات، وصفات كل عائلة وأعمالها، ومنبت الخلافات التي أنشبت العداوات. وفضحت بين يديه حتى أسرار العشق والفجور.



اندهشت حور لمرآه من بعيد. فلما دنت من القارب واستعادت ملامح الأبيّض، استيقظ هاجس بداخلها سرعان ما اقترب من اليقين؛ فهمست لنفسها: «هو!»، وصعدت إلى

المركب تنظر إلى وجهه المنتفخ بالصحة، وتحديق في عينيه العسليتين. عرفها الأبيض من أول نظرة، لكنه لجم انفعاله. جلست في مقابله، وقد أراحت مشنتها فوق ساقها، وعلى وجهها ابتسامة لا تفتقر. النسيم طير خصلة شعر انزلت من تحت قماط رأسها، فتورط الأبيض في ابتسامة أفلتت منه، وتحسست العيون ما صمتت عنه الأفواه؛ فتحولت ابتسامتها إلى نظرة ذات مغزى، توشك أن تفضح المسكوت عنه. فحدجها الأبيض بنظرة أفهمتها أنه أمرٌ بالصمت.

وصلت المركب إلى الضفة الأخرى، وتلكأت حور في ترتيب مشنتها، حتى نزل الركاب. وبعد عبور آخرهم، نهضت بدلال مقتربة من الأبيض، وقد اتسعت ابتسامتها وهي تمد يدها بالأجرة: «حقك يا ريس».

فأطبق بكفه القوية على كفها الطرية الممسكة بالنقود، ورد: «ما بين الأحباب حساب».

ابتسمت قائلة: «خيرك زاد وفاض، وهذا كثير!».

- من تحفظ سرنا؛ نزنها بالذهب يا...؟

بنظرة معاتبة همست بدلال: «حور يا ريس. من ينسى حور؟!».

فرع مشنة الجبن، ووضعها على رأسها، ومال عليها هامسًا: «في العين حور».

طربت للمغازلة وغادرت، وصوت الرئيس الأجش يرن عذبًا
في روحها.



ظهر العراف غريب. قطع طريقه عابرًا الساحة الواسعة.
وعلى عتبات الدوار، طلب مقابلة العمدة في الحال.

ناشد غريب مسامحته عن طول غيابه، ثم أخرج مسحوقًا
وعشبيًا من حقييته أعطاه للعمدة وصمت! قطع العمدة صمت
العراف بالسؤال عما يشغله، فباغته غريب بأن عنده نبوءة غير
سارة، وعاولد الصمت. بتوتر لقف العمدة القلة من جواره،
وأفرغ الماء في حلقه الذي جف، ثم ارتد ناظرًا إلى عين العراف،
سائلًا: «ماذا عندك؟ قل!».

فقال غريب بصوت حزين ووجه متجهم: «الموت الأسود
على البلد مكتوب!».



من دارها خرجت حور، تتحدى الزوابع. سترت مشنة جنبها
بشاشة بيضاء، وأسرعت تسابق شوقها، حتى وقفت تنظر إلى
وجه الأبيض بلهفة، وهو يشق الماء بمركبه حتى لامست الجسر.
تصنعت حور الخوف، كي يمد الأبيض كفه ويشدها للعبور إلى
القارب بأمان. شعرت بكفه الدافئ تأخذها إلى حلم جميل.

جلست وأراحت مشنتها فوق ركبتها، ثم أخذت عيناها
تتغزلان في وجهه، دون أن تعباً بعيون الرجال المتلصصين على

هيامها. وفي عرض النهر، تفصد الحبل وانقطع، وجرف التيار القارب. صاح الرجال خوفاً من انقلاب المركب المضطرب في خضم الماء. أخذت حور تولول، والأبيض رابط الجأش وهو يعارك الموج، حتى رسى القارب بأمان إلى جسر مهمل بعيد. أوصل حور إلى ركوبة دفع أجرتها، ووهبها غصباً ثمناً لمشنة جنبها المفقودة، ثم ودعها واختفى.

وصلت حور قبل الرجال الذين قطعوا طريقهم إلى البلد منهكين. ظل الركاب ينتظرون عودة الأبيض حتى يسوا. بعد أيام عبرت حور الضفة الأخرى بمشقة، ووصلت إلى الكوخ فلم تجد أحداً. عادت حزينه دون أن يضرب قلبها اليأس، وظلت تذهب إلى مكان القارب الذي لم يبق منه سوى حبل مربوط يتهدى طرفه الحر مع جريان الماء.

رجع الناس إلى طريقهم الشاقة الطويلة في العبور إلى الضفة الأخرى. وفي الأسبوع الثالث، عاد الأبيض فجراً بقارب أكبر، وسلسلة من الحديد القوي، مشدودة على قائم معلق فيه أسطوانة جديدة. تهلل كثيرون لرجوع الرئيس الأبيض، وكان قنديل وحوار أسعد الناس برجوعه.



خرج العمدة راضي إلى مجلسه ليلاً وهو مؤرق غير مرتاح. فعلى الرغم من أن الأعشاب أرجعت قدرته، وجعلته

يستعيد ذكوره؛ فإن قلبه لم يتهج، وعقله ظل مشغولاً يقلب
نبوءة العراف على كل جهة، وكلما سأل زوجته مرزوقة عن رأيها
في النبوءة؛ أنكرتها وسخرت!



تضاعفت حركة العبور إلى الضفة الأخرى، وأخذ الناس
يتحدثون بإعجاب عن الأبيض وفتوته ونشاطه. كثر أصدقاؤه
الذين جلبهم قنديل معه للسهر في الكوخ حتى الفجر، وزادت
عيون المعجبات بفتوته. وأولهن حور التي تحول انجذابها إلى
عشق، ولم تعد تبالي بشيء كي تكون معه.

أمسى الهجير موعدهما للعبور وحيدين معاً في المركب،
يختفيان وقتاً في الكوخ، ثم يعود بها الأبيض. لم تأبه لأحاديث
الناس، ولم تعد تطيق تحذيرات أختها الكبرى، كوكب، التي
حاولت أن تفهمها أن في الخفاء ستر. كان جنوح حور نحو
الأبيض شديداً وعنيداً، حتى إنها فضحت نفسها، وأقسمت أن
الأبيض لو أمرها أن تقطع شريانها قرباناً؛ لفعلت، وبطبيب خاطر.
كان زوج أختها الخفير رضوان، يهمس لزوجته مبتسماً: «اتركيها،
يا كوكب، ربما كان في عشقها خير لها ولنا!».



يمتعض العمدة لأنفه سبب، وتزداد عصبية مع أي حدث.
وأثناء جلوس غريب معه، يقطع راضي كلامه، ويأمر بصوت

منفعل؛ تأكيد النبوءة الشؤم أو نفيها، ثم ينهض ليرتاح وهو
يهمهم بسباب غير مبین!



تحت عين الخفر؛ يلبس العراف غريب رغيفي خبز طازجين
كخفين في قدميه، ويدخل بهما «بيت الراحة»! يتمم قليلاً، ثم
يعلو صوته بتعاويز مبهمة.

يبقى راضي في غرفته، لكن شغفاً يدفعه إلى الخروج. غريب
يصب على يديه وقدميه قطرات من اللبن، فيحمر وجهه وترتعش
أعطافه، وهو يصيح بتعاويز تخطف قلب العمدة. وفي اللحظة
التي يقرر فيها المغادرة؛ يأتيه صوت العراف أمراً: «أقبل».

يمسك العراف بكفه كيس مسحوق عظام مخلوط بوسخ
آدمي، وبالأخرى كتاباً منقوشة صفحاته بحروف مبهمة. ينظر
العراف في عيني العمدة، ويطلب منه اختيار صفحة. يفتح
العمدة الكتاب على صفحة، ويغمس غريب إصبعه في كيس
المسحوق، ويضعها على مكان إصبع العمدة، ويقرأ كلمات
غير مفهومة، ثم يغلق الكتاب ويضع كفه المتسخة على كتف
العمدة، ويؤكد بصوت أسيان صدق النبوءة!

يصمت العمدة شاردًا، وقبل أن ينهض إلى خلوته متبرماً،
يشعر بشيء خفي يتسلل إلى جسده ويفلجه.



أشاع الخفراء الأخبار؛ فاستقبل الناس نبوءة الموت الأسود كمزحة، لكن بين يوم وليلة، انقلبت أحوال البلد وساد التوجس. ماتت خمسة عجول في أرجاء البلد، اجترت العجول لعباً أبيض كاللبن، وخارت ميتة قبل أن ينحروا رقبتها بالسكين. ولم تمر ساعات حتى أخذ بعض الناس يتقيؤون في الشوارع والبيوت. وفي الظهيرة صرخ مسن يسكن وسط البلد من الألم، سقوه ماء؛ فيتقيأ مخاطاً أصفر، وعلت صرخته. فأتى الحلاق على عجل، يحمل جرابه على كتفه، سائلاً عن مكان الوجع وعم يحس؛ فانشغل المسن بنطق الشهادة ومات!

صرخت نساء الدار، وأقبل الرجل المسمى بالميت يغسل المتوفى ويكفنه، واجتمع الأقارب يرتبون للجنازة والعزاء.

وقف الحلاق صامتاً يتكى بظهره على واجهة دار الفقيد، وأمام قدميه جراب أدواته، نافياً لنفسه صدق النبوءة. دنا منه رجل أتى من بعيد، هامساً في أذنه أن يتبعه. رفع الحلاق جرابه وسار خلف الرجل بسرعة حتى دخل داره. رأى امرأة الرجل ممددة، ينهمر العرق من جبينها بغزارة. تلفتت المرأة وبوّهت أكدت على زوجها: «وصيتك العيال»، وزلزلت صرخاتها قلوب أولادها، والحلاق يحاول أن يسقيها من زجاجة، لكنها ترفض وتجز على أسنانها من الوجع، وتلقف أنفاسها. ويكشف الحلاق عن جلباب المرأة فيمسح بقماشة ما يقول إنه بقع نزيفية غامقة فوق جلدها، ويفتح جرابه ويأمر: «أريد صلية نار وفحل بصل أحمر،

بسرعة»، وسحب من جرابه نَصْلاً. واستدار يشحذه في مهارة، ثم اقترب من المرأة وهو يشير إلى زوجها كي يقبض على يديها، وإلى أولادها كي يقبضوا على قدميها، ويشق بنصله ويترك الدماء تسيل، والمرأة تصرخ حتى ينهكها الصراخ، فيغمى عليها. بثبات يضع فحل البصل على صلية النار، ثم يكبس به الجرح، فتتفرض المرأة من إغماءتها وتصرخ بشدة، فيستدير إلى زوجها مطمئناً: «بالشفاء، إن شاء الله»، ويلم أدواته ويخرج من الدار، فيرتطم بجسد الميت، وقبل أن يصل الحلاق إلى نهاية الشارع، يسمع العويل على الفقيدة، فيكمل سيره وقد امتلأ قلبه بالذعر.



أمست الأفواه تتناقل النبوءة دون مزاح. امتنع أهل البلد عن استدعاء الحلاق الذي نعتوه بالشؤم، وتقدم بدلاً منه العشابون، لكن الموت ابتلع عشر أنفس في يوم، ثم أجهز على خفير شاب! تهامس الخفراء أثناء مرور جنازة زميلهم من أمام الدوار. واسترق راضي النظر إلى النعش من موضع لا يراه منه أحد. أخذ يستعيز من الموت الأسود، ثم أمر بإطلاق البخور والأدعية، عليها توقف ذلك الوهن الذي يتسرب إلى روحه، لكن الأدعية أتت برجفة شيطانية أخذت تنهش قلبه، وها هو صبح اليوم التالي يأتيه بالفجعة. تمسك خادمته الصغيرة بطنها وتصرخ؛ فيستدعي العطار. يعطيها شراباً وأعشاباً، تمضغها فتتوقف صرختها وتغيب في دعة النوم، لكنها تموت قرب الفجر.

شعرت مرزوقة أن الموت على وشك أن ينال منها، فاعتزلت في حجرة، وهمست بكدر للعمدة: «صدقت النبوءة يا راضي، فما العمل؟!».

بلع راضي ريقه الجاف وخرج؛ يأمر الحارس بإحضار العراف من مخدعه. ليباغته العمدة أمراً: «أخبرني كيف أنجو؟».

ينظر العراف غريب إلى عيون العمدة المتلهفة لجواب ويخبره بيقين: «الموت يطارد الحياة، والهرب لأيام نجاةٍ بالعمر».

يصمت العمدة وقتاً، ليعود ويسأل بلهفة أقل: «ومصير من يبقى؟!».

- الهلاك.

يضع العمدة كفه على وجهه، كأنه يحاذر من خطر يراه. وبمرارة، يستدير في صمت؛ يخبر مرزوقة بالحل، والحزن الثقيل يجثم على صدره.



تتغير أحوال الناس، توزع حور جبتتها وسمنها على الدور دون مقابل، طالبة الدعاء. ويملاً السقاء صاحب الأبيض الأزيار دون أجر، وتطلق الجليلة نصيحتهما لكل من جاء يسألها: «اشرب من النهر وكل من حشائش الأرض واقفل بابك عليك!».

تنفذ النصيحة وقتاً، وتخرقها العادة، فتمسي كأن لم تقل! تزداد صرخات الموجهين، ويزداد الموتى. يعصف الذعر

بالعقول، فُتْصَدِّقْ كلَّ إشاعة: جاموسة تلد مولودًا برأسين، نعجة تلد كلبًا! وبصمتٍ وضيق مكتوم، ينزوي الخفر في دورهم غير عابئين بالأمن. ومن وقفوا أمام الدوار يحمونه جلسوا شاحبي الوجوه خاملين.

في الصباح، يأمر العمدة الخفر بالاستعداد للرحيل، فيغلق السلاحليك، ويتطوع رضوان للبقاء؛ فيمتن له الخفر، ويهبه العمدة نقودًا.

تعد الركائب، ويخرج العمدة وزوجته مرزوقة، مع حشد من الخفر، ويبقى رضوان وحده حارسًا للدوار الخالي الذي هامت طيورهِ ودواجههِ في شوارع البلد، مهملة متروكة بعدما خمدت شهوات البطون.



نهزت الجليلة ابنتها نجاة لاستقبالها النبوءة كحقيقة؛ فامتثلت نجاة وعادت لما كانت عليه، أما صافية فقد أخذت الأمر على محمل الهزل، تستحم في اليوم مرتين وهي تغني أغاني الفرح، تلبس الملون من الثياب وتتعطر، وكأنها تستعد لاستقبال عريس! أما أنس فلم يكن يعينها كل ما يجري، فقط كانت تفكر في زيادة حصيلتها من الكلمات التي يجاهد لسانها كي ينطقها سليمة. تردد الكلمة في خلوتها كثيرًا لتضبط إيقاعها. حتى إنها لم تفرح بقطعة القماش الجديدة التي أعطتها لها صافية كفرحتها

بنطق كلمة شجرة، تلك الكلمة التي عاندها لسانها المعوج في
نطقها الصحيح طويلاً.



للمرة الثانية هذا اليوم؛ يومض النور أمام عين الميت؛
فينخطف قلبه. يرمي بالمحراث من يده، تاركاً لأمه، شرقاوية،
مهمة حرث الأرض. حافياً بملابس رثة؛ يمرق من عمق
الزراعات كالسهم. يدخل البلد مأسوراً، يتبع نوراً لا يراه سواه!
وعندما يختفي النور؛ تأتيه صرخة أهل الدار التي وقف أمام
بابها!

يتمتم الميت بكلام غير مفهوم، وعيناه الجاحظتان
شاردتان، تهبان ملامحه الخشنة سراً وأسى! قلب الميت
ممتلئ بالكثير مما لا يُقال، لكن فمه موصدٌ على سؤاله الذي
بلا جواب. على هامش الحياة يعيش. يسترهبه الناس ويلعنونه
في سرهم، لكنهم يدركون حاجتهم إليه، والميت لم يتأخر عن
موعد، ولم يغفل عن نور. يقبل قبل الصرخة الأولى، وكأن بينه
وبين عزرائيل اتفاقاً.

يدخل إلى دار المتوفى، بوجهه حيرة، وبقلمه وجع، وبرأسه
أرق. في حجرة مغلقة يغسل ويكفن صامتاً، ثم يترك الجثة
ويسبق إلى القبر، يفتحه ويجهزه.



أهل البلد يحتشدون أمام المقبرة المفتوحة، الغُصَّةُ في قلوب الجميع وهم يتذوقون قسوة الكلمة المريرة. يبكي الأعداء في أحضان خصومهم بمجرد رؤياهم، وقد تناسوا العداوة بينهم، متوقعين أن يأتي الموت الأسود كالطوفان.

محمولاً على أيدي الرجال، يدخل المتوفى إلى القبر المسقوف، يسوي الميت تراب المقبرة، ويريح الجثة جهة القبلة، ويهمهم. ثم يخرج من القبر بعينين تبرقان. وصوت أحد الواقفين يعلو: «وحدوه»؛ فتزد الحشود موحدةً الله. ويقفل الميت باب القبر بالحجر ويكلسه بالطين. ثم يغادر إلى داره ليجلس وحيداً، يترقب إيغال الليل! وعقب نوم أمه شرقاوية؛ يتسلل خارجاً. ومن طريق لا يعرفه سواه؛ يصل إلى تلة المقابر، بجيبه شمعة، ووسط وسوسة الليل يعاود نقب المقبرة التي أراح فيها الجثة منذ ساعات، وصوت كصوت عطية الكاتب المضفر مع صوت الريح يكرر الرجاء: «يا ولد، لا تجرح ستار السكينة». لكنه يزأر رافضاً، ويهبط إلى المقبرة بشوقه؛ يشعل الشمعة ويدنو من رأس الجثة. يحدق بأسى، وينتظر أن يخرج له من الظلمة ملاكاً يخبره عن سر الموت. وعندما يطول يأسه من خروج أحد، يهمهم بغضب، ويخرج من فوهة القبر. يرص الحجارة، ويكلسها بالطين حتى تصير كما كانت. وبجوار المقبرة، يذهب بعينه إلى القمر يحادثه، لكن الغيوم تطمس ضوء القمر لتخرس حديثهما؛ فينهض في صمت، يجمع فروع الشجر اليابس من

هنا وهناك، يوقدها ويتأمل في النار هيئة مئات الموتى، منذ أول شخص دفنه، ثم يريح جسده جوار النار وينام. تصير النار رمادًا، تخرج من الرماد فئران تتسلل إلى أصابع قدمه، تقضمها بأنياب مسنونة. وقبل أن تهرب بالأصابع في رماد النار؛ يتنفض الميت صارخًا من الكابوس. يتحسس أصابع قدميه، وينظر إلى النار فيرى في ذبالة ضوئها وجه من وسده القبر، وعلى شفثيه ضحكة ساخرة، يكاد يسمعها الميت طوال رجوعه إلى داره، خائب الرجاء.



غمام النبوة ضرب ستائره على كل عين. الجميع يتمنى الإفلات، كل يفكر على قدر عقله، أحدهم اختبأ في الصومعة، وخرج قبل أن يختنق إثر شح الهواء، وآخر قفل عليه حجرته، وعندما أمسى ضجره قاسيًا وفوق أي احتمال؛ خرج يسب الموت، أما العجائز فكثير منهم استسلم وانتظر. الساعات تمر ثقيلة، والموتى تزداد أعدادهم. الكل يسأل: «ما العمل؟»، حتى صاح قنديل مقسمًا: «النبوة مؤكدة يا ناس»، وركض بنزقه وعشقه للحياة حيث داره. صر متاعه ومر على الدور وهو يزق محرضًا: «أرض الله واسعة، سأنجو كما العمدة ولن أنتظر الموت مثلكم».

بدا في كلامه فرصة وأمل، تبعه بعض الشباب، ولحقت بهم أسر كاملة، وقبل أن يطلع الصبح هرب كل أقارب الخفراء،

وخلفهم أغنياء البلد وخدمهم، ولم يبق غير بعض الصناع والفلاحين.

الشوارع والحارات غرقت في الصمت. أمست الكثير من الدور بلا أصحاب. في أرجاء الصحاري تجمع البعض، وعلى السفوح تجمع آخرون، وقلائل لاذوا بكوخ عطية الكاتب الملاصق للجبل، فوجدوه خاليًا صامتًا!



أنس تقضي وقتها بحبور وتهنأ ليلاتها براحة تامة، وعلى شفتيها بسمة لا تغيب. تتابعها الجليلة وهي تكنس مسرورة، فتهمس لنفسها: «الرحمة في خفاء الغيب».

ويعلو الغبار ويزداد مع هبات الرياح؛ فتطلب منها الجليلة أن ترش ماءً على الأرض، فترد أنس بسيل من الكلمات التي لا يفهم منها غير القليل. تضع الجليلة طرحتها السوداء على وجهها، وتخفي ابتسامتها؛ فترد أنس على تلك الابتسامة المخفية، بأن تنهض لتقبل كف الجليلة تبركًا وتضحك. تضع الجليلة كفها على وجنة أنس، وتقبلها بحنان، داعية أن يطول سفر خليل!



عبيدة، مُزارع العمدة راضي، يسأل نفسه: «لَمْ لا تهرب كالآخرين؟»؛ فيرد قلبه: «ومن يهرب من قضاء الله؟».

عبيدة أمهر الفلاحين وأهدأهم بالاً؛ ظل منهمكًا طوال النهار في عزيق أرض العمدة، كأن لا شيء يحدث. يستغرب الشوارع

الخالية، ويتوقف عند دكان البقال المغلق سائلاً: «هل قفل البقال على بضاعته، أم أخذها فوق ركوبته وغادر مع الخفر؟».

ويحثه جوعه على كسر قفل الدكان؛ ليغمس رغيفاً بعسل، ورغيفاً بزبدة، ويختم بالحلاوة الطحينية. لكنه يبعد شيطانه، مؤنباً نفسه: «حد الله بيني وبين الحرام»، ويمضي إلى داره التي يعيش فيها وحيداً، وعلى كتفه فأسه.



محفوظاً بالسحاب، يظهر عطية الكاتب من بين ثنايا الجبل. ينظر بوجهه المشرق إلى مريديه، الملتفين حول الكوخ، ويصبح فيهم بصوته الرخيم: «الدنيا مكاراة، والشيطان عنيد، والأيام دول، والله عادل، والناس أنفسهم يظلمون». وقبل أن يختفي يسألونه: «ماذا ترى في الغيب، يا مولانا؟»؛ فيجيب: «في عتمة الليالي نهار، وكل آتٍ قريب». ثم يتسم مشفقاً ويختفي.



الأبيض وعشرات الرجال يعبرون بالقارب في دفعات، يمرون من أمام الجليلة خطفاً. يحتل الأبيض دوار العمدة الهارب، ويتمترس أتباعه حراساً بعد استيلائهم على بنادق السلاحليك بترحيب من رضوان، ينتشر رجال القاتل بحر في أرجاء البلد، دون أن يقاومهم أحد!

وبعد أن يُمسك بزمام كل شيء، يكلف الأفراد بمهامهم. يذهب أبو جميل ابن عم الأبيض، برشوة لرأس السلطة التي تقع

في جغرافيتها تاج شمس، ويذهب غريب بصحبة بعض الحراس
المسلحين؛ إلى تخوم الصحاري وإلى السفوح والوديان، مروراً
بكوخ عطية الكاتب ليُعلّم الهاريين هنا وهناك أن الغمة عبرت،
ويبشرهم بعهد الأبيض الذي صار عمدة تاج شمس.

4

مع أول خطوة داخل البلد، بدت البيوت لعيون أهلها كوشم باهت، حمل في طياته الدهشة والهم والحزن! بعض البهائم وجدوها في زرائبها كأن لم يتركها أحد. أصابت أصحابها الدهشة لأنها دبرت أمورها وطعامها من الكلاء، وعادت إلى مرابطها دون سائق. لكن بيوتاً أخرى أصابها الحزن على البهائم التي نفقت من الجوع، وقد أنسأهم الفزع حل وثاقها. وانتاب الهمُّ بيوتاً أخرى فرت بهائمها من مرابطها دون رجعة. ولم يمض وقت طويل حتى دبّت فوضى، وملأ الشك والتوجس قلوب الجميع.

البراءة أوقفت من هرب من الفلاحين أمام وجوه بهائمهم، يتحدثون إليها كأنهم يتحدثون إلى عاقل. وقبل أن يبدؤوا العمل، مسحوا على أبدان بهائمهم بلمسات حانية، ترجو العفو وتطلب نسيان ما حدث. وحدها الكلاب ظلت مصرة على النباح، وكأن أصحاب الدار صاروا غرباء بعد هروبهم. ولم تهدأ شراستها حتى احتضنها أصحابها وأبدوا الأسف باعتذار صريح.



بدأت المشاجرات بين الجيران على الطيور التي فرت من البيوت، أخذ الأقوياء حقوقهم وزيادة، وبقي الضعفاء حيسي

الجُبن، والتندر على الفضائل التي ظنوها ستتحقق بعد قَسَمِ أهل البلد باتباعها، عندما كان شبح الموت يتهددهم.

ارتوت الأرض العطشانة، ونُظفت البيوت، وعندما جاء الليل نام الناس، دون أن يحدق فيهم شبح الموت. ولم تُورق مضاجعهم سوى مخاوفهم البسيطة التي لو لم يعيروها اهتمامًا لانفكت من تلقاء نفسها.



بسبب الخوف والحذر؛ يفترق راضي عن رجاله، مبقياً معه مرزوقة، وحارساً أميناً. يتنقلون في الخفاء؛ من الصحراء إلى الجبل، ومن الجبل إلى دور مهجورة، حاملين معهم الأموال التي يشترون بها بعض الأمان، وكلما جاءه خبر الإمساك برجل من رجاله؛ يضرب الكف بالكف حرقه على الخديعة التي نسجوا خيوطها بسذاجته، وكلما زار راضي أحد رجاله وحثه على الإغارة والانتقام من الأبيض، يرد: «لم يحن الوقت». ويشتم في زائره رائحة الخيانة، فيغير مهربه بسرعة، ويصدق حدسه، ويقتحم رجال الأبيض المخبيء عقب فراره منه!

مع كثرة التنقل؛ أحست مرزوقة بخشونة الحياة، وبمذلة الاختباء، فقررت دفع زوجها للمواجهة، وظلت تنغز كبرياءه كي يرد عار ما هم فيه، بعد تأكدها من وقوف الناس في المنتصف بين الطرفين كعهدهم؛ ينتظرون الغالب ليسيروا تحت طوعه.



فجرًا؛ يقبل راضي قادمًا من قلب البوص، يكشف عن وجهه، وعن لحيته البيضاء الهائشة وعيونه المكسورة. يتسلل إلى دار الجليلة، وبصوت مشروخ بالحزن والكمد؛ يقف أمامها ويقول برجاء: «أريد نصيحتك».

تأمر نجاة بالصمت قبل أن تشرع بالصراخ، ودون أن تفكر الجليلة؛ تشير إلى طريق المرسى وتقول: «خذ زوجتك واذهب!».

- وأرضي وأملاكي؟

- بجلبابك جئت، ففر بعمرك.

يصمت راضي ويبلغ ريقه المر، متراجعًا عن طلب ودَّ أن يطلبه! ثم يرد اللثام على وجهه الذي ازداد صفرة. وبعيون منطفئة يودع الجليلة. ومن باب الدار يخرج بحذر؛ وفي البوص الهائش يختفي.



نهزت مرزوقة تراجع راضي عندما أعلمها بنصيحة الجليلة، غلبتها حمى الانتقام؛ فأعطت للحارس مالا كي يشتري السلاح، وأخذت تبث لراضي أحلامًا بالانتصار، وتستدعي ما مضى، لترفع من روحه المهزومة، لكن راضي رغم رضوخه، ظل يشعر أن قوته لن تسعفه، وأن ما كان لم يعد.

وما إن اطمأن لهدوء ثورتها؛ حتى فاتحها في الهرب والنجاة
بما تبقى من المال والعمر، لكن الأمل والغرور جعلها ترد
هواجس خوفه، وتسوقه إلى قدره، فاندفع مغصوبًا في لعبة
الحياة حتى الموت!



يتصل راضي بواسطة حارسه، بالموثق بهم من رجاله،
يخبرهم بخطته الحالمة، وفي الساعة الموعودة؛ يتأهب
للخروج، وفي عيون حارسه المتوترة يشعر بالخيانة، لكن القدر
لا يسعفه في الهرب من رجال الأبيض وهم يقتحمون الدار،
ويتكالبون عليه. يستسلم راضي، دون مقاومة، متمنيًا معاملة
كريمة. فيقيده أحدهم، وهو يتهكم على وجهه الأصفر، وعلى
أنفاسه اللاهثة. يأسرون مرزوقة ويسوقونها مُهانة إلى الدوار.
يعيرونها ويسبوننها في الطريق، وعلى عتبة الدوار التي كانت
سيدته، يجرونها بوحشية، فتقطع الحسرة قلبها وتسقط ميتة.

يقتادون راضي إلى الساحة الخالية أمامهم، هزياً، عارياً في
البرد إلا من خرقة تستر عورته، يهينونه ويضربونه بغير رحمة.
ثم يقيدونه بالحبال مصلوبًا على جذع شجرة، في طرف الساحة.
يرى راضي الدوار الذي قضى فيه سنواتٍ أمرًا مُطاعًا، وقد
قُيد أمامه عبدًا، مثلما انساق إليه عبدًا. وجراء الألم والفرح،
يستجدي النجدة من رضوان، طالبًا أن يشفع له عند الأبيض
كي يتركه، مُقسماً أن يرحل من البلد، لكن رضوان الآن كلب

سيده، لن يفيد ولن يضر. فقط ينقل الكلام بتهكم إلى الأبيض، فيرد بسخرية ضاحكًا: «فقد الرجل عقله. ابن المركوب يطلب وساطة رضوان، هذه وحدها يستحق عليها الأدب».

ويشير بيده إلى حارسين، يتحركان إلى راضي ويتبادلان ضربه بالسياط. يتحسر العابرون على العمدة الذي يستجدي الماء بعد أن يقسم أنه ابن زنا! فيرميه حارسه بقطرات في فمه، إمعانًا في الذل.

ثلاثة أيام مرت كدهر. يئس راضي من رحمة معذبيه، فاستنجد برحمة الله أن يمن عليه بموت عاجل.

الدنيا التي بلا نهاية؛ يراها راضي بعين شبه غائبة أضيق من ثقب إبرة، وأخف من ورقة في الريح، حلم عابر ود أن ينتهي بسرعة أن يشهق الفم المستسلم ويسكت الأنين، فيفتر الجسد السخين، وتستحيل الجروح إلى ألوان شائهة على جسد لا يأبه. ترتخي العيون زائغة في خفاء يستعصي على الرؤى. لم يشعر الحراس بموت راضي إلا في الصباح. وفور أن أخبروا الأبيض فكر ثم أمر بهدوء: «اتركوا جثته مصلوبة حتى تتعفن».

تسابت الجوارح، قادمة من الجبل، تنهش، وتقر من الرأس والكتف ما استطاعت، ثم تحلق طائرة. وعندما أزعجت رائحة الجسد التنتة أنوف كل من بالدوار، أمر الحراس بالتخلص منها.



عندما أقبل الميت يجز أأنانه؛ تنهد الخفر ونهره أحدهم:
«خلصنا من تلك الجنة».

غاب الميت في تملي الجسد الذي شوهته الجوارح؛ فنهرو
الحارس صارخاً، وهو يضع أصابعه على أنفه: «احمله بسرعة،
هيا».

غمغم الميت بكلام غير مفهوم. دفعه حارس آخر برأس
البندقية، ثم شده ساخرًا من ملامحه، وأرغمه أن يرفع الجنة على
ظهر أأنانه ويغادر.

غير عابئ برائحتها؛ عبر الحارات، ثم ارتقى الربوة. ترك
أأنانه بعيداً، وأكمل سيره حتى وقف أمام الجليلة يعلن بالإشارة
تنفيذ المهمة التي كلفته بها، فنهضت الجليلة رافعة سبابتها وقد
أدت وعدًا حبسه راضي في حلقه يوم المشورة التي لم ينفذها:
«رحمة الله عليك يا راضي». وزعقت على خليل، فأقبل وهو ما
زال بجلبابه الذي رجع به من سفره. من حجرتها أخرجت قطعة
قماش كتان طاهر، غسل راضي بمساعدة خليل، وحمله أربعة
رجال على محفة متهاكة. وأثناء سيرهم، خرج بعض الناس
وراءهم بواجب إيناس الموتى. دفن راضي، في مقابر الغرباء.
وذهب المشيعون القلائل، كل إلى حال سبيله.



أنس لم تتجمل يومًا. تضحك وقتما تريد، وتلعب الحجلة
إن راودها النزق. تبسم دومًا، ولا تكبت حبورًا. تبوح بكل ما

في صدرها ولا تضر شيئا. تجمع الأزهار، وتغني فجر كل يوم بصوتها الناعم، تنادي عصافير النهار.

أحب خليل فكاهة لكتتها وعذوبة تعبيرها. ومن أسر عيونها اللامعة اشتعل قلبه بلهيب شيء غامض. شيء وديع مع الألفة، شرس وقاس مع الوحدة، يجعله ينتفض سائلا بكبرياء: «أَتَفْتَنُكَ سوداء؟»؛ لترد نفسه: «وهل يرتاحُ النور إلا بأحضان الليل؟».

يقاوم كثيرا لكنه يستسلم للهوى. عيونه الشغوفة تفضحه في رواح أنس وعودتها. حتى إذا صبت له الماء ليغسل وجهه، أو دعت له قدميه بالحجر؛ ينخلع فؤاده لقربها. يلاطفها؛ فتبتسم بسمه الامتنان والشكر. وعلى الرغم من أنها قريبة فإنها بعيدة المنال. ينهشه بوحدته ذلك الشيء الملغز المحير، ويضرب في دمه؛ شيء أَوْجَعُ من ضربة الخنجر ولوعة الفقد، شيء لا شفاء منه، ولا مفر. يحسه ولا يعرف له اسما، وهو الذي خَبر النساء طوال ترحاله: الناعمة صاحبة الخفة، واللينة المتدلة اللعوب، والخمرية الهامسة بما يشعل النار، والبضة البيضاء حمراء الوجه، يفض شهوته ويتركهن، ولا يدركه أبداً أسى ولا ذكرى. غير أن ما يكابده الآن لم يحسه يوماً؛ سحرٌ خفي لا يملك منه فكاً، سحرٌ عُقد بقدرة الجن ونارهم. شيء فوق الشهوة، وأرقى من نداء الجسد، شيء لا يُمتلك، ولا يُقتنص، ولا يُنال. لا القرب العاجز يُسكنه، ولا البعد يريحه. لم لا تكون معه وحده دون العالم؛ ليبقى يسمع غناها الوديع، وضحكاتهما التي تجمع فرح الدنيا وحلاوتها؟



أنس تشعر بشيء غريب يكنه لها خليل. حائرة في معنى الهدايا التي يعطيها لها، وفي الزهرة اليابسة، هديتها، التي ما زال يحفظها في محفظته. يهرول إليها في كل مكان في الدار. عيونه اللامعة تبعث لها رسائل لا تفهمها. عيونه هائمة في النظر، وكفوفه دافئة في السلام. لو كانت تلك هي المحبة، فهي لن تخون البيت الذي آواها. تهرب بنعومة، فتشتعل النار أكثر في قلب خليل؛ يسبل لها عينيه الغارقتين في الوله، فتبتسم في فتور، يمسك كفها الدافئة فتسحبها وتبتعد. وفي وحدتها ترفع كفها إلى السماء تطلب العون.



يملؤه عجز، ويغرق في متاهة بلا نجاة. يبقى وحده في طرف الربوة تحت شجرة الجميز، يطل على النهر، ويسأل نفسه: «ماذا عليك أن تفعل الآن، يا خليل؟ أطلبها من نفسها، أم تصحبها وترحل بها بعيدًا كما جئت بها، أم تبوح للجليلة عن عشقك، وتطلب منها أن تقف بجوارك؟ وماذا عن نجاة؟ وما ذنب صفية في كل هذا؟ ستعقب رفض نجاة لزواجك ثورةً وفضيحةً، تنفخ بها عرى الأسرة، ويضطرب البيت. وماذا عن أنس نفسها؟ أتضمر لك شيئًا من قبول، أم أنها لا تحس بعشقك ولا تقدره؟».

يمضي اليوم والنهار بعد الليل، وخليل يتبدل حاله، تائهاً في دوامة السؤال المُلغز: «لماذا خلقها الله هكذا، وكيف أبدع فيها تلك البراءة وهذا الجمال؟!».

ويفعمه حزن وغضب، ونار تحترق بها عروقه، ويلف الدار كلها يحمل مُر الترقب والقلق. تنفلت تنهيداته مكتومة متضرعة. لا الصباح يطويها ولا النسيان يمحوها، وعلى أمل ينتظر من الأيام أن تتكفل بتبديل الحال، لكن الأيام تتوالد بعذاباته، فيقرر المقامرة بكل شيء من أجل عشقه.



اعتادت أنس أن ترد على مشاعره بردودها التي اعتادت عليها كل يوم، إلا أن بسمتها لم يعد منبتها القلب. ها هي ترمي بحيرتها وخوفها، وتقترب من الجليلة. وببراءة طفلة لا تُخبئ شيئاً في صدرها، تخبرها عن دعوة خليل للزواج والهروب. وتظل تبكي؛ ولا تعفي نفسها من الذنب!



ظل سؤال نجاة حزنها الأكبر: «هل كانت آخر من يعلم؟». ممتلئة بالحنق سارت إليه، وصُورته وهو يتلصص على أنس تنشب في دمها العداء له: «لِمَ يا خليل؟!». تنكر عيناه في وجه تجتاحه الصفرة والخزي؛ فتكمل: «ألم تعشقني؟ ألم تحبني؟ أجبني ولا تكذب؟!». يكتم في جوفه صراخ عشقه ويصمت، فتضرب بكفها على صدره: «ألم أكن هنا؟».

يدير وجهه المصفر دون إجابة.

- أبعد محبتك لنجاة بنت الكرام تعشق السوداء؟! -

...

- كم مرة قلت لي: «أحبك؟»، أكذبت عليّ، أم ضاع عشقي في قلبك الأعمى؟



أنس لم تُهَنُ بكلمة. تحفظها الدار ملازمة للجليلة، لكن ما إن تدخل الدار؛ حتى تَوَجَّل ما دخلت لأجله، وتنزوي في ركن، تؤنب نفسها على حب خليل لها، وتراها صفة ملفوفة على نفسها كقبضة يد؛ فتأخذ بيدها تضاحكها وتجبرها أن يرقصا معاً، وما يكاد جسد أنس يتحرك، حتى تشهق باكية، وتفر لتجلس تحت أقدام الجليلة، التي تمسح على رأسها بحنان بالغ وعطف.

فكرت أنس أن ترحل عن تاج شمس لكن تحذيرات الجليلة نَحَّت الفكرة الطائشة، حتى أقبل قنديل كما كل عام، يطلب الإذن بتختين الجميزة، فتبادلا بسمة، أشعلت الاشتها في صدر قنديل، فأخذ يتعلل بأسباب واهية، ليصعد الربوة ممثلاً بنزق مغازلة أنس. نهفته الجليلة على صعوده غير المبرر، فاندفع يطلب يد أنس، ورغم حديث الجليلة عن طيش قنديل ورعونه، أخبرتها أنس بموافقتها، ولأنه كان خلاصاً لا حباً؛ سكتت الجليلة وقد أظهرت ملامحها كل أمارات عدم الرضا.



تجلس الجليلة على كرسيها، تتابع انسلال الغروب إلى زرقة السماء، ومن أسر المنظر شردت حتى برقت نجوم الليل. أبصرت ضوءاً خافتاً ينير شجرة الجميز، أخذت تتابع قنديل وهو يقطع بشفرة حادة، ما ختنه من الثمر. فتيل الضوء الضئيل يتحرك على الأفرع بسرعة. ولو ثوقها في مهارة قنديل؛ الذي تعرف عنه ما لا يعرفه سواها؛ يتلاشى خوفها من سقوطه إن انطفأ فتيل الضوء المهتز. ولا يمر وقت حتى يقبل عليها، وبصوته الأجش يسلم: «لك الثمرة الأولى، يا جدة. ولي بقية ما ختنته».

ويضع في كفها أنضج ثمرة من شجرتها؛ فتقرب الثمرة من أنفها وتشم فيها طراجة الفطرة. تلوكها في فمها ببطء، مستمتعة بطعمها السكري. وعندما ترى عيون قنديل الشغوفة بظهر أنس؛ تبادلره زاجرة: «تأدب يا ولد».

- أطلب الحلال يا جدة. أريد السوداء ليّ.
- قلبها أبيض يا أرعن، حتى إنك لم تُسمها.
- أريد أنس. وهي تريدني وفي شرع الله أن تسألها.
- لن ترعاها، ولن تكون لها السند!
- أنا قنديل ابن الشيخ عبد الله، حامل القرآن، لم لا تأملي فيّ الخير يا جدة؟!
- الخير عطاء من الله يأتي بموعده، وما بين الشفق والنور شهقة!

وتبصر في عينيه ما يؤكد هواجسها فتخبره: «أعرف ما بصدرك، ولذلك أرفضك».

فيحتد مدافعاً: «لا تغلقي أبواب الحلال في وجهي، وزوجيني من لا أهل لها».

- اسمها أنس، ولها ما لصفية من محبة.

وعندما رأت أنس متهللة تبتسم لقنديل؛ قالت الجليلة بصوت حادّ غير راضٍ: «اذهب الآن يا ولد. سأضع الأمر بين يديها مرة أخرى، ولها الخيار وللقدر الغلبة».



ترحم عبيدة على راضي أمام رجال العمدة، الأبيض؛ فضربه أحدهم بالعصي وسبه آخر: «يا كلب؛ بعد ما راح المقبرة أصبح راضي سكرة».

وكادوا يربطونه في الشجرة، لولا فراره، لتلسع أذنه صرخة كبيرهم الأمرة: «أرض الأبيض، ممنوع عليك الشغل فيها يا ابن الكلب».

ظل عبيدة يخرج بفأسه في الصباح. هامساً ييقين: «الرزق على الله» ولم يجزؤ أحد على إلحاقه بعمل، وبسبب الجوع؛ أخذ يصعد إلى الربوة؛ ويقطع من على الجسر أعواد «السريس» و«الجعضي»، فتهبه نجاة رغيف خبز ساخناً مفروداً عليه قشدة. ويمر اليوم صعباً على عبيدة، وفي النهار التالي تشير له

الجليلة، وتقول بيشر مقررة: «ستعمل في أرضي، وأجرتك كل أسبوع، يا ابن الطيبين».

ينزل عبيدة الربوة. يشكر الله، ويدعو للجليلة بالخير وهو يكاد يطير من الفرح.



أمست حور ذات سطوة وقوة، يخشاها رجال الأبيض، ويتودد إليها الأقارب. تغار منها كوكب وتعزمها على الطعام، فيفرش لها رضوان البساط لتجلس، ويتسابق ليعطيها ما تطلب. وجه حور يزداد حلاوة وإشراقاً. تتعامل كعشيقة للعمدة دون خجل. لم تكن تعصي له أمراً، عدا شرط واحد؛ ألا تأتي إلى الدوار إن لم يطلبها. تمسك شغفها يوماً، وفي التالي تدخل إلى الدوار وتتسلل إلى غرفته دون إذن. تبتسم من بعيد، وترتمي في حضنه. وما إن تخبره بشغف عشقها لطلته، إلا وابتسم مترجعاً عن زجرها وعقابها!



يسافر خليل، وقلبه مقطوع وفمه لا ينطق. يودع من في الدار، وهو يخفي نيته في عدم الرجوع، يمشي، وكل ما فيه مأسورٌ بسحر أنس. يقطع بوصة جافة؛ يقشرها ويثقبها بحرف سكين، وينفخ فيها وجعه، والمركب يبتعد عن الجسر والدار الكبيرة ووجهه.

تهلكهُ الأيام وهو يتنقل من مرسى إلى آخر. وفي خلوته،
 يقلب عينيه بين صفحة السماء وصفحة النهر، سائلاً نفسه: «ما
 الشوق؟»، فلا يعرف غير أنه نصيبه من المقسوم، وقضاؤه من
 المقادير، وأهل العشق مساكين لا يملكون من الحب إلا الوجد.



قرأت الجليلة الفاتحة مع قنديل بعد إصرار أنس. أهدتها
 صفية ثلاث قطع من القماش، فصلت أنس اثنتين، واحتفظت
 بالثالثة في صندوق خشبي صنعوه لجهازها. أما زجاجة العطر
 التي وضعتها لها نجاة في الصندوق سرّاً، فتكتمت على خبرها.
 وكل ليلة تفتح فوهة الزجاجة، تستنشق نفحة من عطرها ثم تغلق
 الزجاجة وتنام. اشترت الجليلة لها جهاز عرس كاملاً، واتفقت
 مع قنديل على موعد العرس بعد إلحاح أنس، وقبل أن ينهض،
 أعطته بحزن خاتماً له فص أحمر ليكون هديته لأنس.



يفقد خليل على المواني التي يزورها كثيراً من طاقته وشغفه
 بمتع الحياة. أمسى كأنه شبَّح ينظر إلى نفسه على صفحة النهر
 بعيداً عن يمن يحب. على جسور المراسي يأوي إلى عُشّة من القش
 والبوص، يأكل من على الجسر ما يعينه على البقاء. يحادث ماء
 النهر عن جراحه، ويسافر بلوعته أبعد مما يجب. وفي بحثه،
 يرفع عينيه إلى السماء يتأمل صنيعها، حتى تخترق زرقتها غيوم،

تستحيل إلى غمام يحجب عنه هُداه، فيغمض عينيه ويشرع فؤاده
عله يتلمس اليقين.

مرة يفكر في الموت كنهاية، ليس بعدها شيء، ويؤكد ظنونه
بأن لا أحد بعث برسالة من ذلك العالم الآخر، ثم ينقلب على
أفكاره، شاعرًا أن وجوده دلالة على وجود خالقه، ويظل على
هذا الحال يسأل وبيته.

لم يكن يعنيه أثناء ترحاله شفقة الناس عليه أينما رحل.
من شعاع الشمس على صفحة النهر تتشكل في صدره كلمات
في جمل شجية، يقولها ليؤنس بها قلبه الموجوع. ثم يطلقها
موجوعة بأنين نايه إلى الفضاء الواسع.



في صباح العرس، تضحك صفية على شهقات أنس
وحسحساتها، والحفافة تحممها وتعطرها. ترقص أنس وسط
النساء رقص ليالي السمر؛ تنثني بجسمها اللين، وهالة من الهواء
العطر يتنسّمها كل من بقربها. يلبسونها جلاباب العرس الملون،
وتقبلها صفية بحب ومودة، ونجاة بتكلف. وبعد العصر، يأتي
قنديل يرتدي جلابابًا جديدًا، يصطحب هودجًا على جمل. تقسم
الجليلة على قنديل أن يحفظ زوجته في عينه؛ فيقسم ويلبسها
خاتم العرس. وقبل أن يأخذ قنديل العروس، تقبلها نجاة وتبكي
لفراقها، حافظةً لها طيبتها وعدم ردها لطلبٍ مهما كان شاقًا.

تودع أنس الدار بأسى، وتخرج إلى مكانها فوق الهودج، ليسير
الجمال وسط تهليل أصحاب قنديل.



في (الصباحية) حملت النساء من دار الجلييلة أطيب الطعام
لأنس. وفي الطريق أقبل الناس على الجلييلة يرجونها أن تدخل
دورهم حتى يتباركوا بها. ومن دار إلى دار؛ وصلت متأخرة إلى
دار قنديل، سلمت على أنس وهبتها نقوداً، ثم كررت بالراح
على قنديل أن يحفظ زوجته، فحلف بأغلظ الأيمان على حفظها.
رجعت الجلييلة مجهدة، والليل يسدل ستائره. صعدت الربوة فوق
دابتها العفية التي سحبها عبيدة، وعندما اقتربت من الدار، رأت أبو
جميل، ابن عم الأبيض يمر بوجه غضوب دون أن يسلم. نزلت
الجلييلة من فوق الدابة متكئة على عبيدة. جلست على كرسيها
وهي تتابع أبو جميل يسير في اتجاهه إلى المرسى، وحال غاب في
أحراش البوص؛ رفعت نظرها إلى السماء وهمست: «دنيا صاحبة
عجب!».



لم تكن أنس تعرف ما سيصنعه قنديل بعشرات البراميل
الخشبية الكبيرة التي اشتراها بكل مالها الذي أهدها لها الجلييلة،
إلا عندما أوكل لها أن تملأ البراميل بالعنب الذي لسعته الشمس
عدة أيام. وبعد أن أنهت عملها، أمرها أن تقطر العصير مرتين،
قبل أن يضعه في زجاجات معتمة اللون. ثم أودع الزجاجات في

غرفة محكمة لا يجرحها الضوء، وبعد خمسة أشهر من العمل والتخمير والتقطير والتصفية، بدأ الناس يتوافدون على الدار التي فُتحت على مصراعيها، بعد مباركة من الأبيض.

يأتي الناس خلصة، ويغادرون في جنح الليل وقد ذهبت عقولهم. تصب أنس لهم الشراب الشبيه بدم الثور في كيزان. وفور أن تبدأ رؤوسهم في الدوران، تثقل ألسنتهم، ويتفننون في التحرش بها، من وراء ظهر قنديل، الذي يؤجل إلى الغد كل كلمة حلوة عزم أن يقولها لأنس، وظلت الأسابيع والشهور تمر دون أن ينطق.

يتبع قنديل لذاته إلى أبعد مدى، ويخوض لأجل هواه كل مغامرة؛ نهاره نوم، وليله كأس وضحك وصحبة، وعلى لسانه تتكرر أبيات فاحشة تتغزل في الدنيا.

رغم زجرها لهم؛ لم يكفّ الزبائن عن التحرش بأنس، وعندما لم تسقطها الكلمات الحلوة في فخ مواعدهم؛ عرضوا عليها المال من وراء ظهر زوجها فسبتهم، اشتكت بكلام موار، فلم يفهم قنديل، وبسبب سطوة الخمر على رأسه، تلاشت شكواها في يم السهو والغفلة، فأمسكت نفسها عن البكاء والشكوى، وهي تكمل عملها على مضض.

تستيقظ في الصباح لتكنس الحانة وتنظفها؛ تغسل الشيشات، وترص الأكواز، حتى يصحو قنديل بعد العصر؛ يأكل ويقابل معها الزبائن.

يمتص قنديل الشراب كبر لا تشيع، وينام في مكانه من شدة السكر. والأيام تمر، وأنس تتأكد أن قنديل قد أتى بها خادمة ليس أكثر. تقابل التحرشات بضيق، نافرة من وقاحتهم ولا تقدر على الذهاب شاكية، وهي التي أصرت على زواج عارضته الجليلة!

حانة قنديل تتسع يوماً بعد يوم، وتملاً السمع والبصر. وعلى السنة مساطيلها تخرج الحكايات والنكات البذيئة وفحش الغزل في الدنيا ومُتعتها.



ينزل من على ظهر المركب تجار سريجة، تلوك ألسنتهم أشعاراً يغنونها، لرجل يلف الأرض بطولها وعرضها ولا يستقر في مكان. تنقصى الجليلة حكاياتهم، لتري خليل فيها. تبعث معهم بالسلام إن قابله، طالبة منه أن يرجع. وتصل الرسالة، فيفر من الطلب ويخوض في الأرض ويبعد. لكن طلبها يظل يلاحقه: «ارجع، فعمر الأحباب قصير».

ونكاية في طلبها؛ يرمي خليل بنفسه في مركب ويرحل إلى بلاد أبعد. يطلق آهته للفضاء، ويواسي بالنائي ما في قلبه من جراح.



في جنح الليل؛ تتسلل صفية وتجلس وحيدة على المصطبة، تنظر إلى النجوم على صفحة السماء، وتشرّد، وعند إفاقتها تبعث

مع نجمة تبرق؛ رسالة لأبيها: «أشتاق إليك، عد يا أبي»، وتظل
تنتظر الرد!

يمر يومٌ بعد يوم، واستغراقها في صفحة السماء يطول،
ورسالتها تتكرر، والقمر المكتمل يرمي ببهاثه، فيمتصه وجهها.
تكنس صفية أمام الدار، وعيونها تلمع، كأنها ترصد نظرات
المفتونين بها. لكنها في الحقيقة تهيم مع فارس خيالها، على
ظهر حصان أبيض. وحال تتيقظ، تبتسم بعذوبة، دون أن تعي
شغف عيون الناظرين لها، فتقوي بسمتها قلوبهم على طلب
يدها.

بسبب وجهها البهي؛ أمسى الجميع -شباباً وكهولاً- يحكون
عنها بلوعة. يحفظ الأوبة بسمتها الوضاعة في عمق صدورهم،
كي يأنسوا بها في وحدتهم مع غسق الليل. يقولون بهيام: «طلتها
تسكر، والتفاتتها إطلالة على الجنان. أما حديثها فمعجزة لا
تتحقق إلا لمن وقفوا على أعتاب المذلة».

تطوي الأيام بالانتظار، ولا ييأس الأوبة. كل يوم يأتي إلى
الدار مراسيل الخطاب، وتجيّب الجلييلة بجملة واحدة، لا يعرف
إن كانت رفضاً أم قبولاً: «عرسها يوم رجوع خليل».



قنديل لا أنيس له غير أصحاب الشراب، على دكتة يتكئ،
يرشف الخمر، ويلعن أباه حين يتذكر كيف طرده جراء سرقة

جنيهاً قلائل. ينام مع طلوع النهار، ليصحو مبهور الأنفاس
كما لو كان في سباق ركض. يجمع إيراد الحانة، ويبقى يحصي
النقود بشهوة، ويخبئها في الدار سرًا.

بحنين من المحبة القديمة؛ يخرج في المساء صوب دوار
العمدة، تحمل قدماه عبء وزنه الزائد. يمسح بالمنديل عرقه
طوال الطريق، ويجلس أمام العمدة مبهور الأنفاس. يتحدث
الأبيض معه بفتور، متجاهلاً ما يذكره قنديل من ذكرياتهما
القديمة. يعطي قنديل هدية للأبيض، فيمسك العمدة الهدية؛
يتفحصها بسخرية، وبعد نظرة يعرف قنديل مغزاها؛ يطلب
الأبيض نصف إيراد الحانة مقابل الأمان. يبهت قنديل بالعاريق
المر، ويهز رأسه معلناً الانصياع، ثم يستأذن منصرفاً، دون أن
يفتح فمه.

5

في جنح الليل، يستتر مُلثمًا بالعممة؛ يلتصق بسور الدوار ويقفز متسللاً. خفيفًا، يغشى حجرة الأبيض الغافل بسكرة النوم. يتصب الملمث فوق رأس الأبيض، وتحت ستر خوار أنفاسه المتحشجة، يرفع الملمث الخنجر ويغمده بقوة في قلب الأبيض، فينفجر شلال دماء، وتعلو صرخة عظيمة تدوي وتنقطع، ويعم الصمت.

يختفي الملمث دون أثر. ويتنبه الحراس من غفلتهم في الصباح على الأبيض، حين يجدونه منكفئًا غارقًا في بوله ودمه.



يقبل أبو جميل من الضفة الأخرى، وعلى وجهه علامات الألم. يرى ابن عمه الأبيض ينز من جرحه كل ما سقوه من أدوية مختلطاً بدمه الأسود. دلائل النهاية جلية في عينيه الواهنتين اللتين أخبرتتا أبو جميل برسالة، ثم غربتا مع رعشة انتفض لها جسد الأبيض، وغادر.

كُفن الأبيض، وأشاعوا اصطحابه إلى الضفة الأخرى ليطلب على أيدي الحكماء هناك. حملوا الجثة فوق محفة من خشب، وغطوها، ليمروا بها من أقصر الطرق التي أخلاها الحراس من

الناس غضبًا، كي لا يروا مذلة الرحيل. جُهِز القارب، وبجهد صعد الحراس الربوة العالية حاملين الجثة الثقيلة فوق المحفة.

الشمس تشرق بخجل، والجليلة تقبض بكفها على العصا، وتشير بطرفها إلى الحمام الذي يرفرف في السماء، وبهدوء تنهض من على كرسيها، ويمر الحراس يحملون المحفة، ويقطع سكون المكان صوت حوافر جواد أبو جميل الذي صعد الربوة، كي يودّع جسد ابن عمه.

يرتسم في عيون أبو جميل غضب، وهو يقف أعلى الربوة، منقبض الوجه واجم الطلة، شاردًا فيما يصعب تفسيره، القارب يتعد بالجثة، وأبو جميل يفيق على صوتها، تقدم العزاء: «البقاء لله». ويبصر الجليلة ترفع رأسها إليه، لتقول عيونها سرًا لا يقال، وعندما يطول صمته ترفع صوتها: «حال الدنيا»، وتعود إلى مقعدها. ويمتطي أبو جميل جواده، يلكره ليسرع إلى الدوار، الذي يستقبله كعمدة جديد.

*

يقتحم الحراس بيوت البلد، ويأخذون من يشتبهون به من المغضوب عليهم، والرجال الذين تحدوهم ذات يوم. وفي الطريق يبصرون عبيدة؛ فيقبضون عليه. وفي الأرض الفسيحة أمام الدوار، يوثقون الجميع على جذوع النخل. ويأمرون الحراس، فيضربون ظهورهم وهم يسبونهم. وبغير القسم بعدم معرفة من فعلها، لم ينطق أحد.

*

وقف أبو جميل بعيدًا يشهد ضرب الرجال، الذين لم يكفوا عن القسم بنفي التهمة وجهلهم بالفاعل. وعلى غير توقع، تدخل دابة تحمل الجليلة إلى الساحة. تتجه عيون الخفر إليها وقد انحرفت في اتجاه أبو جميل الذي ارتبك لرؤيتها، لكنه تصنع الابتسام وحيها. ردت التحية خاطفة وأشارت إلى الموثقين: «ما ذنب هؤلاء؟!».

- متهمون بقتل العمدة.

- غرورة.

همست بها، وهي تنظر إليه؛ فوقعت الكلمة في نفسه وقع ما أرادت أن تقوله وسكتت عنه، فدارى حرجه قائلاً: «إن كان لك قريب بينهم تركناه».

- كلهم أقاربي، كلهم أبرياء، وأنت تعرف.

وهمس رضوان في أذن أبو جميل فابتسم امرأة: «فكوا عبيدة، عامل الجليلة». فنظرت إليه وقبل أن تهم بالكلام أمر: «وفكوا البقية». قالها بغضب وانصرف إلى داخل الدوار قائلاً: «الأمر لن ينتهي والقاتل لن ينجو».



يُعرّف أهل البلد كوكب وحوار بأولاد بسيمة، متناسين اسم أبيهما متولي الخفير. بسيمة كانت جميلة الملامح، لعب

وزبائنها كثر. يروي الرجال عطشهم فيها، ويتركون ما يجدون به فوق كنبه الخير، كما كان يسميها زوجها متولي. ترص بسيمة الخيرات؛ قروش فضة، وفاكهة، وأحياناً قطعة لحم. شيخ الخفر وحده كان يوجد بكيس تفاح، من حديقة العمدة. ويقبل متولي من خفارته فيسر برؤية التفاح، يقضم واحدة ويقول لزوجته: «حلو التفاح، وشيخ الخفر ابن أصل، يا بسيمة». ويضحك فتضحك، وتقول: «الحلو للحلو، يا أبو البنات».

في فراشها ظلت كوكب غافلة عما يجري، حتى فارت بالبلوغ ووعت غرائزها وأدركت مفاتها. في الطرقات يغمز لها الرجال بأعينهم يطلبونها! وترى بسيمة عطش الشبق في عيون ابنتها الكبيرة، فتنصحها: «الرجال عصافير على الشجر. اصطادي واحداً، وتزوجيه».

- كيف يا أمي؟

فردت بصرامة: «بعينك ولا مزيد يا كوكب. أفهمت؟».

ومرت كوكب بعينها على حفنة رجال، ولم يستجب غير رضوان. قابلها ذات ليل وحاول احتضانها؛ فصنعت وقالت: «في الحلال». فرد بضيق: «لا عمل لي لأطعمك». فابتسمت، وقالت: «يفرجها الله عندما تطلبني من أبي»، وأخبرت أمها بما جرى، فقالت دون تفكير: «عند شيخ الخفر الحل».

استقبلت بسيمة شيخ الخفر بحفاوة، وفي أذنه همست ترجوه عملاً لرضوان، فمسح على ذقنه، وقال: «أجعله خفيراً

إن وافق العمدة». فضحكت بسيمة بغنج، وقالت: «لك ليلة هنية إن وافق».

وفور استلام رضوان للعمل، كتب على كوكب وأخذها إلى دار مؤجرة. ومن جهدها وجهده اشترى دارًا بالنصف، ومن طغيان فتنتها عشقها وانغوى.

ماتت بسيمة ومات متولي، وأمست الدار خالية للصغيرة. تمردت حور، على نصيحة أختها كوكب التي ورثتها من أمها. كاد قلب حور الجريء يرمي بها إلى التهلكة. فرت من عشاق، وبكت على آخرين، حتى قابلت الأبيض، وصار عشقها الكبير وأمل حياتها. جاءها خبر قتله، فلم تصدق! وعندما تأكدت اعتزلت في الدار. وأخذت كوكب تطبطب على أحزان أختها. وتزورها كل يوم. حتى عصر يوم ذهبت فيه، لتجد الباب مفتوحًا والدار خالية، وتولدت الأسئلة بينها وبين نفسها وبينها وبين الناس: «هل هربت حور؟ لكن إلى أين؟ هل قتلت؟ لصالح من؟».

الكل يسأل مدهوشًا، والكل لا يجد جوابًا!



في جانب المركب بعثت سيدة لخليل برسالة يفهمها؛ فانحلت شهوته، وأزاح ترددده. رسم بسمة على شفثيه تعلن الموافقة، علَّ المغامرة ترسو به على شاطئ حياة جديدة. نزلا

معاً إلى مرسى بلدها، بعد أن قلب الأمر على وجهيه؛ أرملة، ودارها خالية ومأمونة. وفي الدار قالت إنها تعرفه، وحكت قصصاً تلوكها الألسن عن مغامراته الغابرة. عيناها الواسعتان أغرته فاشتعل. رمته على السرير بدلال، وأفلتت ملابسها بفتنة؛ فاقشعر. بضة، بيضاء، بشعر بني مُحَنَّى، ونهد نافر، وجسد منحوت، في تحديقه انقلبت مفاتها إلى دمامة، فأدركته أحزانه، وتلاشت من دمه شهوته. طردته بغضب عندما بكى؛ ففر غير آبه بنعته بما يسوء الرجولة. ورجع لترحاله، وطيش غرائزه قد مات فيه. المركب على المرسى تأخذه وتبعد، وهو المشتاق للبعد، لا يعنيه ثيابه الرثة، ولا لحيته الطويلة. أمرٌ واحد يورق أسفاره؛ خشيته أن يموت غريباً دون أن يرى أهله، بخاصة صفيه التي تبعث له بالمراسيل، وترجوه بمحبتها وقدرها عنده أن يعود.



أبلغت السلطة ودفع المال المطلوب، فترجع أبو جميل في الدوار مكان ابن عمه الأبيض. ملامحهما متشابهة، لكن قسوة أبو جميل فاقت الحد. يستعين ببعض أهل البلد ويعينهم خفراء، يوكل إليهم إعلام الناس بزيادة الجبايات، ويأمرهم بجمعها، ويضع الخفير رضوان عيناً عليهم.

عقل أبو جميل لا يهدأ. يزيح رجالاً، ويقرب آخرين، مبقياً على شعرة لا تنقطع مع الجميع. وتأتيه رسائل من العراف، غريب؛ فيها طلبات تكثر، وكلام من حين لآخر، يحمل نبرة

مقلقة بالتهديد، وتلميحات بالشراسة في كل ما تم ترتيبه وما تم كسبه! فيكظم أبو جميل غيظه وهو يقرأ آخر رسائل غريب ويتسم.



مع غروب كل يوم، توقظ أنس زوجها، الذي بدل نهاره بليله. وترك لأنس إدارة الحانة في النهار. يفتح قنديل عينه فتلمس كفه زجاجة الشراب، يرشف منها، وعندما يسري الخدر في بدنه؛ ينهض ليأكل ما يشتهي، ثم يأخذ من أنس الإيراد، وينصرف الى أصحابه يكمل الشراب ويلوك أطيب الطعام معهم. يضحك عندما يسمع مزحة، ثم يتحول ضحكه إلى بكاء وهو يحكي عن ذكرياته مع الأبيض. وبلا إنذار يغرق في النوم.

ينطفئ النور في السماء ويحل الغروب. يد أنس توقظ قنديل، فيفتح عينيه وشيء كالحجر يجثم على صدره. منذ زمن لم يتحرك ولم تدس قدماه الطريق. حتى إتاوة أبو جميل يبعث بها مع أنس، يذكر قنديل كيف كان نشيطاً ممشوقاً، وكيف أمسى الآن! وجهه اصفرّ، وكرشه كبير. يبلع مر الشراب وينهض مثاقلاً، دون أن يعير أنس اهتماماً. يسلم على أصحابه فيسألونه: «ما بك، يا قنديل؟». لا يرد. ويهمس لنفسه: «ملعون المرض ملعون الموت»، ويجلس على الفرشة المخصصة له، وتأتيه أنس بدجاجة محمرة وطبق أرز وبازلاء؛ فيمسح قطرات العرق من على جبينه، ويأكل بنهم مثقلاً بحشرة أنفاسه. لا تسأله

أنس عما به، وتنصرف متبرمة الوجه، تعلن رفض معاملتها بهذا الشكل. يُجهزُ قنديل على الطعام، ويشرب الكأس وراء الكأس حتى تقارب زجاجة الخمر على النفاد. لسانه ثقيل وهو يحدث من حوله، وعيونه المخدرة تتبع تأرجح لسان ضوء المصباح الزيتي، أما عقله فمشغول في الزيادة التي فرضها أبو جميل نظير الحماية. وجهه محمر، ورأسه الثقيل يلف في حلقة ويدور متعبًا كأنفاسه. كل الجالسين يحاورون أحزانهم، عليهم يصطادون الفرح! يستجمع الجالسون قواهم، وينهضون واحدًا تلو الآخر، تاركين قنديل لنومه الثقيل.

أنس تتأب ناهضة، تنفض الكسل. وعندما تدير بصرها إلى فرشة زوجها تجدها خالية، تبحث عنه، وتلمحه في مجلسه بمدخل الحانة ممددًا، تلكزه: «انهض وأكمل نومك على فرشتك».

لكن جسد قنديل صامت، لا يخرج صوتًا ولا صفييرًا من فمه. تلمسه، فلا ينبس. تلكزه، فلا يستجيب. تحركه بقوة، فينقلب كعجينة طائعة. فتضع أذنها على قلبه مذعورة، وتطلق صرختها وعويلها، ويتمتم من أدركه الخبر: «ليشفع له أهله الصالحون، ربما يرحمه الله».

بمعاونة أربعة شباب من جيرانه، يرفعون جسده الثقيل، ويسترونه بغرفته. وعندما يتأخر الميت في الحضور، يتطوع رجلٌ للبحث عنه، وآخر يذهب ليعلن نبأ وفاة قنديل.

رواد الحانة يسمعون نعي قنديل؛ فيرتدُّون وهم سكارى. يظنون أن ما هم فيه ليس سوى حلم أو خيالات. يرفع النعش أربعة رجال وقد ستروه بغطاء، متَّجهين إلى المقبرة، فيهرول السكارى خلفهم. ينقب القبر بسرعة ويوارى الجسد. يقفل على باب القبر بالحجارة والطين، ويُدعى للمتوفى بأقل الدعاء. ويغادر المُشيِّعون المكان، تاركين السكارى الذين تمددوا على الأرض وغفوا، ليفتحوا عيونهم، وقد وخزتهم الحقيقة، بأن الأمر لم يكن حلمًا. فتحت وطأة السكر، مات قنديل! يرجع أصدقاء قنديل إلى دورهم، يأخذهم الدهول، وتهزهم الفاجعة، ويرتعدون لذكر الموت.



يمشي أبو جميل في حديقة الدار ذهابًا وإيابًا، وتحت ظل شجرة مانجو يجلس دون أن يجرؤ أحد أن يسأله عما يشغله. بصوته الواثق، ينادي على حارسه الأمين. يعطي الأول ورقة مطوية يوصلها إلى بحر، مكتوب فيها: «نريدك في أمر»، ويعطي الآخر ورقة يوصلها إلى العراف غريب، مكتوب فيها: «أعددت لك كل ما طلبت، فمتى تجيء؟».



وحيدًا يمشى الميت تحت ضوء قمر مكتمل، ترن بداخله صرخة وحشية تعاد في أنين دائم. يعبر وسط غيطان الذرة، مواصلاً طريقه على مدق ممتلئ بشجيرات شائكة. وسوسة

الليل مختلطةً بنقيق الضفادع. الهواء شحيح في المدق المخنوق بالأشواك وبأغصان الشجر. وعلى مشارف الوصول للمقابر يدير رأسه، أنفه يتشمم، وعيونه تبحث عن مصدر ذلك العطر الأخاذ. يتتبع الرائحة حتى يهتدي إلى شجرة «مسك الليل»، ويستغرب كيف لم يلتفت إلى رائحتها من قبل. يستنشق الرائحة حتى يمتلئ صدره، يتحسس الأوراق، ويقطف فرعًا ممتلئًا بالزهور البيضاء الصغيرة ويتحرك، وفي كفه تتلاشى رائحة الزهور بمجرد قطعها. وبالقرب من قدمه، يحفر ويدفن فرع الزهور، ثم ينهض يكمل سيره دون توقف حتى يصل إلى تلة المقابر. يسير بين الشواهد ويناجي. الأسماء تتبدل والقمر يتلصص. والميت يسأل: «أيضنيهم العذاب أم يشملهم النعيم؟!». وأمام باب المقبرة التي أودع فيها قنديل، يبصر ظل جسده يتناول في الخلاء على عدة قبور. يحدّق في طول ظله، ويقرر: «الليل مؤنس عن النهار والناس»، ويجلس، يخاتله حنين أن يحيا عمره وحيدًا في ذلك المكان وينعم بالراحة. لكنه ينحّي أمنيته خشية غضب أمه وأخواله. يتأمل قرص القمر، وسباق السحاب على صفحة السماء. تنأهى إلى مسمعه صرخة مكتومة، لا يعرف أهي حقيقة أم وهم. القمر بدر الليلة، يتباهى بالكمال طليقًا. دقة أخرى واهنة تخال الصمت. يتلفت الميت حوله مذهولًا. يرهف السمع ويؤكد: «لا شيء غير وسوسة الليل!». وبجوار مقبرة قنديل يجمع حطبًا ويشعل نارًا. يظل يرنو إليها حتى يتخدر جسمه وينام.

ضوء القمر يلامس وجهه المجهد. جفونه مطبقة، وثمة كف تخرج من قلب النار تربت على صدره. يفتح عينيه المثقلتين بخدر النوم، غير قادر على الاجابة: «هل اليد التي أيقظته حلم أم حقيقة؟!».

ويمسح بكفه على وجهه؛ فيسمع دقة مكتومة أخرى. يلصق أذنه على جدار مقبرة قنديل، فيسمع خربشة تتبعها نهضة بكاء مكبوت يائس.

بسرعة ينبش فتحة المقبرة، وينزع الحجارة. تخرج له يدٌ عاريةٌ ترتجف، وصرخة مبحوحة بالرعب. يوسع فتحة المقبرة، ويجذب الملتاع؛ فيخرج جسد ضخم مدثّر بكتان أبيض ممزق. ما إن يرى النور حتى يخر ترتعد أوصاله وترجف شفتاه. ما من شبه بين ذلك الوجه المذعور وبين وجه قنديل، لكنه هو. يصرخ الميت بصوت طليق لأول مرة: «قنديل عاد من الموت!».



على باب الدار تجد صفية كل يوم منديلاً أو زجاجة عطر أو شالاً مطرّراً برسم قلب. صفية بريئة كطفلة، صافية كماء، فائنة كوردة، الجميع يتناحرون كلما أشاع أحدهم أنه على وشك خطبتها. وجهها يراود أحلام الشباب. حتى بعض الشيوخ لم تسلم قلوبهم من حبها؛ يتهامسون بأطيب الحديث عنها. يحكي المتيمون بها في سمر الليل عن جمالها المحير وبسمتها التي تأسر.

تستحم صفية صباحًا ومساءً. ترتدي مبهج الألوان وترش العطر على ثوبها الناعم، تبسم لطلتها البهية في المرأة، إلا أن بلامح وجهها طوية أكبر من الإدراك.

صفية ونيسة جدتها، تحفظ منها المواويل وتنشدها، فتنظر الجليلة إلى نعومة وجه حفيدتها، وهي غارقة في شجن ذلك الصوت، الذي يجمع العصافير وكأنها أتت لسماعها.



جاءت شرقاوية -أم الميت- حافية بعد العصر، تسلم وتجلس تحت أقدام الجليلة وهي تشكو: «رأسي ينفلق من الوجع يا خالة»؛ فأشارت الجليلة إلى صفية لتحضر المفتاح الحديدي. ربطت عليه طرفي الشال، ولفت المفتاح حتى أحكمت الرباط على رأس شرقاوية، ثم أطلقت نفثات وهي تحل ربطة القمطة ببطء. لثمت شرقاوية كف الجليلة مرتاحة، فحدقت الجليلة فيها، وكأنها تقول: «ليس هذا ما جئت من أجله؟»؛ فأخفضت شرقاوية رأسها، ورجت في توسل: «ادعي لي كي يفيق الميت مما هو فيه يا خالة». بإشفاق تبسم الجليلة وتهمس لشرقاوية: «زوجيه يتبدل».

- لا واحدة ترغبه!

- وماذا عن الأقارب؟

تشرّد شرقاوية قليلاً، ثم تنهض مبتسمة كأنها عثرت على ما أرادت: «يا فرج الله».



صامتاً على فرشة مبسوطة، يستند قنديل بظهره ورأسه إلى الجدار. لا يعنيه من يقبل ولا من يستأذنه في الخروج. عيناه شاردتان، وكفه اليمنى على فخذة ترتعش دون توقف. أنس لم تقدر على منع الزائرين. كل حين يدخل عليه شخص، وينهض من عنده آخر، وهو لا يتحرك. تغيير له ملابسه كلما بال على نفسه. تقلب في الرجل كأنه عجيبة ليس بها روح. اليوم يمر تلو اليوم، وقنديل لا تهدأ ارتعاشته، ولا ينطق بكلمة. ويغيب في نشيج بكاء طويل كلما أقبل الليل أو انطفأ المصباح.



يئس الجميع من بوح قنديل بأسرار ما رآه، وانفض عنه الناس، أيقن أقرب ندماء قنديل أن حالته صعبة وشفاء بعيد؛ فانصرفوا عن زيارته. لم يعد لأنس باب للرزق. ومع ذلك استراحت من سخافات الزبائن، ومن مهنة تكرهها. لثلاثة أيام ظلت تبحث بدأب حتى استطاعت إخراج أكياس الأموال التي خبأها قنديل في مكان لم يخطر ببال. قنديل يحتاج إليها حتى في قضاء حاجته. سقته وصفات العطارين، أخذته إلى حكيم في الضفة الأخرى، فأعطاهها مساحيق يبلعها ذائبةً مع الماء فور استيقاظه وقبل نومه. وعندما ساءت حالته؛ أغلظت القول

للحكيم، فأعلمها بابتسامة صفراء أنه لا يملك علاجاً لمن تلبسه الموت. وفي أوج يأسها عرضت عليها جارة طاعنة في السن اللجوء إلى عطية الكاتب.



كوخ عطية الكاتب سفر، وطريقه محيرٌ. على المصاطب تلاك قصة أنس في سعيها إليه. أراذل الخفر يهمسون لها بكلمات شبة عليها ترضى، لكنها تدوس كلماتهم تحت مدايسها، وتتخطاهم. مأخوذة بشغف الوصول؛ تُمسي البلد وراءها، والصحراء القاحلة أمام عينيها شاسعة، والجبل بعيد، وليس لأنس خبرة بمتاهات الصحراء؛ فكيف يتلبسها يقين أنها برغم كل هذا التيه ستصل؟!

بين تلّين تسير مع انحناء الطريق كما أخبرتها العجوز التي أوكلت إليها رعاية قنديل حتى تعود. خطى أنس واثقة. عيناها تحدقان في أثر الأقدام على الرمال، وفيما حولها من صخور وهضاب، العرق يتدفق من جبينها؛ فتمسحه ولا تتوقف عن السير، الطريق الضيقة تنفرج قليلاً، وبعد ساعتين من السير الشاق ينفرج الطريق تماماً، وتجد نفسها قرب النقطة التي بدأت منها المسير. البلد منكمش أمامها والصحراء الشاسعة خلف ظهرها. وشجرة سدر تتصب فارعة، تلتقط أنس من تحتها ثمرات النبق مندهشة تحدث نفسها: «كيف لم أرها؟».

تأكل ثمرة، وتضع ما جمعته في منديلها وتعقد أطرافه، وبين الرجوع إلى الدار أو السير في طريق أخرى تتردد. قدماها صارتا متعبتين، بالكاد تحملان جسمها. تلتقط عصا معقوفة من خشب له رائحة عتيقة، تستند إليها وتقرر بعناد معاودة السير.

العصا تفرش على الأرض ظلًا طويلًا أمامها؛ تتبع اتجاه الظل، وتسير بإيمان طفولي أنها ستصل! فينفرج الطريق الملتوي بعد ضيق، ويتراءى الكوخ الحجري. تدنو من الباب تطلب الإذن، فيأتيها الرد من صوت رخيم: «تقدمي، يا أنس».

يتسم عطية لطلعتها، ويجيب عن سؤالها الحائر الذي لم تنطقه: «أعرفك»، ويشير إلى قرب الموقد الذي تخرج منه رائحة الصندل، فتجلس متربعة صامتة.

قبل أن يغادر عطية الكاتب إلى الجبل، كانت في عيونه عتمة، وفي قلبه حجر. ويوم رق ورأى، ترك الدنيا خلفه وسكن الكوخ البعيد المحتمي بحضن الجبل. أخذ عطية العهد ممن قبله أن يطرق الباب دون يأس، وعند رأس الجبل ظل ينتظر الهبة. غشاه الليل تلو الليل، وإصراره يكبر. حتى انشقت السماء عن برق وجواب. ثم عاد الصمت وساد عميقًا!

دخان البخور يصنع حاجزا بينهما، يحكي عطية من ورائه، عن حيارى يأتون بأوزارهم، ويخرجون بعد البوح وقد تساقطت عنهم، فتشجعت وسألته: «بعد أن فتحت لك الأبواب: لم لم تكنز ذهبًا أو تملك أرضًا أو تسكن قصرًا؟»؛ فبش لها وقال:

«الذهب تراب، والأرض مقبرة، والكوخ مقام، وللقدر موعد يا أنس».

وخفت الدخان، فنظرت لعينه اللامعة بما هو أكثر من الدمع؛ فأحست بنسيان ما جاءت لأجله. ودون أن تسأل؛ حكى لها، عن جبال تفنى وبيوت تبني، وعن مطر يسقط من قبة الليل، ثم رتل أشعاراً بصوتٍ شجي، عن البلاد التي ستتقارب والقلوب التي ستتباعد. وعندما استدار عنها نهضت. بعد خطوتين، تذكرت طلب العون لزوجها، فرجته أن يهبها حجاباً أو شيئاً يهدئ زوجها الذي اشتعل رأسه شيئاً. فيأمرها بلطف: «اذهبي، يا أنس، ولا تخلي خاتمك من إصبعك!».

- وقنديل؟

فسكت ولم يعطها فرصة لتسأل. وعند دنوها من باب الكوخ نصح: «قولي له يدعو».

خرجت أنس شاعرة بأن كتفاً حملت معها همها. وعندما وصلت إلى الدار خار جسدها. تقيأت وزهدت الطعام. وبعدما تذكرت آخر لقاء بينها وبين قنديل؛ ساورها الشك أنها حُبلى، ثم تحول الشك إلى يقين بعد تأكيد القابلة.



من كل البلاد يأتي خُطاب لصفية، شباب وجهاء مليحو القسمات، أصحاب فتوة وشجاعة، تحمل عيونهم لوعة الغرام

وعطش الشوق. وعندما تسألها الجليلة عن رأيها؟ ترد: «لنتنظر عودة أبي يا جدة».

تعرف من الرد أن العريس لم يرق لها؛ فتبعث لأهله مع مرسال بأن كل شيء قسمة ونصيب. في المرة الأخيرة خفضت صفية رأسها بخجل؛ فبعثت الجليلة بأمرها مكتوباً في قصاصة ورق لخليل: «كفى.. عُد الآن، لترعى نجاة ولتكرم صفية».

عينا صفية مخطوفتان ومصفرتان. تعطيها أمها عشباً تشربه، فتنام بعين شبه مفتوحة، وتغيب في هذيان الحمى.

تنادي نجاة امرأة كي تقوم بشغل الدار حتى تشفى ابنتها. وتجلس الجليلة على مقعدها العالي، ترمق النهر الملتوي بعينين حائرتين وتتنهد.

شفتا صفية جافتين، ووجهها كثرة ليمون معصورة. تذهب نجاة كل حين إلى أمها الشاردة، وتسألها: «متى تشفى يا أمي؟»؛ فتتجه الجليلة إلى حجرتها مدعية بحثها عن عشب جديد. وعلى طرف سريرها، تجلس مثقلة بهم ما تستشعره!

يقف من بعثت به الجليلة أمام خليل، مخفياً دهشته مما قد صار عليه حاله! يقرأ خليل ما في قصاصة الورق ويقول: «في الأمر أمر»، ويسأل عن صحة نجاة وعن أخبار صفية، فيكذب الواقف بكلام يُطمئن.

على صفحة الماء يرى خليل وجهه، ولحيته الطويلة قد غزاها المشيب، وبياض وجهه قد لفحته السمرة. حتى شفتاه

وأسنانه أصابهما السواد، من تعاطيه الدخان بنهم. خرج خليل يبحث عن جواب لسؤال عشقه، ولأسئلة الوجود! ورغم أنه لم يدرك يقيناً، فقد ترك آثار أقدامه، في طرق لم يمش فيها أحد، ونحت أسئلته على جذوع أشجار ستورق. فقلب صفحة الماء بكفه، وهو غير نادم على رحلته التي علمته ما لم يكن يعلم!

بقلب موجوع، يخاتله طيف زوجته التي ظلمها بعشقه لأنس. يشعر أن هروبه كان لغواية ملكته وقد أوشك على الفكك منها. وعندما لا يستطيع كبح لهفته؛ ينهض من سباته مع الفجر. في صرته جلاباب وبعض خرق ممزقة وشال أبيض وناي. يصعد على سطح مركب. يسند رأسه ويشرد في تأمل الماء الجاري، والشرع الأبيض يرفرف، والمركب يشق الماء مسرعاً. ويفيق خليل من شروده، يسأل الشاب الواقف وراءه يدير الدفة عن الزمن المتبقي للوصول إلى مرسى تاج شمس، فيخبره الشاب بجملة يؤولها عقل خليل؛ جواباً عن رحلته: «لقد قاربت على الوصول».

ينفلت حنين خليل يسترجع ما كان بماضيه من مسرات. يتذكر يوم أحضر لصافية سلحفاة أكبر بقليل من كفها الصغيرة. تندررت نجاة على الهدية في الليل، ثم أهملت أعمال الدار في الصباح، وأخذت تتابع السلحفاة وهي تدب وتبث إلى الجسر؛ تخرج رأسها من صدفتها الصخرية، وتأكل العيدان الخضرة. ترن ضحكاتها في أذنه، ويفتش في قلبه عن حكايات أخرى ليشعل الحنين فتيل الدمع في عينيه؛ فيرى المرسى قد لاح له.

يقف المركب، ويعبر خليل المدق الوعر. يمشي متجنبًا الأحجار والأشواك والحلفا. يصعد الربوة بقلب يخفق. كل شيء حوله ليس كما هو، صفحة السماء تبكي رذاذًا، وضربة البرق تشعلها، وأخذ خليل يتقدم، وقد أدركته رجفة. تراءى أمامه، شيء يُنبئ بما ليس خيرًا؛ الجليلة لم تكن جالسة على مقعدها العالي، وقبل أن يبلع ريقه جاءه النواح صادمًا، وقبل أن يتنصت ليعرف مَنْ سيودع؟ بوغت باسمها يعلو بنواح النادبات! فقالت جوارحه مستنكرة: «كيف تموت؟! ألا يخجل الموت!».

وبقدميه المرتعشتين وبقلبه المذعور اقترب. يدوس التراب الندي خفيًا، كأنه يدوس عيونًا أمست ترابًا، وأمام الباب تسمر، وبلوعة همس باسمها، وقد غشته حواسه، فلا هو يرى أو يسمع أو يحس. مخطوفٌ في حجب عالم يخصه، عالم يربت على قلبه ويسمعه ما لا أذن سمعت، فيرى نورها ويسمع ضحكاتها! يحاول أن يخطو إلى داخل الدار، لكنه لا يستطيع التقدم ولا الرجوع ولا الجلوس. يتيسر مبهوتًا، واسمه يتردد، وأكف تحاول تحريكه. إنه بحق لا يعي إن كان حلمًا أم حقيقة. أين هو؟ ومن الذي يرجوه بلطف أن يتزحزح؟ ويعبر النعش المغطى بالحرير الأخضر، ويتحرك خليل، ودون مقاومة يسير بين رجال يعرفهم ولا يعرفهم، متكئًا على كتف عبدة، ويخر جالسًا على المصطبة بيتسم. ينث في نايه، ما بقلبه المكلم من حزن، ينث والدموع

متحجرة في عينيه. ولأن ما يفعله من الكبائر في المشهد الجلل؛
تهمس له أمه، كعب الخير، باللين ليكف، فلا يلتفت لرجائها.
يخرج النغم من نايه كصرخة ملتانع. منسابًا كخير ماء،
هامسًا كرجاء عاشق، حاملو النعش أسرهم النغم؛ فبكوا،
واشتعل صوت البكاء بين الناس حتى وصلوا إلى المقبرة،
وأودعوا صفية في جوف قبرها الموحش!

6

تلمس نجاة بأنامل مرتعشة ثوب صفية. تشمه، وعندما تغزوها رائحة ابنتها؛ تناديها بصوت مبسوح: «صفية. يا صفية؟!»، وتنهض باحثة عنها في كل ركن. الدار خالية، وعين نجاة شاردة. تصعد بأمل إلى السطح؛ تفتش وتنادي، ثم ترفع رأسها لتطل على النهر، وقرص الشمس يتوارى بعيداً، والحمام ينوح.

لا تعي نجاة ذلك الموت الناعم، حين تنفجر الشفاه مبتسمة، فتخرج الروح كنسمة تعانق الهواء، وتظل البسمة على الشفتين وديعة!

تنظر نجاة إلى النهر الغارق في الظلمة، وتسأل من جديد: «أين ذهبت ابنتي؟!»، وتظل تنتظر الجواب، دون أن تشعر بالبرد الذي يلفح عظامها.



تكفل عبدة بتجهيز مراسم العزاء. رش الماء أمام دار الجليلة. وبمساعدة بعض الفلاحين رتب الأرائك التي حملتها الدواب، ولم ينصرف إلا بعد أن انفض العزاء.

يجلس خليل بجراحه مستسلمًا على المصطبة، يسمع
 حفيفَ الشجر يُرجع صدى آلامه، وينتبه على صوت الجليلة:
 «منذ عدت لم تشم الزاد!؛ فيلتفت إليها، ويخبرها عن شوقه
 إلى صفية، ويبكي. فتحدق الجليلة في الشهاب الهابط من
 السماء الغاربة، وتهمس: «اجعله خيرًا».

يتمدد خليل في مكانه على المصطبة، تحت وطأة التعب،
 وتبقى الجليلة تحدق في الخلاء. لا تمر ساعة، حتى يستيقظ
 خليل هادئًا، وتقبل نجاة من داخل الدار في كفها شعلة، وعلى
 شفيتها لوم: «أيقظتني صفية وأخبرتني بذهابها لشراء جهاز عرس
 من مكان بعيد. لم سمحت لها، يا خليل بالذهاب؟!».

ولم يسألها أحد: «تعود من أين؟»، وابتلعوا حسرتهم على
 عدم إدراك نجاة للواقع!



تصعد أنس الربوة العالية. خطواتها ثقيلة جراء حملها الذي
 أتم شهره السابع. ترى الثلاثة يجلسون أمام الدار، فتسلم بالعافية
 لهم وتقرب.

منعت الأحزان خليل من النظر إلى وجهها. لكن صوتها
 الصافي نغز قلبه. ملأت أنس عينها بتفاصيل المكان المحبب
 إلى قلبها، ثم مدت يدها إلى نجاة وارتمت في حضنها: «شدي
 حيلك في صفية».

ربت نجاة بحنان بالغ عليها، فأحست أنس أن المحبة قد رجعت لعهدا القديم.

- لو علمت صفة بمجيئك لما ذهبت إلى سوق البلد البعيد قبل أن تسلم عليك.

وأطبقت أنس دهشتها بفمها، فتحسست نجاة بطن أنس وترجت: «سمّه مختار، ربما كان ذراعه اليمنى عندما يعود»، وربت على صدر نجاة بحنان، واتجهت إلى الجليلة، تجلس تحت أقدامها بصعوبة، وبصوت خفيض سألتها عن علاج يرجع إدراك نجاة للواقع! لم تجب الجليلة، وربت على كتف أنس أمرة: «لا تخلعي خاتمك». ثم انصرفت بوجهها تتأمل النهر، والسماء المزدهمة بالسحب. مشت أنس حزينه على حال نجاة وحائرة في أمر الجليلة المطابق لنصيحة عطية الكاتب.

خاطفًا، أتى أنس وجع الطلق، صرخت، وارتمت بظهرها إلى الجدار، وخرج المولود باكياً، وقنديل في ركنه المنزوي يرتعش مهزوماً. ولولا شهامة زوج أحد أقارب قنديل لما قطع الخلاص، وما عاش مختار.



كعب الخير حلمت بصفية، وبعد إفاقتها أحسّت كدرًا بداخلها، جعلها تلف على البيوت، تطلب الونس وعندما لم تجده، رجعت إلى دارها، تقلب هواجسها على كل وجه، وتسأل همسًا: «أحقًا ما أحس به؟».



تحت ظلال شجر المانجو الذي زرعه راضي؛ يفرش الخفير
 رضوان سجادة يجلس عليها أبو جميل وحيداً، على يمينه الزاد،
 وعلى يساره الشراب، وفي عقله نصيحة طرحها عليه بحر وهو
 يعزبه في موت الأبيض قبل أن يغادر البلد: «حاذر من انقلاب
 الحال؟».

يطلب رضوان الإذن لينصرف، ويرفع أبو جميل رأسه
 سامحاً، وهو يرقب من بين أوراق الشجر غروباً يُخاتل بصره.
 وينتبه على بحر يقف أمامه كأنه خرج من تحت الأرض. متعجباً
 يرد أبو جميل التحية، وهو يتملّئ عيون بحر الدقيقة خفيفة
 الرموش، ووجهه المقدد المحروق من إدمان الكيف.

- فيم تفكر يا أبو جميل؟

- ابن شياطين لو عرفت يا بحر؟

- أفي نصيحتي يوم العزاء؟

وينفرج ثغر أبو جميل عن بسمه مستغرّبة: «أمكشوف عنك
 الحجاب يا رجل؟».

- أنا بحر يا أبو جميل. أنا يد القدر!

بحر له في كل بلد اسم، ينظر إلى ضحيته بوجهه الغامض،
 ويغرز خنجره في مكمّن الموت، ثم يهرب بخفة كخيال. لا
 يعرف عنه من يستأجره إلا ما يود أن يعرفه عنه؛ فدرس الأيام له
 أن يشتري ولا يبيع.

يقال إن له قرابة بعيدة بعائلة من أهل البلد، انفصمت عراها بعد هروب جد أبيه جراء ثأر. خاض بحر منذ طفولته غمار السفر وقسوة الترحال، من بلاد خلف النهر إلى صحراء موغلة في التيه. يتشمم الخطر من بعيد، يهرب منه كالريح، ليعود ويتقمم. يشتهي الزواج وإنجاب طفل. وحين يسمع من خلصاء أصحابه كلمة التوبة يقول مدهوشًا: «مم؟!».

يسير في الدنيا بعقل راجح، وقلب كالصخر، موقنًا أن الدنيا فرصة، وأن السماء لم تمطر يومًا ذهبًا لأحد. ولخوفه من غدر السنين وانتقام العجز، يستقبل رسالة أبو جميل بالبشر ويلبي، وها هو يتسم ويخبر العمدة بيقين: «عندي عمل ينهي حيرتك». فينظر له أبو جميل بريية، ويسأله: «والثمن؟».



يخرج رضوان من الدوّار وقد سلّم بندقيته الـ«إنفيلد» بعد أن أنهى خدمته.

يفكر وهو عائد إلى داره، في سر قدوم بحر، قتال القتلة، إلى البلد، ويسائل نفسه: «ترى ماذا سيفعل بحر فيكم، يا أهل البلد؟!».

الناس كلها في عيون رضوان ثعابين مكاراة، وهو يلاعبهم بالمكر خوفًا من لدغهم؛ يقف في المنتصف بين المتعاركين، حتى يبرز نجم الغالب، وينضم إلى صفه منتظرًا العطية!

رضوان يعرف من الأسرار الكثير. يخبئ ما يفيد، ويفشي ما يعزز مكانته عند أبو جميل أو غيره. اختار غرب البلد للخفارة، رغم أنه يقول لكوكب عن ناسه إنهم أراذل لا يستحقون جميلًا؛ عيونهم حسادة لا يمنعها دق ألف حدوة حصان. مربع خفارة رضوان واسع، وأطراف البلد ممتدة، تنتهي بالصحراء الشاسعة المترامية في حضن الجبل البعيد.

رضوان، غادر كذئب نتن، لكنه حمل وديع بين يدي كوكب، وكلب مطيع في عيونها ومخدعها، يعشقها ويعيش لها وبها، يفتل طرف شاربه الطويل، وهو يحلف بشرفها، والناس تكتم ابتسامتها وتتغامز. كوكب عيونها سمراء، لكن لا يمكن الجزم بلون بشرتها، وكأنها تغير جلدها، تبعًا لما يشتهي من يأتيها سرًا في الليل، العيون تقارن حتى الآن، بين خصر كوكب وخصر حور، بين فتنة كوكب وفتنة حور، وكثيرًا ما تنتهي المقارنة لصالح الصغيرة، لأن من عشاقها عمد، وعشاق كوكب أغلبهم رعاع! حتى الآن تتحدث الأفواه عن دلال حور، غير عابئين بمصيرها، ولا بمكان اختفائها!

يحلف الناس أن السر عند رضوان. ورضوان يأتي كوكب كل حين بقصة، حتى استقر في يقينها أن أختها قد طفشت من البلد. واستراحت كوكب لذلك اليقين، وسُرّت به، بعد أن أمست وحيدة يهواها الرجال، دون منافسة من حور، أختها، التي ظلت الغيرة منها سرًا لم تستطع أن تخفيه مهما أتت من حيل.

رضوان يعرف من هي كوكب، والناس تعرف من هي كوكب، لكن ذلك لا يعني شيئاً عند رضوان. فكل خوفه أن يراها في الدار في وضع فاضح. يتخيل ذلك ويخشاه؛ لذا يتنحى عند اقترابه من الدار، ويدق الباب مراراً كأنه غريب يطلب الإذن! رضوان يعرف أنه مفضوح لكل عين، وسيرته على كل لسان، وكل ما يرجوه ألا يعرف الناس أنه يعرف.



عصرًا، تخرج كعب الخير. ولا تخبر ابتتها سكينه بوجهتها، كي لا تسألها عما يقلقها. طوال صعودها الربوة؛ تقلب أفكارها وهواجسها. عيناها تفضحانها وهي تُقبل الجليلة فتسألها: «ما بك يا أختي؟».

وتأخذ بيدها المرتجفة وتجاورها المصطبة. كعب الخير تصغر الجليلة بكثير، لكن العين لا يمكنها كشف الفارق في العمر. وجه كعب الخير شاحب وهي تهمس: «خائفة من حلمي بصفية».

- بماذا أخبرتك؟

تصمت كعب الخير، لا تدري ماذا تقول، عن طنين ذلك الحلم، الذي تحول إلى أحاسيس تنهشها، وتتخبط بها، في ظلمة كشفت المبهم. زاغت نظرتها وقالت بحزن: «غداً موعدي»، وأخذت تشرح بارتباك أحاسيسها المرعبة.

تبش الجليلة في وجه كعب الخير، التي همست باكية: «أنا خائفة».

تغمض كعب عينيها على دموعها، تربت الجليلة على ظهرها بحنو، وتركها تتحدث علَّها تبعد هواجسها، بذكريات أفراحها القليلة: بنتٌ بغدادٍ شعر بنية تلعب الحجلة، وتبتسم لإشراقة دنياها البهية.. فتاة تحمل فوق رأسها زلعة الماء، وعيون الشباب تتفرس جمالها ومفاتنها.. عروسًا يزفونها إلى دار زوجها الأول، الذي يموت بعد شهور قليلة، تاركًا خليل في بطنها جنينًا.. زوجة لقربىها، الشيخ مهدي، بعد موت زوجته.. قبلتها لخد خليل الذي لم يتركه الشيخ مهدي يذوق طعم اليتيم في الدار المباركة.. قبله الشيخ مهدي لجينها ولجين ابنته، سكينه، وهي قطعة لحم حمراء تبكي في حضنها. وتتوالى كل أفراح كعب حتى تنفذ.

العرق على جبهة كعب الخير غزير، وعندما تطرف عيناها؛ تهمس: «غداً.. أحسُّه غداً!».

وتضع الجليلة أصابعها على فم كعب، وتمسد ظهر صاحبته، وتبتسم بالأمل. ثم تفك الطرحة لتمشط ما تبقى من شعر صاحبته الأبيض، ولا تبدي كعب امتعاضًا. تستقبل الأمر راضيةً، كما استقبلته منذ عشرات الأعوام وهي بنت تعطيها الجليلة سكر النبات وتحكي لها حكاية. تستسلم كعب الخير ليدي صاحبته الحانية وتساءل: «ألن يطلع الصبح عليّ؟».

تبتسم الجلييلة وتقول: «لا تخافي، وسأتيك غدًا بزجاجة عطر».

- حقًا ستأتي؟

- وهل أخلفت موعدًا طوال حياتي؟!

يستعيد وجه كعب الخير لونه وتبتسم، يتوقف رهق قلبها، وترتبط لها الجلييلة الطرحة، حال تنتهي من تصفير شعرها. تستأذن كعب الخير، وكلها أمل في صبح غدٍ قادم، تمشي بقلب هادئ، تنزل الربوة واثقة في صدق كلمات صاحبها التي لم تكذب عليها يومًا.

وأمام بيتها تسمع زغاريد القابلة على رزق ابنتها، سكيينة، بأثني. تدخل بسرعة، وتحمل حفيدتها. تقلبها بين يديها وتقبلها، وقبل أن تنطق سكيينة تقرر: «سميتها فرحة». وتضعها جوار ابنتها، وتمضي.



تتمدد كعب الخير على فرشتها؛ تفكر في صنع فطيرة تكون هديتها للجلييلة في الغد ردًا على زجاجة العطر التي ستأتي بها، تتذكر كميات خزينها من الدقيق والسمن، وعندما تطمئن إلى وجود كل شيء؛ تنهد وتنظر إلى الجدار أمامها، تشعر بنغزة في صدرها، تنفج نظرتها المتملية عن السر أمامها، وحدها من تراه، طويل كأبد، وخاطف كبرق، لا يتحمل قلبها انكشافه،

تمسك صدرها من عظمة المباغثة، ويسقط رأسها إلى كتفها وهي تبتسم، ويصيحون عليها عدة مرات لتتناول العشاء، ولا ترد. ينهض إليها زوج ابنتها، يهزها برفق ثم بقوة، ويعرف، يفرد على وجهها الغطاء وقد تأكد، يلزم الصمت ويكتم الخبر، وينفذ وصيتها القديمة، أن توارى الثرى في النور.



صباحًا ودون أن تخبر من بالدار سرَّها المكتوم؛ تركب الجليلة دابةً يمسك حبلها عبيدة، وتلحق بالموعد الذي ضربته لصاحبته. تطرق الباب الموصد على السر، وترى الميت جالسًا على الأرض، فتقرر: «اذهب إلى خليل، أخبره بالمصاب ثم ارجع لفتح المقبرة». وبهدوء تدخل إلى حجرة كعب الخير وهي تبتهل بالدعاء، تقترب من الجسد المسجى، وترفع الغطاء عن وجه صاحبته تتملاها: «جئت كما الوعد يا أختي»، وتُخرج من جيب جلبابها زجاجة العطر، هديتها، وترشها عليها: «مع السلامة يا طيبة».

وتفك الجليلة ببطء صفائر شعر غزلته بالأمس، وسط حديث هامس طويل مليء بالمحبة، شجي بالوداع. وتنفلت الصرخات بالخارج، ويفتح الباب لاستقبال الأقارب والمشيعين، وتدخل النساء بالماء الدافئ، ليقفن على غسلها، فتعطين الجليلة ما تبقى من زجاجة العطر ليثرنها على الكفن.



في دار الشيخ مهدي يجلس خليل، أخته سكيئة تهدهد طفلتها وتطعم ابنها، والأقارب يتذكرون تفاصيل عاشوها مع أمه، كعب، بنوادرها وخيبتها، وكلما توغلت ذاكرتهم في الماضي، التفت الوحشة شيئاً فشيئاً تحاصر خليل، فيشرع يتذكر النهار الكئيب الذي عرف فيه، أن الشيخ مهدي الذي يناديه أبي هو زوج أمه كعب. ضربه الحزن، وتبدل كل ما حوله إلى غربة وفقد، لم يجد ملاذاً غير الكتب الموضوعة في المندرة الكبيرة، دخل سراً، وعاش في صفحات الكتب، يتنقل مع الأيام، من الغث إلى الثمين، ومن الخفيف إلى الرصين. أيقن أن الدنيا كبيرة، والبلاد كثيرة؛ للناس فيها لغات، ومذاهب، وأشكال، وديانات. يؤمنون بما لا يؤمن به، ومنهم من لا يؤمن بشيء، لكن سماءً رحيمَةً تظلل الجميع، وحفظ آيات الكتاب، وكلما سأل شيخه عن شيء مما يحفظ؛ يرد بغلظة: «لعن الله سؤالك. احفظ يا ابن المركوب»، ويطوح منشة من ذيل حصان، ويضرب خليل.

وخليل يرجع إلى الشيخ مهدي، يسأله فيبتسم ويجيب بكلام مقتضب. ولما تتناهى إلى سمع الشيخ مهدي عدم رغبة خليل في إكمال الحفظ عند شيخه الجاهل؛ خرج من غرفته عابساً. وأخذ خليل إلى حجرته، حادثه ثم سأله: «ماذا قرأت؟». فعدد له أسماء الكتب؛ فبسمل، وابتسم قائلاً: «الحقيقة عذاب، وكلما عرفت يثقل كاهلك بما تعرف». ثم قال ناصحاً خليل: «اصبر يا بني، فاليقين مراوغ».

مرت الأعوام، مات الشيخ مهدي، وأخذ خليل يغرق في حيرة الشك، استاء من ويلات النذير الذي يحمله المتدينون لمن على غير دينهم، وأبى أن يؤمن تحت سطوة الخوف أو الطمع، إلى السماء نظر سائلاً عن حاجة الله إلى إنسانٍ ضعيف يعبدته خوفاً؟ وأردته الحيرة في يم التيه، فغرق بلا نجاة.



الحمام يحلق في دوائر، تظل تضيق ليستجمع شتاته. ينزل على الأرض وهو يهدل. متأملاً وجه الجليلة الحائر، وهي تقبض على رأس عصاها، غير عابئة بالنهار الذي يستسلم لليل. تنهض الجليلة؛ وقرب حافة الجسر تتوقف، ترفع عصاها في وجه الغمام. وبصوت ممتلىء باللوم، تهمس: «لولا الخريف ما هلّ الربيع». وترجع لتجلس على كرسيها، ترقب السماء وتترقب القادم!

7

في أول الليل؛ يفزع الخلق على رعدة تخطف الأنظار، تتابع من بعدها رعود وبروق، تنقطع وتتصل بقدر ما يبلغ الناس ريقهم بين الموجة والأخرى. ويبلغ الفزع ذروته في رعدة توشك أن تصم الأذان. وبرقة تنذر بالقيامة، ترفع قشرة عن أخدود نار في السماء، ثم تردها ليلتم جسد السحاب. بدأ القطر خفيفًا، يشبه ندى الصباح، ثم تحول إلى قطرات تسرع وتثقل شيئًا فشيئًا حتى كادت تشبه السيل. ساعة من بعد ساعة، والسماء لا تكف.

تمطر على الغيطان؛ فلا تجد العصافير غصنًا تختبئ تحت أوراقه ليصمها من البلل، ويبقى الناس في كنف بيوتهم، يستعينون بالقدر؛ يتلقون الماء المنهمر من فراغات أسطح بيوتهم الطينية، ويتربقون بتوجس نذير الماء الذي يثقل فوق الأسطح. تتسع البرك، وينحني الصفصاف يشرب من ماء النهر المرتعش بالبرد، ويفزع الجان من بطون السواقي المهجورة في اتجاه الجبل، وترتعش الشفاه بالدعاء.

بحر في قلب المطر المنهمر، يركب قاربًا تطوحه العواصف في عرض النهر. تاج شمس في البعد، يحجبها الغمام وتضربها

الرعود. يكاد القارب ينقلب على جنبه ويغرق وسط النهر الهادر. مجداف بحر يضرب وجه الماء بقوة، فيعتدل القارب ويخوض في الماء مسرعاً إلى مرسى البلد. في قلب بحر صخر، وفي جلابه خنجر مسنون.

تمطر، والشوارع خالية، والأفئدة حزينة. ومقعد الجلييلة خالٍ بلا أنيس، وبيت سكية وسط البلد راسخ ببركته. ورثته كابتة وحيدة، من أبيها، الشيخ مهدي، بعد وصية بعدم التفريط فيه. لمآثر البيت وبركته حكايات لا تنتهي. منذ بُني والناس تتمسح بجدرانها، وتدعو.

سكية تجلس هي وزوجها في قاعة المعيشة المسقوفة التي تعلوها تكعيبية عنب. تحكي لابنها - بعد أن أرضعت فرحة النائمة - حكاية جدها النوراني صاحب الكف البيضاء التي كانت تشفي المرضى، وتروي العطشان، وتداوي المجروح، وكيف أنارت صورته صفحة السماء يوم موته.

زوج سكية يجدل خوص النخيل بين إصبعي قدميه ليصنع سلالاً للخبز. يحرك الإبريق فوق الجمر، و ينتظر أن يغلي الماء، كي يصب كوبين من الشاي الثقيل له ولزوجته، وماءً بسكر للولد، ويستعين على الانتظار بأن يحكي - بعد صمت زوجته - حكاية رجل كان يتنقل بين البلاد، فوق جناح طائر مسحور، غافله واخترق به السماء وتركه فوق السحاب معلقاً! الولد يسمع الحكاية مبتسماً وهو ينظر إلى أبيه، وكتل الغمام في السماء؛ تقبل على عجل.

تمطر بقلب الظلمة ووسط الرعود، وتحت سيل الأمطار يطرق رسول باب الميت. تفتح شرقاوية الباب، وهي تطلب ستر رب السماء. يعلمها الطارق المبتلة ثيابه ووجهه بالمطر؛ أن عطية الكاتب يريد ابنها في طلب مهم. يشحب وجه شرقاوية خوفاً، وتصيح: «قل له: اترك الميت في حاله». ثم تدلف إلى داخل الدار مكروبة؛ تشعل البخور في مجمرة الفخار، وتلف بها؛ تطوحها وتردد ما تحفظه من رُقى. تبتل جبهتها بالعرق، وهي تسأل بقلب خافق: «كيف تعيشين إن سلب الموت وحيدك، يا شرقاوية؟».

تعرف شرقاوية أن الميت ليس كبقية الناس. ترى ابنها بعين الأم المحبة؛ يؤدي عن الناس طقوس الموت بإخلاص. يؤرقها صمته، لكنها اعتادته. تدعو الله ليل نهار أن يقبل الزواج من بنت خاله، سيسبان، الوحيدة من بين النساء التي ارتضته زوجاً.

سيسبان عود الحديد، ليس بها من محاسن النساء شيء؛ وجهها مقدد، وصدرها ممسوح، أما صوتها فرفيع حاد ملسوع، يخطف الكلمات خطفاً. منذ صغرها وعمتها، شرقاوية، تتندر عليها بأنها رجل يتنكر في ثياب امرأة. فتتندر سيسبان على الميت، سخام البرك، أبو نصف عقل. تنفلت من عيون شرقاوية، الدموع حزناً على نصيبها في الولد الوحيد، وتقسم لسيسبان أن تزوجه بها ليضربها على رأسها الناشف، فتخبرها أنها لن ترضى سوى بأمير غني يمتلئ خرج حصانه بالذهب. ودون ذلك لن

تقبل. مرت السنين وسيبان على حالها؛ لا خراط البنات يقترب منها، ولا فقير يمتلى خرج حماره بالتبن. عندما يداهما الشبق، تحكم الغطاء على جسمها، وتتخيل السقاء مرة، والبقال مرة، والحداد مرة. ترغب أي رجل، لتتوجه راضية، حتى وإن كان حلاق الحمير متهدل البطن والمحسوب على النساء، إلى أن جاء اليوم الذي فقدت فيه الأمل في كل الرجال، فترددت على عمتها، خافضة الجناح، تقوم على بعض خدمتها، من حين لآخر، مبدية الصمت الذي يوحى بالرضا؛ إذا عرض الحديث الذي طالما عارضته بصلف من قبل، ففهمت شقاوية أن الرأس المتحجرة لانت.

ظلت الأم تطارد ابنها ليوافق لكنه أصر على الرفض. وانتظرت فرصة تساومه فيقبل الزواج، لربما أنجب لها ولداً يرث القراريط الخمسة والدار والجاموسة، ويحمل عنها مشقة الفلاحة.

يسمع الميت طلب رسول عطية الكاتب، فيحس برعشة خفيفة بأوصاله. يرتدي جلبابه ويهمس: «لعل في الطلب المراد!».

بجلبة المضطرب؛ يخرج أتانته، ليتفاجأ بأمة تتمترس بظهرها في قلب الباب ممانعة، يحاول أن يثنيها؛ فتفاجئه بما طفق الكيل به، وتمزع ثوبها من الصدر، لاطمة وجهها بتراب الأرض صارخة، حتى أو شك صراخها أن يلم الناس: «إما أن تتزوج وإما

أقتل نفسي!»، ويجاوبها الميت مرغمًا كي تفسح له الطريق:
«بمن؟!».

- سيسبان، بنت خالك.

يحرك رأسه معلنا موافقته، وليس في قلبه مثقال ذرة من
رغبة. تطلق شرقاوية زغرودة تبلعها الرُّعود، وتترشح عن الباب
وهي تزغرد.

يخرج الميت، يغرقه السيل. ينغز بعصاه الآتان في خصرها،
فتتقدم حذرة وسط أحوال الطريق. كل أبواب البيوت وشبابيكها
مغلقة تتمنى أن تفتح للشمس، لكن السماء تضيء بالبرق،
وتنفجر بالرعد المخيف.

يحس الميت بروحه شغوفة، ويفكر في السر الذي باع له حياته
أملًا في جواب. يشير إلى البيوت المقفلة على خوف ناسها ويصبح
في نفسه: «الطمأنينة ينعم بها من ينعتونهم بالأموال».

ويعلو صوت نباح كلب بني شريد، ظل يقترب نائمًا وهو
ينظر إلى الميت بعينيه الضاويتين الحزيتين، وكأنه يطلب أن
يرافقه، فيشير له الميت كي يتبعه. وينغز أتاناه فتحوض في الوحل.

عطية الكاتب ينتظر في كوخه، والميت في طريقه إليه؛ ينغز
أتاناه لتمضي، غير عابئ بالأحوال ولا بملابسه التي تقطر ماءً،
وتحت زخات المطر؛ يخيله طيف، ملامحه غير مألوفة، يترجل
بسرعة، يحسبه لصًا، ويعزز هواجسه، نباح الكلب الذي لم
ينقطع عندما رآه.

ينقضي الطريق، وكوخ عطية يغسله المطر. يخرج من شبابه
عقب رائحة خشب الصندل. الباب موارب، وقلب عطية يخفق
لأول مرة خوفاً من زائره المقبل. الميت يربط لجام أتانته في فرع
شجرة قريبة، يستتر الكلب تحتها جالساً. بقبضته يدفع الميت
الباب ويدخل. يقف حائراً وقد ضل بصره إلى أين يتجه؟! حتى
يستدل على عطية مع النداء: «تقدم».

عينا الميت تبحثان في قلب الدخان عن وجه محدثه، الذي
يتربع مستكيناً على حصيرة، وأمامه إناء من فخار يفوح بدخنة
النار.

- لِمَ طلبتني؟

- ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

يختار الميت في مغزى كلام عطية، لكنه يصمت ولا يطلب
منه الافصاح عن مراده. ويستغرب عندما يرى وجه عطية يقطر
عرقاً، ولسانه معقود عن الكلام. وعندما يطول الصمت، لا يجد
الميت سوى أن يصب الماء على النار ليخمدوها. وتتزاح هالات
الدخان صاعدة، ويصفو الجو. يلمح الميت الدموع تنساب من
عيون عطية.

- ستخاصم عيناى الظلمة!

ويدرك الميت أن الرجل يتنبأ بموته، ويختار في مغزى
دموعه، إن كانت خوفاً من الفراق، أم شوقاً إلى الذهاب؟!!

فيكرر نفس السؤال الذي جاء به مرات ورجع خائب الرجاء:
«متى يُكشف لي السر؟».

- ...؟

عيون الميت عطشى، وهي تترجى: «متى؟».

لا يجيب عطية ويهرب من عيون الميت، فتسترحه العيون
الملتاعة كي ييوح بما عنده، لكن عطية يستدير بوجهه مؤثراً ألا
ييوح!

تمطر، والسماء تغمر النهر حتى يفيض عن حديه، وقد قارب
الماء على اختراق الجسر من أضعف نقطة، وأوشك أن يغمر
براح الغيطان المنخفضة ويغرقها.

أقدام بحر تضرب في البرك، وتزداد إغلاً في الوحل.
وعندما يرى علامة رسموها له على جدار بيت سكينه؛ يحكم
اللاثام حول وجهه، ويفتح قبضته ممسكاً بحديد الشباك العالي،
بعد أن جرد حذاءه من الطين ليخف. يضرب بثقل قدمه في كوة
الحائط، ويتسلق السطح ويتلصص على البيت، فيصدفه وجه
سكينه المكتمل الحسن، وتمتد نظرتة، طوال المسافة التي
قَطَعَتْهَا من وسط الدار حتى قاعة الخبيز، وفي حضنها فرحة
نائمة؛ فتدوي صرخة في نفسه يستغربها، وبخفة، يتدلى وسط
الدار، وخلف الزير يحبس أنفاسه ويخفي جسمه، حتى يتأكد
من همس الأب وابنه بداخل الغرفة. الأب يُقلب في نار الركية

بعصاة في كفه؛ ويحكي للولد حكاية الفقير الذي منحه الإصرار فرصة للغنى والزواج من جميلة الجميلات، وقبل أن تنقلب أحزانه إلى أتراح؛ ينجو من ثلاث مكائد، بالحكمة، وبالمشورة، وبتصاريف القدر الذي يكتب له الوصول إلى خاتمة سعيدة.

مع صوت الرعد يُغادر بحر مخبأه، خفيًا يغشى باب الحجرة، وعلى أطراف أصابعه يتقدم ودون أن يحدث ضجيجًا؛ يسحب سكينه في رقبة زوج سكينه غيلة، ويفر الولد من بين رجلي بحر فرعًا، وسحبة النصل لم تتمكن من خاصرته تمامًا. يفر بحر كالريح، قبل أن يُرى، وينهمر الدم من رقبة المقتول.

تمطر، والليل أسود، والبوم ينعق، وسكينه تطمئن كل حين على صغيرتها، فرحة، وتغذي عين الفرن بالحطب. تصيح على الولد تطلب شيئًا ولا يرد؛ فتنهض غاضبة لتنهره. باب القاعة مفتوح على مصراعيه، ولا أحد في الحجرة غير رائحة الموت، وجثة الزوج. تخرسها المفاجأة؛ فتتجمد مكانها ذاهلة، ثم ينفلج جسدها مرتعشًا. وهي تحرق في الدم، وتصرخ صرخة يرتج الفضاء بها. وآه مفزوعة تراقب خيط الدم وهو يتجه إلى خارج الغرفة، كأنه يبحث عن مهرّب من لونه الفج.

تنسى سكينه ابتهاج النائمة، وتفزع مرة أخرى على طفلها، تفتش عليه في البيت وهي ترتعش، ثم تهوّل إلى الطريق حافية بغير هدى؛ تصرخ باسمه وتخوض في الطين، تستصرخ الناس أن يغثوها من ذلك الكابوس المخيف.

وعند شجرة الجميز، ترى صغيرها منكشاً في جذوعها؛
يهذي ويتفرض. تحمله في حضنها، وتطلب النجدة.

الطريق أمام سكينه مفتوحٌ على اليأس، ضيقٌ على الأمل.
تتساقط منها ضحكاتها التي ضحكته من قبل، وصخب لياليتها
التي قضتها في الأنس. ينزوي أملها في ركنٍ مظلم، وهي تنظر
إلى السماء معاتبةً، وتبكي. بعزيمة تصعد الربوة. تتجاز شجرة
التوت السامقة، وتسقط أمام باب الجليلة الموارب، وقبل أن
تغيب عن الدنيا تصرخ بوهن بالغ: «الولد.. فرحة».

وتنادي الجليلة على نجاة، كي ترفع سكينه ووليدها بمعاونة
خليل، إلى حيث الدفء داخل الدار. الولد ينظر بذعر إلى خليل
وهو يحمله، وبين يديه يرتعش ويهذي بكلام غير مبين، ويلفوه
في غطاء، ولا يكف ارتعاشه وهذيانه، حتى يسلم الروح، وعيونه
المفتوحة ممتلئة بالذعر.

ثياب سكينه ملطخة بالطين والدماء. تتأمل الجليلة وجه
سكينه البريء طويلاً. ثم تسبل عيون الولد وتسترجع جثته، وفور
أن تسترد سكينه وعيها على رشقات ماء بسكر؛ تلف رأسها تنظر
للمكان مستغربة، وتهذي دون إبانة.

ويندفع خليل مهرولاً في حموة غضبه، وقد تسلح بسكين،
يركض تحت المطر، ويدوس الوحل ويجتاز البرك، يستصرخ
الأهل أن يتبعوه. يصل إلى بيت أخته -غير الشقيقة- وأنفاسه

لاهثة، ويجفل مرتجفاً من هول المنظر، ويسمع صوت بكاء
فرحة كأنها بجواره.

تمطر والميت يسمع طلب عطية الكاتب بدهشة: «سيأتي
رجلٌ ليكفني معك. لا تكشف ستره».

ويلح الميت في طلبه بكشف السر، فيجيبه عطية والأسى
يتملكه: «من يعلم يتوجع».

- ليكن.

- ...!

ينهض الميت وقد ظن أنه عقد اتفاقه. يخرج من الكوخ
وشيءٌ كالبسمة يملأ شفثيه. يفك لجام أتان، ويمشطها. يسير
في الطريق الخالية تحت المطر، وأمامه الكلب البني ينبج. وفي
خلاء الطريق تقع عيناه على جثة العراف، غريب، مصلوبة على
أفرع شجرة. يقترب ويتأمل في الجثة شراسة الموت. ويسمع
طينين الذباب، الذي لم تفرقه زخات المطر. عين المقتول
مذهولة، ويداه مفرودتان، وفمه كأنه يصرخ. يشعر الميت بأن
تلك النظرة الممتلئة بالرعب؛ تحمل سرّاً خبيئاً. ولأول مرة يترك
الميت جثة لحالها، ويمضي إلى داره!

تمطر، ونجاة حائرة، والجليلة تجلس فوق كنبها عاجزة عن
مواساة سكينه. وخليل في دار أخته؛ يغطي جثة زوجها بشال
أبيض من صندوق في ركن القاعة. ثم يحمل فرحة ويخرج ناظراً
إلى السماء عليها تهبه الثبات.

تمطر، وأبو جميل يرقب الطريق في حجرته العالية؛ ينتظر قدوم بحر، ويراه يدخل إلى الحوش مبتلاً هائئاً كشعر الذئب، يسأل عن نارٍ ليستدفئ ثم عن طعام. يدخله رضوان حجرة بها ملابس جافة تصلح لمقاسه، يرتديها، ويصلح هيئته، ثم يصعد إلى أبو جميل من سلم خلفي فيستقبله بالمودعة والأحضان. وبعد أن يستدفئ ويأكل، يحكي بحر بالتفصيل، ويشرد أبو جميل قليلاً. ثم يترك بحر لينام، وعلى السرير، ينظر بحر شاردًا عبر النافذة إلى المطر، يشعر بحرقة في عينيه، يفركهما من حين لآخر، حتى يسقط في النوم. وعلى مهل؛ تخفت السيول وترتحل كتل الغمام. ثم يكف المطر.

8

في جنازة زوج سكىنة وابنها، حار المشيعون في دافع القاتل ومن يكون؟ صاحوا غاضبين بأن ما جرى لن يمر مرور الكرام. تحدثوا عن الثأر بأشع ما يكون الانتقام. ورجعوا إلى دورهم حاملين دهشة واستفهامات بغير أجوبة، لتصنع أرجلهم مدقات في الشوارع. جففت بعض أوحال السيل.

من هول الفاجعة، جف لبن سكىنة في صدرها، وضمن على فرحة بقطرة تُسكُت بكاءها المتواصل. يحضر خليل لها مرضعة، فترفض البنت صدر المرضعة، ويشد بكاءها. تقوم قريبة من أقارب سكىنة، بتقطير لبن ماعز في فم فرحة؛ تتقيأ البنت وتتشنج، وعندما توشك على الهلاك، ولا تجد سكىنة مفراً، تصعد الربوة لتضع ابنتها بين يدي الجليلة، مترجية: «أنقذِها».

تبدو فرحة في قماطها قطعة لحم حمراء، وفماً مفتوحاً لا يكف عن البكاء. تمسح الجليلة على وجه البنت، تهددها؛ وتنادي: «يا نجاه».

تُؤخذ نجاه بصوت أمها وبكاء الطفلة، وفي سعيها إلى فرحة، يتساقط ما مضى من سنوات العمر. تحمل البنت بشر،

وتجلس بها على المصطبة، تهمهم ثم تلقم البنت صدرها، وبصوت حنون تهدهدها، وإذا بالبن يخرج من حلمة ثديها، والبنت تمتصه بنهم حتي تشبع. فتأخذ نجاة البنت في حضنها، وتحادثها على أنها صفية. يضحى الأمر بالنسبة إلى سكيئة طوق نجاة، فتترك ابنتها عند نجاة راضية.

بصدر سكيئة تستعر نار، تبتلع عبارات المواسين ولا تنطفئ، كل واحد في البلد استقرت في يقينه حكاية فسر بها ما حدث، لقد أقنعت الحيرة بعضهم؛ أن الأمر انتقام من الجان. وتعجبوا؛ كيف يجرو الجان على دخول البيت الطاهر، والانتقام من أهله! وربط آخرون الأمر؛ بما جرى للعراف غريب، الذي لم يُنزل أحدٌ جثته، المصلوبة على الشجرة. فاتخذها الكبار مزارًا يتطلعون إلى وجهه المشوّه الذي أشعل الرعب في أبدانهم وأيامهم ويغادرون، وعندما اختفت الجثة همس قليلون بكلام حذر عن قاتل مأجور، ينزل البلد! وأخذوا يحكون عن من لا يعرفون اسمه كأسطورة!

يُحكى عن أفعال بحر وشروبه؛ ولا يدرك أحد يقينه الذي يحركه! منذ شهور جاءه رجالٌ ودعاء، طلبوا رأس رجل ميسور، وقالوا لبحر: «جنايته ثقيلة!». احترس الرجل الميسور ببيته محاذراً، وكان على بحر أن يتصرف بهدوءٍ وحكمة. أغرى السقاء بالمال حتى ترك له البيت. ملأ بحر الأزار والأوواني مراراً، حتى اطمأن الخدم وأهل الدار له، واعتادوه. وساعة طُهر،

أفرغ القربة في الزير، وتسلسل إلى حجرة الرجل، وقف بحر أمام الرجل ونظرة القاتل تبرق في عينيه، اتسعت علامات الذعر على وجه الرجل وخر يسأل: «لماذا ستقتلني؟».

- قدرك الذي لا مفر منه.

رفع الرجل عينيه المذعورتين وسأل بخوف: «لم أقترف في حقك إثماً!».

- ثمنك مدفوع.

- أدفع لك أكثر، واتركني.

ويقبض بحر على عنق الرجل، ويصرعه وهو يفتش عن الخنجر في صدر جلبابه قائلاً: «بحر لا يرجع في بيعه!»، ويجد في البحث حتى تمرق أصابعه من الفتحة التي سقط منها الخنجر؛ فيدفع الرجل دفعة الخلاص، تاركاً إياه وهو يضحك ضحكة فجأة: «لك عُمر»، ويرفض نقوده التي عرضها عليه. ويعود ليختبئ في الجبل، غير نادم على القدر الذي أفلت منه ضحيته، منتظراً بصبر الوقت المناسب لإتمام ما وافق هوى أبو جميل واتفقا عليه.



يتنفض الميت من فرشته شاعراً بهاتف خفي يخبره أن الموعد جاء، جسمه دافئ وقلبه فرحان، يهمس -في نفسه- بيقين: «اليوم تتبدد لوعة الحائر».

يغتسل على عجل، منطلقاً وخلفه كلبه البني، تاركاً أمه المستبشرة ترتب له تفاصيل زواجه من سيسبان الذي عجلت به مع أخيها، لتكون الحنة في الليل، والدخلة في الغد.

لا أحد غير الميت يدري إلى أين هو ذاهب. يقطع شوارع البلد، وبلهفة؛ يشق طريقه في الصحراء، يتبعه كلبه. حتى إذا وصل الكوخ؛ توقف الكلب وتقدم الميت.

الكوخ ساكن، والباب مفتوحٌ على وسعه. لا صوت لبكاء ولا رائحة لبخور أو نار. يخطو الميت عتبة الكوخ؛ فيراه واسعاً على غير ما كان يراه. يغلق الباب وتأخذه الخطى جهة الفرشة المرتاح عليها الجسد المسجى. شبابيك الكوخ مغلقة، وخيوط من نور تخترق الثقوب لترمي بقع الضوء على الأرض، وعلى وجه عطية الكاتب، يقف الميت شاردًا، ينتظر الشيخ الذي سيأتي ليساعده، ويتفاجأ بملثم وقد جلس أمامه، ويغيب الميت في حزن عينين حائرتين هما كل ما يظهر من وجه المثلثم، يشعر الميت أنه قد رأى صاحب تلك العينين، فيتقد شغفه ويهم أن يسأله: «من أنت؟»، ويتردد في عقله أمر عطية الكاتب، الذي حذره ألا يكشف ستر الرجل؛ فيبدل سؤاله ويطلب المساعدة.

لم ينبس المثلثم بكلمة. نهض وأحضر ماءً دافئاً في طست، وأشار للميت على قماشة الكفن، يخلي الميت المنضدة الخشبية، ويرفع بمعاونة المثلثم الجسد عليها، وتحت الرأس يضع وسادة من قطن هش، ويعصر البطن برفق، ويمسح الجسد

العاري بقماشة مبتلة. وكلما صب الملمم الماء على الجسد يشم رائحة الشَّيخ، ينتهي الغسل، ويفرد الكفن، ويلف على الجسد في طبقات، ويعطي الملمم قارورة العطر إلى الميت، ثم يتعد خطوة عن الجسد. ويكبر شك الميت في هروب الملمم، فيسأله مترجياً: «متى تتكلم؟!».

لا ينس الملمم بحرف. فقط يلتفت إلى عيون الميت كأنه يحذره، يلقي الميت بزجاجة العطر بعد أن يرشها على الجسد المكفن. عيون الميت متلهفة للجواب، وعيون الملمم حزينة، وفمه قابض على الصمت، منذ الصغر والميت يتخيل أن الموت لعبة، وقابض الأرواح ملاكٌ لا تستحيل رؤيته. عام بعد عام، والفضول لرؤيته تكبر، والغواية لحديثه تتسع، والسؤال المكرر: «متى؟»، لا يبرح مكانه ولا يجاب! ويجرح الشك صدر الميت، فيفقد صوابه ويقول غاضباً: «بُح بسرك؟».

ويأخذ صمت الملمم في طريقه كل التريث، فلا يشعر الميت بنفسه إلا وهو ينزع اللثام عن الوجه المخبوء. ويرتج الميت فرعاً وقد صعقته نظرة الملمم، وأرعدت أوصاله حقيقة من كشف عنه اللثام؛ فيخر جائئاً على ركبتيه مبهوئاً، وصوت الملمم القاطع يخبره بعتاب: «حذرتك ألا تكشف الستر».

ولم يستطع الميت الرد، ولا حتى معاودة التحديق في الوجه الذي رد عليه اللثام. ويطرق أناس باب المقام، لا يُعرف من

أين جاؤوا، يرفعون الجسد بهمة، ويهتف أحدهم: «وحدوا الله»، ويضعون الجسد المكفن على النعش ويهمون بالخروج.

يتنحَّى الملثم بعيداً في ركن الحجرة يرقب ما يحدث. النعش أثقل من الحجر، وأيدي الرجال لا تستطيع تحريكه قدر أنملة، وكلما حاولوا يزداد ثقلًا! يأخذون قسطاً من الراحة ويحاولون مرة أخرى، حتى تخور قوى الجميع وتعجزهم الحيل، ترتسم في العيون الحيرة، والوقت يمر، ويأتي القرار من الملثم: «ادفنه مكانه».

يرتاح الرجال لاقتراحه. وعندما يبدوون في العمل يختفي الملثم، وينطلق الميت في إثره. ينظر هنا فيجد السراب، ينظر هناك فيسمع وسوسة الريح، يسير الميت وحيداً مكلوماً، يحمل قلباً خائراً مروراً بالحسرة على ما فعل.

في طريقه الوعرة الطويلة، يبكي ويناجي أحزانه. كتفه محنية وقلبه ينبح، تلفح الشمس رأسه، ويضرب الهواء وجهه دون أن يجفف دموعه. يمشي الميت في الشوارع شاردًا، يمر بجوار رجال ينوحون على فقيدهم دون أن يعبأ، يصيحون عليه لكنه لا يلتفت، ويكمل سيره حتى يتوقف أمام بيته، الناس تلتف في حلقة لتحترف بحنته، وما إن يراه خاله حتى يجذبه إلى داخل حلقة الرقص، يعطيه عصاً، يمسك بها الميت، ويترك لجسمه العنان، فينفلت الجسم المكبوت، يتمايل مع دقات الطبول وصهيل المزمار، وبدا للناظرين أن هذا الرقص ليس إعلاناً للفرح.



قنديل قعيداً يجلس في ركن بوسط الدار، يسمع دقات الطبول وصهيل المزممار كنغزات في قلبه إلى أن يخطفه النوم، تهش أنس عنه الذباب بسعفة نخل وحال أن تتوقف وتبتعد يعاود الذباب التجمع عليه ويقرصه، ترتعش يميناه، وينفلج من نومه مفزوعاً بكواييسه، فيبول على نفسه، وتنظفه أنس كما تفعل مع طفلها مختار.

الجيران يتكلمون معها باقتضاب، وكأنها سبب بلاء الدار. عيون الخفر لا تزال تنهشها في غدوها ورواحها، وعندما يأمنون خلو الطريق والعيون يحدثنها عن شبقهم، وعن استعدادهم لإروائها بعد عجز قنديل. وهي لا ترد، وتسير في حالها، مضناة بمأساتها تسأل: «لماذا جاء بها القدر إلى هنا؟ ولماذا يعتبرها الناس دونهم: هل لسواد بشرتها؟ أم لارتباطها بقنديل؟».

تشتري حاجاتها من البقال، وترجع بحزنها إلى قنديل، فتراه متكوراً يرتعش، والدموع تترقرق من عيونه المضطربة التي تخشى الظلام.



يصحو الميت من نومه مع غروب الشمس. يفكر في الهرب من الزواج. وعندما يرى حشد الناس الهائل خارج الدار، يرتضي مصيره.

مستغرباً دق الطبول وفرحة الأقارب بزواجه يحس كم للعالم من سلطان على الناس، ويتذكر أن الموت كلما أخذ إنساناً ولدت النساء غيره في سباق لا ينتهي.

تذبح على باب الدار نعجة، تلك هدية الجليلة احتفالاً بالزواج، تلتطخ شرقاوية واجهة الدار بكفها المغموسة في دماء الذبيحة، ويستقبل خاله القادمين بالترحاب، وتظهر الجليلة من بعيد تمتطي ظهر بغلة. تحيي الجميع بكفها طالبة رؤية الميت. وعندما يأتون به، تمسح بكفها رأسه وتقول: «مبروك»، ثم تغادر بعد أن تلتطخ بأصابعها الخمس خشب باب الدار بدم الذبيحة، بعد إلحاح شرقاوية، لتمنع عن الميت العين الحاسدة.

الميت يجلس طائعا، يهذبون شعره، ويحفون قدميه بحجر خشن. ويلبسونه جلبابا أبيض هفهافاً، يليق بالعرس، كل الأقارب يخافون من انقلاب الفرح إلى حزن، يضع الجميع أيديهم على قلوبهم حذراً. وقرب المساء، تقبل سيسبان، ينزلها أبوها ليسلم يدها إلى يد ابن أخته، يدخل العروسان الحجرة المعبقة بالبخور. الجميع في الخارج ينتظرون. سيسبان متلهفة للوصال، تفك عنها فستانها، وتبقى عليها قميصاً قصيراً. وعندما تمل من الانتظار واقفة، تتقدم من الميت، تلاطفه بحلو الكلام فلا يرد. ولخوفها من معايرة خالتها، تجلس بجواره وتتحسس صدره: «ما بك؟»، وتخلع عنه جلبابه، دون أن تلتفت إلى عينيه الشاردتين. تهمس له عندما تحس بضيقه: «زوجي حالي»، وترفع قميصها وتداعبه، وعندما تحس بالميت يتخدر من فرط اللذة، تتشي. ثم تطلق صرخة عندما ينزع ملابسها، ويشدها إلى صدره.

تتهلل للصرخة شرقاوية، وسط خجل أبوها الذي ينزوي
بنفسه، يشكر الله، يكتم الخبثاء أنفاسهم، وتولد في عيون بعض
الواقفات لمعة الشبق.



يجلس خليل وحيداً بين أطلال الليل، وهو ينظر إلى غيم
السماء الذي يحجب النور. يمد يديه، ويقول بأسى: «ماذا
أصنع؟».

تسرب النسومات من بين أنامله باردة. وصوت وسوسة الليل
يقطعه سقوط حمامة بيضاء من عشاها إلى كفيه المبسوطتين.
يمسك بجناحيها، ويقول بصوت هادئ: «تلك رسالة!».

يتملى بياض الحمامة، ويتنزع ريشة سوداء وحيدة من
جناحها، ثم يطلقها في الهواء؛ فيضطرب جناحها الخافقان،
ثم ترفرف بقوة لأعلى. ويرى خليل الحمامة نقطة بيضاء تبتعد،
وتعود بوجه صفية التي تنطق شفتاها: «اسأل ما تريد».

وفيق خليل من حلم يقظته، ويتنظر.

يتلمس خليل بروحه عالمًا جديدًا؛ يحسه ولا يفهمه. يندفع
لاكتشافه، سيخرج منه جوابًا لأسئلة شتى؛ فيسافر بالأمل، ويعود
بالحنين.



عيون الميت تفتحت على دنيا شرهة شبة، ما ذاق حلاوتها من قبل. لا يرتوي جسده الظمآن من اللذة. ينهل بلا تخمة ولا رهق، يرفع جنابته في اليوم خمس مرات، والليالي تتمدد بالخدر والنشوة؛ يقفل عليه وسيسبان بابهما قبل نزول الليل تاركين كل شيء، في الليالي الأولى، حملته سيسبان بجهدا ليطفو على بحر اللذة، والميت يحيا ويخبر حلاوة وبهجة الجماع، ويسبح طويلاً، وسيسبان تتفكك مفاصلها خدرًا وشهوة، ويرتخي جسمها مشرعاً فرعيه. تستعذب طعم الذكورة وفحولة الميت، وصوله اللذة. يطعمها بكرم وقوة وشبق خشن بدائي، أصبحت عاشقة مُحبة، تطهو لأجل الميت شهد الأطعمة، ولا تدع أبدًا لهندامه أن يتسخ أو يتعرق. وله تلبس الناعم والملون والمطرز الكاشف.

الميت فتحت بشرته وسمن، ونبتت لثغره بسمة، بدلت الدهشة والذهول الذي كان موشومًا به. استطعم للدنيا مذاقًا حلواً. السميت الوحيد الذي لم يفارقه صمته وأرق حيرة السؤال الذي بلا جواب.



الأيام تدور، ويمر عام يتقطع فيه قلب الميت بين شهد اللذة وسر الجواب المالح، ويمر عام آخر، تخرج فيه شجرة نبق بين الحجارة، وتظلل مقام عطية الكاتب المقفل بابهِ على الصمت. تتعلق نجاة بفرحة أكبر، وتزورها أمها سكينه في اليوم مرة أو

مرتين. تخاتل أنس صورة بلدها القديم، وتسأل عنها أصحاب المراكب على المرسى وهي تحكي لمختار غرائب الحكايات عن بلدها البعيد. الأيام تدور؛ وقنديل يقعد مشلولاً وقلبه لا يكف عن الدعاء. وخليل ينتظر بصبر أن تأتيه صفيه في الحلم، ليسألها جواباً لحيرته.

الأيام تدور، وعام رابع يمر، والجليلة تجلس على مقعدها الخشبي العتيق، تتنفس أنسام الصباح وهي ترنو إلى النهر وتنتظر.

9

دار قنديل يضرب أركانها الأسي، ويرتع الحزن فيها، يهرب منها مختار إلى أعلى الربوة، يحس هناك بالأمان. يدور بحصانه القش في خلاء المكان وحول شجرة التوت، كأنه في سباقٍ، يركض عله ينسى غياب أمه وجوعه، وتلفت إليه البنات اللاتي يلعبن الحجلة، فيمر من جوارهن منادياً: «من يصعد السماء معي فوق الحصان؟»، ويدور ويدور، وهو لا يكف عن صياحه، غير عابئ بمن يغدو أو يروح، فتد فرحة والشغف يملأ عينيها: «أنا».

- اركبي، هيا.

فتمتطي عود القش وراءه.

- امسكي بي كي تطير.

وتمسك بجلبابه فينطلق مسرعاً، يضرب بقدميه مقلداً ركض الحصان: «رفر في بجناحيك».

وترفرف فرحة أثناء دورانه حول الشجرة كأنها تطير، يترجل مختار وعند مقعد الجليلة العالي يتوقف، ويهمل فرحاً: «سنصعد بالحصان إلى السماء يا جدة، ونعود في الحال»، ويدور بعود

القش في حلقة واسعة تنتهي أمام الجليلة، ثم يفر ويبتسم:
«الحمد لله وصلنا بالسلامة، والحصان يريد الحلويات».

تنظر الجليلة بتعجب من ثقة الصغير وهو يحدثها: «اسمي مختار، وأمي تناديني مكار. هل تعرفين أُمي يا جدة؟».

- يا ولد.

- أنا ابن أنس.

- ما شاء الله.

وتخرج من جرابها السكر، تعطي البنت قطعتين، وتعطيه واحدة، وتنتظر رده؛ فيباغتها: «أعطيتها من السكر أكثر مني. زيديني مثلها». ويفرد مختار كفه فتهبه حبتين، فيقول وهو ينظر إلى فرحة: «زيديني حبتين لأُمي»؛ فتملأ الجليلة كفيه بالسكر، وتبتسم: «سلامي لأُمك».

- غائبة عن الدار منذ الأمس!

فتنادي نجاة، وهي ترفع رأس عصاها محيية الباعة العابرين الذين يحملون أجولة بضائعهم، بعد شربهم من الزير: «خذي مختار أطعميه».

بعيون تلمع من الفرح، تحضن نجاة الولد. وتدخله الدار.

الأسنة تلاحق مختار بسيرة أبيه. يتهرب الأقارب منه، لكنه عنيد كصخر. يحفر في قلبه الصغير قسوة بعضهم. ابن خمسة

الأعوام قلبه جسور لا يخاف الليل، ولا يوقفه الخطر. يطرده أحد الجيران ويسبه، فيختبئ في أعواد الذرة في جنح الليل، ويقلد عواء ذئب، أثناء ري الرجل لأرضه. ويهز الأعواد؛ فيتنفض الرجل مذعورًا يركض إلى داره، خشية انقضااض الذئب عليه. يضحك مختار، ويعود إلى الدار، بعدما نفث غيظه.

قنديل يجلس على فرشة أمام الدار، كي يرى وجوه الناس، ويأنس بأصواتهم. قليلون من يلقون على قنديل السلام، ولا أحد يزوره بانتظام سوى ابنة خاله، شرقاوية. تواسيه بشهد الكلام ليصبر حتى يأتيه الفرج. أصحابه القدامى تهربوا منه. يقتله الحزن وهو يقلب في رأسه ذكرياته، كيف كان وكيف أصبح، ويبكي، ومختار ينظر لأبيه بشفقة وينتظر عودة أمه الغائبة!



لم يصدق عبيدة نفسه، وهو ينتظر خلف باب مجلس الدوار، وصوت حارس أبو جميل ينادي باسمه كي يدخل. وجه عبيدة اصفرَّ عندما رأى العمدة بشحمه ولحمه، يتسم له ويشدد عليه أن يبلغ خليل، بانعقاد المجلس أول الشهر في أمر يخص سكينه ودارها. دهشة عبيدة اتسعت، وهو يخرج من الدوار، دون أن يسبه أحد من الخفر بأمه. يصعد الربوة يكلم نفسه، وتحت أقدام الجليلة يجلس، وقبل أن ينطق بكلمة؛ تباغته: «الميت تزوج يا عبيدة!»، ثم تبسم، وتأمرة أن يحمل صرة بها مداس وجلباب صوف وطاقيّة. ولما رأت استغرابه، قالت بود: «وصال، بنت

أخت سيسبان، عروسة حلوة»؛ فصمت. وعندما لمحت الرضا على وجهه، قررت: «سأخطبها لك. والتكاليف كلها عليّ».

طأطأ رأسه يلثم كفها ويشكرها، رفعت رأسه وهمست بأذنه: «كل الناس أحبابي، وأنت أحبهم، يا عبيدة»؛ فنظر إليها وقال بارتباك: «العمدة يطلب السيد خليل في...»؛ فتقطع كلامه وتأمّره دون أن يظهر على وجهها علامة تدل على شيء: «أخبره».



جلسات النساء تبدأ بتحفظ وتنتهي ببوح فاجر؛ رغم أنهن يعرفن ألا سر يختبئ في حلق امرأة أكثر من ليلة. لكن ما بصدورهن كأنه نار لا بد أن تخرج! تتحفظ كل واحدة على ذكر اسم من تحكي عنها، والجالسات يعرفن أن كل قصة تُحكى تخص من تحكيها، لكنهن لا يتورطن في الفضح إلا ساعة الخصام، فتباح الفضائح على الملأ.

تتنهد كوكب امرأة رضوان، وبعيونها يبرق بحر من لذة. كوكب، قلبها جسور لا يهاب. وبكلمة تقلب الحقائق لتلصق التهمة بمن يتجاسر على فضحها. تمشي برأس منتصب، وبعينها المغويتين جسارة. وكيف لا تختال، والعشاق الأسياد عبيدٌ أذلاء في فراشها.

كوكب يغويها كلام النساء عن همسات امرأة الميت وشهقاتها بين يديه. تنتقل الكلمات من فم إلى فم عن فحولة الرجل. ويدور

بخلدها رهان، عندما تهمس رفيقاتها بما سمعنه عنه وعن ذراعه الثالث! فيبدو الميت في عيون كوكب ذكرًا خرافيًا. ويشد تمسكها به، عندما تتحدث الجالسات عن عجبهن من تحول سيسبان إلى أنثى فائرة. فعود الحديد الصدي صارت ذات أضاء مليئة لينة، ومؤخرة مستديرة، ووجه يلمع بسمرة صبية. كحلها في عينيها يشي بسعادتها. وجسمها النافر تحت الملابس يتنجح أمام النساء بالارتواء والمتعة. تتحدث أرملة من الجالسات بالغمز والضحكات المتهتكة عن الميت وصدرة العريض المشعر، وعموده الدافق، فتحلف كوكب في سرها أن تسقطه في بحرها وتخبره بجسدها، ولا يوقفها عن الإقدام على ما دبرت؛ ما يصرحن به عن صمت الميت المربك، ونذيره الشؤم.



يفيق بحر والمركب يدنو من الجسر. ينزل مسرعًا. شاربه الغليظ ولحيته المطلقة تخفي هيأته القديمة. في صرته ملابس وأوراق، وفي قلبه شره، يعبر المدق الوعر، ويرتقي بخفة الطريق الضيقة. على مسافة من الربوة العالية تستفيق عيون الجلييلة عليه. فترفع عصاها، وتغمغم بغضب.

يعبر المدق الوعر، ويجتاز الطريق الضيقة. وأمام دار الجلييلة تصطدم به فرحة وهي تركض خارجة. يتابع البنت بعينه الضيقتين، ونجاة تجرى خلفها لتعطيها في فمها نسيرة لحم. تمثل البنت وتأكلكها، كما تمثل لندائها بصفية.

بعين تضيق يُحيي الجليلة ولا ينتظر أن ترد التحية. يتجه نحو الزير، يشرب، ويريق ما تبقى من ماء على الأرض، ثم يحمل صرته، وينزل الربوة، وفي إثره سرب من الأولاد، ناكثين اتفاقهم، مع مختار، حانثين بوعدهم بمنح طعام للفائز، في سباق خيولهم القش. يتوعدهم مختار بأن يمسح أصابعه على ذقنه بقبضته، وقبضته الأخرى في خاصرته، يفكر في عقاب لهم وهو يتابع قفز فرحة بخفة بين الخطوط المرسومة على الأرض.

يترك بحر الربوة، ويسير كغريب، يسأل أول شخص يراه: «اصحبني إلى دار العمدة يا كريم؟».

يلحق بحر بمجلس العمدة، يسلم فتحده العيون، ويرد على سلامه بفتور. الجلسة مكتظة بالناس. يجلس في الصف الأول كاتب البلد، وبجواره يجلس خليل. يبدأ التداول في أمر الادعاء، فيرى العمدة أن يأخذ رأي ذلك الكاتب على الملاء: «ما رأيك في رجل يدعي عقد امتلاك قديم لنصف دار سكية بوسط البلد؟».

- إن صح العقد، فلا حديث لأحد. وإن بطل فالعقاب على من ادعى.

- وما الذي يحدد صحته أو بطلانه؟

- صيغة العقد، والشهود، ووضوح ختم البائع.

ويأمر أبو جميل كاتب البلد أن يأخذ من ذلك الغريب العقد الذي يملكه، ويقرأه. وفي هدأة من تذمر الناس يقرأ ما في العقد

سَطْرًا سَطْرًا، ويحتج خليل بشدة، فيأمره العمدة أن يختار رجلًا ليكون حكمه، ويختار خليل شيخ المسجد، فيعطيه العمدة ورقة العقد ليوجب عن أسئلته: «هل ورقة العقد موثقة بالشهود أم مجهولة؟!».

- موثقة!

- هل اسم صاحب الخاتم واضح أم مطموس؟!

- واضح!

وبصوت قاطع يأمر أبو جميل: «تبعًا لما رأيناه من أوراق؛ تقسم دار السيدة سَكِينَة إلى نصفين، بينها وبين ذلك الرجل»، ويشير إلى بحر، الذي جاء إلى البلد باسم جديد! بعجزٍ يزجر خليل، لكن العمدة ينتقل إلى أمر آخر دون أن يأبه لغضبه.

يصعد خليل الربوة مخزيًا. ينعت نفسه بالضعيف الرخو. وفي لحظات التفكير يسأل: «هل خان الأمانة التي وضعتها أخته في عنقه؟»، فلا يجد جوابًا، ولا وسيلة يخبر بها سَكِينَة بقرار العمدة. لقد أوكَلته ليكون محاميها في الجلسة، وانتظرت أن يقلب الموازين برجاحة عقله وعلمه؛ فماذا يقول لها؟ وما جدوى الكلام؟ هل تصدق أن الأمر قُرِّر، والحُكم رتب بليل بعيد لصالح الرجل الذي شم فيه طوال الجلسة رائحة ذَبَّاح، وأنفاس خوان؟

وانفلتت الآهة من فمه يائسة ممرورة: «كيف ستتحملين، يا
سكينة كل تلك الآلام؟!».

ويسلم خليل على حماته، ويسرع خطاه ليختفي داخل
حجرته، والحنق يخنقه.



وحده قنديل، والظلمة تنزل بوطئها الموحش، ولم هذه
الليلة تبدو طويلةً وثقيلةً كشقائق يا قنديل؟ العتمة تغور بالروح،
وأنت وحيد. كلهم تركوك بلا ونيس.

الليل الثالث وأنس لم تعد إلى الدار، والدار بلا زاد ولا ماء،
والمخاوف ثقيلة تُثني كل أمر، وتُذهب كل حال، خَفَتْ نهش
الجوع، وصدى العطش، وخوفه من العتمة وما فيها. تنغلق
في روحه مسارب الآمال مع ذهاب النور. يجتر مرارة العجز
والوحدة، وما بقي بصدرة كلام، يبصر ماضيه وكم كان وضيئاً
رخيصاً. باع كل غال، وضيّع كل ثمين، وبقي مهملاً، يتجرع
الحسرة والخسارة. يدرك حقيقته التي تجسدت كابن الشياطين،
فما ترك إثماً إلا وارثه وبأشع صنع، نار من غضب تأكل قلبه،
يصرخ على ابنه مختار بحرفين تبقياً له: «آر، آر».

ولا مجيب.

- آر... آرر

كنصف ميت يستلقي على قفاه ويغمض عينيه، أبوه وعطية الكاتب ينظران له، أبوه يتلو والصوت يخرج من فم عطية! يختفي أبوه ويبقى عطية، يود قنديل أن يقول كلامًا لكنه يعجز، يتوسل بعينه فيقترب منه عطية، يطبطب على كتفه هامسًا: «لا بأس عليك»، ثم يتعد ويدوب في الهواء! يرمي قنديل جسمه أرضًا، ويزحف متألمًا. يبصر السماء موشاة بالنجوم اللامعة، تلفه سكينه، وتهدأ نفسه، يتحرك لسانه بالنطق، تتحدر على خده دمعة ساخنة مالحة، يود لو ينخلع من عذابه، من آثامه، من نفسه المسجونة في جسده نصف المشلول، يود كأنه لم يكن. يغمض عينيه ويرتاح على الأرض وروحه تهتف: {أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}. وتنساب دموعه دافئة.



لا دفء، ولا برد، بدأ قطر السماء خفيفًا نديًا، لا يجرح ورقة، قنديل يبلل شفتيه ويلثمهما، ويسط راحته المعافاة تحت الهواء الطري.

لا دفء ولا برد، وقنديل بقلبه مناجاة طويلة، وراحته على عينيه ولسانه يتحرك، لكن صاعقة سبقت الرعود وبرقت، النار تضرب سقف داره، وينقلب قنديل على بطنه ملتصقًا بالتراب، ويده السليمة أمست كقدم يجدف بها، ويزحف.

لا دفء ولا برد. لكن هواءً سكن، وبرقًا يتساقط من السماء كراتٍ من نار على دار قنديل، وينكسر عرق السقف، وقنديل يزحف.

تصاعدت ألسنة النيران، وانفلت شررها عاليًا ليزوب في الخلاء، والنار تستعِر لظى ونورًا. قنديل يزحف، وجدران الدار تذوب من وقع صوت تقشعر له الأبدان، صولة النار تخيف الناس فيتجمعون بعيدًا، والطير تفر في السماء، وقنديل يود لو يتلاشى. يود لو يموت. فلا الأمس كان له، ولا الغد سيكون يومه. هو للعدم، كأنه لم يكن شيئًا.

خلق كثير من ناس البلد ينظرون ساكنين، تاركين كل شيء للسماء، وقنديل يصرخ، والنار لها شرر رهيب، وصراخ ملتان يتمدد. النار لها رهبة، وفتنة، ورعب، والدار لها غنيمة تأكل سقف المندرة. والنار في الأرض والجدران تُسقط سقفوف الحجرات فيلتهب صحن الدار. والنار شرهة شرسة.

السماء تمطر، وقنديل في قلب النار، والناس يصرخون ويهللون، والنار تأكل، والناس يرقبون على استحياء من استسلامهم. يؤثرون السلامة، ويتابعون.

السماء تمطر، ويكف برقها وتذهب رعودها، ورويدًا رويدًا تخبو النيران. والسماء تمطر رذاذًا، ويصفو الهواء، وتبرد الأرض وتهمد الرياح، ويملاً الشفق قبة السماء.



يبدو الخيط الأبيض من الفجر على دار قنديل. ينشق بين الرماد وحطام أطلالها هواء طري له عقب ريحانة. وتثار دوامات من غبار، والناس يهمسون: «احترق الرجل جزاء أفعاله».

والرماد يصفو عن قنديل يتحرك بقلب الخراب، يستر عورته
بشفقة من فخار، ووسط الناس يمشي يكاد يكون سليماً. والناس
على جباههم يسيل عرق الرهبة والخشية، ومن شفاههم المدلاة
يسيل لعاب الدهول. وقنديل يترنم بهمس، عيناه ثابتتان لا تلتفتان،
ولا تريان أحداً، ولا تطلبان حاجة.

يمشي، ويغيب في الصحراء. يلفه نور، ويتبعه عبق الريحان.
والناس يتبعونه في سُكات وذهول، وعقولهم خاوية عاطلة.
بطيئةً، تصفو السماء، ويغمر الأرض نور الصباح، وقنديل قد
مضى في الخلاء البعيد، وتراجع كل من يتبعه رهبة وخوفاً.

10

في صباح غائم، وسط حراسة خفر أبو جميل وعويل سكيّنة وعجز خليل؛ يُبنى جدارٌ يقسم دار الشيخ مهدي إلى نصفين. ويشق بحر فتحةً في جدار داره؛ ليضعُ بابًا جديدًا! يضرب الناس الأكف عجبًا، وتمصمص الشفاه، ويُسبُّ بحر وأبو جميل وعصبته في سرائر الناس. وتمر الأيام والليالي والناس تتحدث. بحر لا يعرف خمولًا؛ يحرث ما يخصه من حديقة الدار. يزرعها بالخضار، ويتنزع الشجر العجوز. يرمم حواف بئر الماء ويعلي جدرانها. يتسلق النخلات يهذب جريدها، ويلقحها، ثم ينزل يسقيها. يدرك نفور الخلق منه؛ فيصاحب الخفر، ويستأنس بضيافتهم في صحن الدار.

يصحو ليراقب شروق الشمس، ومع الغروب يركن إلى الدعة. يومًا بعد يوم، يشعر بانسلاخه عن جلده العتيق. يتخلّى عن متع كثيرة، ويؤسر بلذة التلصص على سكيّنة؛ يفصحها من ثقب صغير ثقبه في الحائط وهي تنشر الملابس، وهي تعجن. ويطول تنصته، وتملؤه النشوة وهو يسمع غناءها الأسيان. شيء ما لا يدركه، يجعل قلبه طامعًا في امتلاكها. لو غابت عن عينيه

المراقبة ساعة نهار؛ يطير جنونه، ويتحرق شوقاً، ويحتال حتى تطل من جديد. وهي لا تراه إلا وتبصق عليه، فيتسم ببرود وأمل: «المسامح كريم». ويحتال على الناس بعقل فطن. يتودد ويهدي، يلاطف ويمنح. وبعد عناءٍ وصبر طويل، يشتري أقرباء من عائلة لا ذكر لها، بعدما أغلقت كل الأسر الكبيرة في وجهه كل باب، وفي وليمة فاخرة خصصها لهم، يخبرهم مبتسماً بحاجته إلى تسوية الأمر مع سكينه وأهلها. ويفرح الأقارب الجدد بمرونته وسماحته واستعداده للتضحية، صوناً للعيش والملح، ويوم الجلسة يحضر خليل على مضض، يدور الكلام على لسان الحاضرين بالحكم والأمثال، يأخذ بحر طرف الكلام، ويراوغ به العقول، ثم ينظر إلى خليل بعينه الضيقتين، ويطلب زواج سكينه كي يهدم الجدار، وترجع الدار؛ واحدة لكليهما.



سيسبان راقدة تتلوى من ألم الطلق منذ الصباح، والقبالة في الخارج تضحك غير منزعة. وقرب الظهر ينزل المولود بلا صراخ. تتلقفه يد جدته شرقاوية؛ تنظفه من سوائل الرحم، في طشت الماء، بعد أن قطعت له القبالة حبله السري الغليظ، لم ينبس المولود بصوت. وبعد وقت عصيب، حبس عن الصدور آهة الزفير، وتجددت على وجوه النساء المصيبة، ينفلج المولود بالبكاء، ويبتسم وجه شرقاوية المصفر وتحمر وجنتاها فرحاً: «مبروك». فترد سيسبان: «كما تريدين يا خالة».

لم تقصد شرقاوية بما قالت تسمية الولد. ينعقد طرف لسانها باسم جديد؛ فتمثل لقدر تسميته، وتصيح على الميت فيدخل، ويتلقف الولد من كفيّ أمه إلى كفيه. بشيء من الفرح يتفرس وجهه الناعم وفمه الصغير وحمرة بشرته. وتهمس له أمه محذرة من معاشرة زوجته طوال أربعين يومًا؛ فيبلع الميت ريقه بصعوبة، وتشحب ابتسامته، ويعيد الولد إلى يديها، ثم يخرج كاتمًا ضيقه: «إلى أين أنت ذاهب؟».

تبتسم سيسبان بوهن، عندما تسمع صفق باب الدار، وخروج الميت ضجرًا. تقرصها شرقاوية بمودة وهي تضع مخدة من قطن خلف ظهرها: «عشقك يا سيسبان».

يخرج الميت هائمًا، يتبعه كلبه البني، ويصل عبر المدق إلى تخوم المقابر، ويقف مدهوشًا؛ لم تقوده قدماءه إلى أرض الموتى؟ أليس في الدنيا أماكن أخرى غير هنا؟!

غصة بقلبه ثقيلة. يكبح نفسه عن المضي لقلب الشواهد. يتراجع عائدًا وخلفه كلبه لا يكل عن النباح. ينحرف من زقاق ضيق إلى شارع واسع، يمشي متمهلاً، لا يلتفت إلى غمز النساء عليه، بعد أن صار قصة شبق تحكى.

الميت يحترق في حاله، تائهاً لا يعرف إلى أين يمضي، لا هو بالحزين ولا بالسعيد. لا تيه ولا هداية، تلفه رهبة وصمت، يتلمس الكلب البني طرف جلبابه ويمضي أمامه؛ يمشي؛ فيتبعه الميت، كما تبع في الماضي سؤاله العنيد. يخوض في

قلب الصحراء طويلاً، يلفح وجهه هواء رطب، حتى يحاذي الهضاب، يشق الوديان، مُنقاداً إلى الطريق المنتهي بكوخ عطية الكاتب. وعند باب الكوخ المغلق يقف شاردًا، مضرب الذهن، يدق الباب ويصيح: «أريد الجواب».

يذكر ساعة رفع اللثام عن الوجه المتخفي، وكيف ضربه الذعر عندما وجد أن المثلث كان هو نفسه عطية الكاتب! أحقًا ما رأى؟! ويدق الباب بقوة يكاد يكسره، فتمسك يده كف مترفقة تخبره بهدوء: «لا أحد بالداخل!». ويلتفت بدهشة للقائل سائلًا: «أأعرفك؟!»، ويرد الواقف: «أنا قنديل بن عبد الله».



لم تنس شرقاوية أنها دفنت في الماضي، خمسة أجنة في شقوق الجدران؛ فحفر فراقهم أنهار حزنٍ بقلبها الضعيف، انزوت تبكي، رافضة الطعام والشراب. وقريبها، الشيخ عبد الله يأتي بعد العصر متأبطاً يد مبصر؛ يُجلس شرقاوية أمامه، ويمسك بكفه الضخمة رأسها، يُجمعها، ويرتل سورة «يس» وهي وراءه تردد بصوت مجروح، حتى قال: «ذهب الغم والموت، يا بنت يا شرقاوية، فانهضي». وخافت أن تخبره أن الهم ثَقُلَ، فيشتما بصوته الجهوري.

حَمَلَتْ بعدها بشهور وأجهض الجنين. دفعها وخز كلمات أهل زوجها للذهاب إلى غريب العراف، الذي قالت إنه كاد يرميها جسدًا مستسلمًا للجان. ففي ذهابها الأول خرجت تهذي

من عنده بكلمات ترضيهم، وفي الثاني انعقد لسانها عن نطق كل ما هو خير، وفي ذهابها الثالث مشيت بدم حيضها ووجه مصفر وقلب مغلول لتجلس أمامه واهنة مذعنة لما أراد لها غريب. وفي اللحظة التي أضحت فيها بين يديه عجينة طائفة مستلبة؛ سمعت نداء رجل يطلب منها الذهاب إلى الجليلة في الحال؛ فنهضت وخرجت وسط دهشة غريب وحنقه. حملتها دابة كانت تقف أمام الباب. صعدت بها الربوة إلى الجليلة التي نظرت إلى عينيها الذاهلتين وضمفائرها الهائشة وقلبها الواهن المثقوب؛ فأخذتها من يدها إلى حجرة بداخل الدار، وأنزلتها في حفرة مكسوة بشقف الفخار. حممتها بماء معطر قرأت عليه أدعية وتمتمات، وصومتها طوال الليل، ثم جلبتها في النهار على مضغ وريقات كافور غضة ندية. حممت جسدها شرقاوية في الظهيرة بماء ساخن، وفي الليل بماء بارد، وجسدها شرقاوية يرتعش وصوتها يصرخ، ولسانها يسب، ورحمها ينقبض. ظل طعامها لسبعة أيام، عنبًا وتمرًا وتينًا، وأوراق الكافور الغضة تمضغها بلا كلل، حتى أمست تتنفس كافورًا. شحب جسدها شرقاوية حد الهزال في أيامه الثلاثة الأولى، وفي الرابع بدأ قلبها يتفتح، وروحها تتنفس، والأدعية والتمتمات لا تتوقف من على لسان الجليلة. حتى شعرت شرقاوية بجلبة في جسدها وهي تحممها ذات ليلة بماء بارد، انصعقت وخرج من أنفها دم فاسد، ومن فرجها. انطرد مع كلمات واهنة، غابت على إثرها شرقاوية في غيبوبة صحت منها عصرًا، وقد انطرح عنها كل شر وأسى. حممتها الجليلة ثم أخرجتها إلى النور، وطلبت منها أن تتلو ما

تحفظه من قصار السور، فرتلت «الضحى» و«المدثر» بصوتها الأسر. وبعد عودتها إلى دارها ابتسمت لزوجها وتطارحا الغرام. وجاء الميت ومات الأب. ورمت شرقاوية ابنها وسره بين يدي الجليلة، فرقته ودعت له. فلماذا تنهرب الجليلة الآن من رقي مبروك؟ ترى هل يموت الولد؟!



في جنح الليل تستل سكينة خنجرًا، وتمضي غاضبة لقهرها. تمر جوار الجدار الفاصل الذي قطع الدار المباركة، تنتصت حتى ينام بحر. تتسلل وحنقها يحاول أن يغلب خوفها، تتقدم وكلها رهبة. السماء تبرق بالنجوم، وبحر غائب أمامها في بئر الغفلة، متمدداً فوق فرشة لباد في خلاء الدار. بجواره مصباح مطفأ. وتهب ريح، وتكتم سكينة أنفاسها وترفع خنجرها، وتظل كفها معلقة في الهواء، تتملئ بحر وتحاول العثور على يقين أنه قاتل زوجها. روحها تؤكد وعقلها ينفي، وهي تقف متيبهة صريعة الحيرة، كفها ترتعش، وكف بحر تطير، تقبض رسغ كفها بإحكام. تحاول سكينة الفكك، لكن كفها الصلبة عصية، فتطبق بأسنانها على كفها: «اتركني»، وتصرخ ألماً: «اتركني».

وبصمت غير آبه لأسنانها التي كادت تقطع لحمه، تسقط سكينة على الأرض ترتعش ذارفة الدموع، يتملئ رهاقتها وحمرة وجنتها، فيأمرها بصوت يحمل قليلاً من عتاب وكثيراً من محبة: «اذهبي سالمة، لغلاوتك عندي».

تراجع منكسة لا تنطق ولا ترد. وباحتقار بالغ ترمقه قبل أن
تهبط إلى دارها.



الميت هدف كوكب ونزوتها المقبلة. رسمت خطتها بالليل،
وارتدت ثوبها بالنهار بقلب نزق لاه، لا يحسب لخطر، لترمي
بألاعيبها في سبوع مبروك. ها هي تقبل مهنته مبدية فرحتها.
تهب المولود حجاباً يحفظه، فتبتسم سيسبان لها وقد انمحت
دهشتها من الحضور الغريب. أشعلت كوكب بعض جذور
شجر الفواكه في إناء الفخار. رشت البخور على الجمر الأحمر،
وأمسكت بكفها سبع حبات يخصصهم الناس للحياة ومنع الحسد.
ترمي واحدة، وتتخطى سيسبان إناء الفخار المشرع بالبخور:
«الأولى باسم الله...»، ورمقت ثلاث شامات بين قدمي سيسبان
المحضور عنها جلبابها: «والثانية باسم الله...». وفي منتصف
فخذ سيسبان حدقت بشدة في الشامة التي تشبه حبة الفراولة.
حفظت تفاصيلها في ذاكرتها حتى إذا جاء يوم تتشاجر فيه معها
ترميها بسهام الخيانة مع ذكر تختاره، وتتهمه بها: «والسابعة باسم
الله». وترمي كوكب آخر حبة، ثم تحمل المولود من سيسبان،
وتضعه في الغربال، وتهزه سبعاً أخرى فوق أعمدة دخان البخور:
«يا ملح الملوح، يا بركة عيسى ونوح، والنبى طه الممدوح، يزيل
عنا الشر، ويروح. يا ملح دارنا.. كبر صغارنا»، وتضع الرضيع
في حجر جدته، وتخرج من الحجرة لتطفئ جمر إناء الفخار.

تفتش بعينها عن الميت وسط الدار ولا تراه. تفتح باب القاعة الوسطى، وقلبها الجامد تنظر ولا تراه. تزفر بضيق وتتقدم إلى مؤخرة الدار، فتلمحه في الزريبة يرمي للجاموسة بعيدان خضراء ويملس على ظهر خلفتها الصغير. تتفحص الميت بعين متبجحة وتقول: «وقعت.. اسم الله عليك»، وتفرقع ضحكاتها، فتتوقف عينا الميت حائرتين لا تعرفان كيف تردان على عينيها الممثلةتين بالغواية والميوعة، لم يكن به من البهاء ما يجعلها تشتهيه. تُقَرِّع نفسها كيف تتمنع على رجال يقبلون قدميها وتقبل على هذا الولد؟ ويرغمها فضولها أن تفض لغز اجترار حكاياته.

ترجع إلى الحجرة مصرة على المغامرة، وبصوت قوي، تطلب من شرقاوية، على مسمع من سيسبان، أن يبعثوا لها شلية لبن رائب. وتقول، بالصوت العالي، إنها سألت عن أنظف بيت لا يغش اللبن فأجابوا بيت شرقاوية. تبتسم شرقاوية بفخر وتخبرها أنها ستبعث باللبن حتى باب سي رضوان.



الحجرة مظلمة، وخليل يغط في النوم. جسمه الطويل يرتعش تحت الغطاء الثقيل. رياح عاتية في الخارج تقلب الأتربة، وتعصف بأغصان الأشجار وبالورق اليابس. الليل يملك الدنيا، ونواح ربابة يتمدد ويعلو، يغطي على وسوسة الليل. صوت أقدام تقترب. الباب يثز ويد تدفعه. يتقدم الداخل جهة خليل، وخليل يداري بالغطاء وجهه ويرتعش. تربت اليد على جنبه، فينهض من

رقدته، يخاتله ذلك الوجه الغريب، ويفزعه الأمر: «افعل شيئاً!»، وقبل أن يسأل: «ماذا أفعل؟»، يختفي الواقف خلف الأشجار. يهرع خليل راكضاً والحيرة تأكله؛ فتنشق الأرض تحت قدميه عن لُجّة وجلبة ووجه أبو جميل يطفو فيها بشعاً ثم يتلاشى، لينفلج الماء عن بحر. يشد سلسلة ويعبر النهر على مركب ممتلئ برؤوس بشر لا يعرفهم، تنز رؤوسهم وتتساقط بدماء تلون الماء، ويبتعد المركب مع الريح، وتهبط عتمة. وخليل يصيح ويرتعش من حلمه تحت الغطاء الثقيل، والهواء المثار في الخارج يقلب الأتربة ويعبث بالشجر.



لم يعترض الميت عندما رجته أمه أن يوصل شلية اللبن إلى دار الخفير رضوان. ارتدى جلباباً نظيفاً، وأخرج أتانته من الزريبة بعد أن وضع على ظهرها الجراب الجديد. ركب أولاً، ووضعت شرقاوية فخارة اللبن بين يديه ثم طرف اللجام. يتبعه كلبه البني. طرق باب رضوان، ثم وضع الشلية قرب باب الدار. خرجت له كوكب بجلباب مفتوح الصدر، يكشف عن نصف نهد. تفرسته بدلال وهي تضع يديها في خصرها: «ادخل».

قالتها، ورمقته بنفس النظرة المغوية التي أربكته من قبل. وفي اللحظة التي هم فيها يحمل الشلية، رأى مداساً أسفل عينيه. - أهلاً بالميت.

ورفع وجهه، فرأى رضوان يتسم وهو يعلق على كتفه
بندقيته الـ«إنفيلد». عيون كوكب تضحج بالسخط لخروج زوجها
في ذلك الوقت، لكنها كتمت ضيقها واستدارت متقدمة بميوعة
أمامهما. رفعت المزلاج الخشبي لغرفة الخزين كي يضع الميت
شلية اللبن بداخلها. هاب الظلمة فتدللت: «ادخل يا راجل!».

تقدم خطوة في الظلمة، ووقف مرتبكاً يتعرق، فنادته كوكب
من عمق الغرفة آمرة: «ادخل».

تقدم، وهو يهم بالانحناء لوضع الشلية على الأرض. شعر
بكفها تلمسه، ارتعش مقشعراً وبلغ ريقه.

- بالليل تعال.

بختها همساً في أذنه، وأحس بكفها تمر على عمود ظهره،
قاصدة متربصة، فانتفض. لا يصدق أن في الدنيا امرأة ترغبه
لحاله. الدنيا أمامه تُظهر أبهى وجوها. ود وهو واقف في قلب
الحجرة المظلمة أن يصرخ بعلو صوته الذي كتمه عمراً، وينطق
بحب الدنيا التي كان يهرب منها. وحين أوشك على فعل ذلك،
سمع صوت الخفير رضوان متأففاً: «أسرع»، وأدرك أن الوقت
قد خانته وانفلت من بين يديه كما العادة؛ فصوب الميت سهم
الرغبة الخشنة الحارقة. ولو حشية النظرة الجائعة تأكدت كوكب
أن هذا الذكر يستحق.

عاد الميت إلى داره، ربط الأتان؛ وحاول أن يسكت صرخة
جسده المشتعل فلم يقدر. خرج ثانية يمشي حتى ينزل الليل،

تائه لا يعرف أي طريق يسلك. يخاف أن يكون ما قصده بهمسها شيئاً آخر غير ما يدور في باله. وكيف ترغبه وكل الناس تخافه؟ يسير بلا هدى من طريق إلى طريق، يجتر ذكريات كثيرة، يقطع بها الوقت، حتى تخفت الأرجل، ويخف السائرون في الطرقات. يدور حول بيت رضوان مرات، وفي كل مرة يحاذي الباب، ويتراجع في أن يدق بكفه. ولحظة أن يطرق الباب بحنو، ينبح الكلب وكأن به وجعاً، فيؤخذ الميت ويتوقف عن الطرق ويهرب!

لم تسمع كوكب شيئاً، وعندما طال انتظارها يئست، وفكت غلها بسب الميت بأبشع الشتائم، وقد عزمت أن تمسح به تراب الأرض إن رأت وجهه بالصدفة.



دار قنديل أمست تلاً خرباً، وجدراناً محطمة. بين أطلالها يلعب الصغار لعبة الاختباء، والعصا والعصفور. وعندما يهدم التعب يحكون عن عفريت قنديل ويسرحون بخيالاتهم.

الولد مختار يسمع الحكايات الشائنة عن أبيه وهروب أمه، فلا يرد ولا يدافع، بل يضم الكراهية لمن يتفوه بهما، حتى اتسعت وتوحشت. بداخل قلب الولد نار موقدة لن يطفئها إلا لقيا أمه وأبيه، لكن أين يجدهما؟ يهيم صامتاً وحزناً. شريداً يأكل من حشائش الأرض. يمنعه شيء من عزة الكرامة أن يمد

يده إلى الناس أو إلى أقارب أبيه، بالليل يرقد في العراء بحضن
جميزة الجليلة، متخفياً، ويدور في الشوارع وأزقة البلد بالنهار،
ويصيح: «آباء... أمااا»، ويقاوم ليبعد عن الربوة ودار الجليلة، كي
لا ترى فرحة والأولاد جوعه وبؤسه واتساخ ملابسه المهلهلة.

بقلب الصباح الندي، يندفع بحزنه وحسرتة؛ يمضي في
الطريق التي غاب أبوه فيها بعد خروجه من وسط النار. لا يعينه
إن وجد أباه إنساً أو عفريتاً! المهم أن يجد أباه، ربما هناك تكون
أمه أيضاً!

بعد البيوت والخضرة والشجر، بانت الصحراء واسعة،
لا يحيطها بصر؛ فوقف ينظر إلى طيات الرمال الصفراء التي
تضربها الريح. وبدا له من بعيد رأس الجبل صغيراً؛ فسار إليه،
ولأن قسوة الأيام محت من قلبه أي خوف؛ لم يخش الضياع،
ولا الأشباح. وبعد سيره ساعات ظلت المسافة بينه وبين الجبل
بعيدة، كأنه لم يقطع منها خطوة، ووجد شجرة «نبق» يتيمة في
فضاء الصحراء. استراح تحتها، ثم تسلقها بمهارة. أكل حتى
شبع، وملاً جيوبه، وأكمل الصحراء ركضاً، مدفوعاً بسخونة
الرمال لباطن قدميه الحافيتين. وكلما تقدم يرى السراب كأنه
واحة ماء.



خيبة الميت في لقاء كوكب علقها على نباح كلبه بالليل.
ولقوة شهوته وشغفه لنيلها؛ يسرب الكلب مرات في أماكن

شتى. يطلقه في الزراعات، عند المقابر، في الصحراء، ويعود الكلب بعد وقت ينبح ويتمسح بأرجل الميت ويهز ذيله، فيؤجل الميت مغامرته. وعندما يستبد به الضيق يقسم بنفي الكلب من البلد كله.

في حجرة سيسبان، يبحث عن قماشة قديمة. يمزقها إلى شرائط، ويخرج متأهبًا. يمسك بالكلب، يقيد أرجله الأربعة بمزق القماش، ثم يضعه فوق الحمار، كما يوضع الجرو الذاهب إلى السوق. يبطئ الحمار فيضربه الميت بالعصا كي يسرع. وطوال الطريق والكلب مخدرٌ بملامسة صاحبه، ولا ينس بصوت. وعقب الصعود إلى الربوة، والدلوف إلى طريق المرسى؛ أخذ الكلب يفز، ويحاول فك قيده، وكأنه أدرك مصيره. وأثناء المرور من جوار الجليلة أشارت إليه بعصاها، فحدق في الكلب وقال بحنق: «سأبيعه».

ويبتعد الميت، جهة المرسى، ويشتد نباح الكلب المستغيث. يحمل الميت الكلب بين ذراعيه ويقفز إلى المركب، يقف وسط العابرين، تدور عيناه فيهم، والناس جلوس يرقبون اندهاشه، ويتطلعون بفضول. وعندما تحط عيناه على عامل المركب، يقترب منه هامسًا بكلمات قليلة ويتفق معه. لا يسأله العامل سببًا لما يفعل، فكل ما يشغله هو الطعام الذي يحصل عليه، والميت يريح الكلب مقيّدًا في ركن مهمل وهو يبعد عيونه عن عيون الكلب الحزينة التي تتوسله، ثم يستدير نازلًا بسرعة،

يصم أذنيه عن نباح كلبه المتألم. عامل المركب مشغول بمضغ الطعام. والميت مشغول طوال طريق العودة، يفكر في تعويض ليلته الخائبة، وصورة كوكب تخاتله بأبهى زينتها. يتحرك قلبه بحنين لقلبه، يهزه فراقه، لكن جسده المحموم بالشبق يغلب حنينه.



يستيقظ خليل على وجه فرحة تنام بجواره. يقبلها، تفتح عينيها مندهشة، وتسال عن نجاة، فيعتدل خليل بظهره ويصيح على زوجته فلا ترد عليه. بعقل حائر يبحث عنها في الدار، وفي الأماكن التي تتوارى فيها من الدنيا، فلا يجدها. يخرج إلى حماته، فتخبره أن اليوم الخميس، فيهدأ، وقد أدرك أنها ذهبت إلى المقابر. يمضي يستحم ويرتدي جلبابه، وقبل خروجه يرى فرحة تجلس بجوار حماته تسمع حكاياتها المسلية، فيقطع حكي الجليلة ويسألها: «أتريدين شيئاً؟».

- لا تنس أن تأتي بمختار.

- سأبحث عنه وأحضره.

تسكت كاتمة شيئاً ودت أن تقوله، ثم تأنس إلى فرحة، مكملة حكاية روتها في الماضي كثيراً لصفية، وترفع عينيها إلى عبيدة المهرول تجاهها، وعلى كفها ينحني يلثمها، ويتمنى عليها أن تسمي ولديه اللذين رزق بهما. فتقول: «أسمي واحداً جعفر، فماذا ستسمي الآخر؟»؛ فيقول: «حسونة على اسم جدي»،

ويستدير راجعاً إلى زوجته ليخبرها باسم ولديها، ويكون تحت قدميها يخدمها فيما تطلب.



استراح مختار من مشقة السير؛ لحظة أن رأى على البعد كوخاً يحضنه الجبل الكبير. فرح لنجاته من تيه الصحراء، وسعى إلى الكوخ. وأمام الباب، شم رائحة حلوة، وشعر بشيء من المهابة والجلال، فنادى: «أبي، أنا مختار، يا أبي». ولم يفتح الباب. وأخذ يعيد النداء متوسلاً: «أنا مختار، يا أبي»، وهو يدور حول الكوخ. يطرق على جنباته شاعراً أن أحداً يسكن المكان؛ فالأرض مرشوشة بالماء، والأشجار الغضة مروية، والدلو متدلاً بحبل إلى قاع البئر. وتعجب إن لم يكن ساكن الكوخ أباه، فلماذا يختبئ عنه؟ وظلت عيناه حائرتين، وقلبه يخفق يأساً. كل الخيارات خاسرة؛ في الرجوع ندامة، وفي البقاء هلاك، والشك مريع، ويصرخ بقوة: «أبي... أبي. أنا مختار، يا أبي».

ويستوحش الخرس وصوت الرياح الضاربة، قحل الصحراء. حوله كثران رمال، وصخور عجيبة الألوان، ونباتات صبار منثورة بقلب الحصي. جلس على حجر. أخرج نبقاً وأكله، وأحس بحلاوته وبعطش عظيم، وبصبح الماء رغبة ملحة. يمشي إلى البئر، يرفع الحبل فيخرج الدلو فارغاً دون قطرة، يرميه في البئر، فيطفو الدلو على صفحة الماء ويخرج خاوياً. يكرر مرة وثانية و... يتسرع وبدون تفكير؛ يضرب قدميه في اتجاهين، ينقل قدماً

فأخرى نازلاً فتحة البئر، ليملاً الدلو بيديه. وبعد نزوله لمسافة، يدرك أن البئر سحيقة، ومتسعة في الداخل، فيكف عن الهبوط. يحاول أن يرفع قدماً ثم أخرى ويصعد كما نزل، لكن جوانب البئر الرطبة المتهالكة تخونه؛ فيتثبت مكانه مخافة السقوط، تهتز ثقته، ويدب في قلبه خوف ورجفة، فيصرخ: «أغيثوني». وتمتص البئر صراخه، ويتمدد الخرّس وعواء الصحراء حول البئر. يصمت هنيهة، ثم يعاود الصراخ: «أخرجوني يا ناس». ولا أحد يغيثه.



عقب خروج رضوان؛ استحمت كوكب وتعطرت، ارتدت على اللحم العاري قميصاً أحمر. لحمها الأبيض ناعم، وفيّ بلا زيادة. وجسدها مقضوض بانحناءات مثيرة. تمسح على جسدها بغنج، وتلصق الثوب عند عانتها وتقول: «ست الستات، يا كوكب».

كوكب عصبية على الامتلاك. هي من تختار. هي من تقرر. هي من تعاقب، وتسحب عاشقها بالآهات حتى يفيض ماءه؛ فتناوشه بالكلام المسيء عن سرعته. فيغار العاشق على رجولته، ويحاول إثبات قدراته، لكنه في النهاية يخسر مهما فعل. وعندما تملّه؛ تُعد له هزيمة منكّرة، لا يقرب الباب بعدها ولا يطلب موعداً. وإن لاقاها، يمشي منكسراً أمام عينيها المتبجحتين، وسؤالها المستخف: «هل عالجوك يا رجل؟!».

وحده الميت من بين الرجال من حسبته رفضها، وحده من ضربت له موعدًا ولم يجيء. إنها محتارة في جواب: «أهو رفض أم تراجع؟!» لم تكن تدري الحقيقة، ولم تسمح كبريائها أن تذهب وتسأله. ولا القدر أتاح فرصة لقياء صدفة لتؤدبه.

الوصول إلى كوكب، أسهل ما يكون؛ فباب الدار موارب لا يوصد إلا بعد أن يدخل زائرها. لكن من يجرو أن يدخل بلا موعد، وبلا اتفاق. تجلس في حجرتها تتكى ظهرها على مسند محشو بقطن هائش. أظافرها محناة، وكفوفها مخضبة، وأرجلها بيضاء تلمع بخلخال فضة. والعاشق العطشان يستتر بظلام الشارع، ويحوم حول الدار حتى يحس أمانًا؛ فيدفع الباب ويدخل. وفي ضوء مصباح خافت يراها هالة من فتنة، ترفع قدمها البيضاء ليلثمها، وينحسر القميص عنها، وتقيس عطش عاشقها، وإذا أحسته زائدًا تقول: «هيا».

تمسح على صدره بكف تعرف مكان اللذة وهي تنزل إلى أسفل، وعيناها تنفرس في عيني عاشقها، حتى تمسك بنقطة ضعفه. والعاشق الجائع لم ير فتنة كتلك، ولا جسدًا كهذا، ويحسد رضوان ويسبه، فتكتم حنقها بصدرها، وتزيد دلالتها وتبجحها، وتربط الرجل بحبل حول عنقه وتسحبه كحيوان، وسط كلماتها البذيئة المهيجة، وتفلت الحبل وتتعري، وتذهب إلى السرير تفتح بابها، يدخلها، فيشتعل صوتها بكلام يشعل الجان في مراقدهم.

يمضي الميت ليله في الشوارع، ورعشة سحرية تفتت جسده الساخن؛ ماذا يقول لكوكب؟ وماذا ستصنع معه؟ ويقطع تفكيره، ويرمي بنفسه كما اعتاد بقلب عطشه، وينتظر قدره. شهوته تحث قدميه على الإسراع. يمشي حتى تخلو الطرق وينام الناس، وهو يتحرق بمائه، لا عين تراه ولا نباح سيفضحه.

من بعيد ظهرت دارها، فكادت عيناه تدفعان الباب الموصد، عطشان ومن سترويه بالداخل، وأعذب المتع بكنف السر. الناس نيام وهو يدق الباب، فيسمع آهة شبة وكلامًا فاضحًا، ويلتهب جسده ويحس بالخسارة، فيمشي غاضبًا مهزومًا عطشان، هائجًا كاتمًا لوعته وصراخه.



لا نسائم عبقة في صبح سكينه، ولا أنيس في ليلها الكئيب. كلما لمحت وجه بحر الغامض المتلصص، تحس بالغثيان، دائمًا يتسم ابتسامته الوقحة ويهمس: «أريدك في الحلال، يا سكينه». بعض الناس يمصصون الشفاه بحسرة، والآخرى يقولون: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ويفتش خليل عنه، ويخبر أخته: «كلامٌ كثيرٌ يقولونه عنه، لكن ما أوقفه أنه يد أبو جميل الخفية!».

ويرجوها أن تنتقل معه إلى دار الجلييلة، لكنها تأبى ورغم ذلك تترك فرحة لنجاة تريبها وترعاها، وليلة بعد ليلة تنتظر أن

يتسلل بحر إليها كي يقتلها، محاذرة تضع الخنجر جوار يدها،
وها هي الليالي تمر بوجع الترقب.

في وحدتها تعيش سكونية، وبألمها تحيا. الأقارب ابتعدوا
شيء يكتمونونه في قلوبهم، وخلييل كثير الكلام قليل الفعل. ليل
سكونية طويل، وسؤالها حائر: «هل تنطوي الأحران كما تنطوي
الغيوم في السماء؟».



يصرخ مختار خوفاً وفزعاً، وكلما رفع رأسه؛ يرى السماء
شاحبة مقبضة، والريح تأتي بنداء موحش. تعبت ساقاه من طول
التشبث، وكلما حاول الصعود تنهدل جوانب البئر في ناحية،
وتنزلق قدمه في الأخرى، فيتشبث في مكانه، صارخاً بذعر
ورعب: «يا ناس، يا خلق، يا هوو...».

يخرج صوته ويعود مخلوطاً بالصدى المخيف، ويبصر حية
تتلوى، تفح وهي تخرج لسانها، يتحاشى النظر إلى جحرها،
ويطل ثانية على السماء، يراها خيمة من ظلمة هائلة تطبق على
عينيه؛ فيعاود الصراخ بكل قوة، حتى يبيح صوته، ويركن إلى
الظلمة وإلى مصيره. ترتعش قدماه من وطأة الألم. ينظر في
قاع البئر، ويخور جسمه. وعندما يسمع صخباً ووقع أقدام،
يرفع رأسه إلى أعلى بأمل أخير؛ فيلمح يدًا تمتد له في الظلمة،
وصوت خليل الحنون يُخبره: «أمسك بذلك الحبل ولا تخف».

11

سكن الحزن مختار، وعشش بقلبه اليتيم. همدت حركته
وذهب مرحة. ماتت بسمته وشاخ دهاؤه، ثم انطفأت عيونه
كالعجائز!

في دار الجليلة، الولد استحم وأكل، وارتدى جلبابًا نظيفًا،
وآواه خليل في غرفته الدافئة. لكن الليل مؤلم، والجرح غائر،
والحزن مقيم.

نجاة لا تكلّ عن خدمته، ولا خليل يتوانى عن رعايته.
اشتروا له جلبابين ومداسًا جديدًا وطاقية صوف ناعمة، وظلّ
الحزن مقيمًا.

الولد يجلس على المصطبة، ساكنًا كصنم، تلمحه الجليلة
وتُحِثّه كي يلعب، فيرد قاطعًا: «لا، لن أَلْعَب»، وينكس رأسه،
ويمضي إلى حاله، يثقل قلبه الحزن والأسى.

تجمع فرحة أحجارًا صغيرة ملونة، تلهو بها، وتبتسم لمختار:
«العب معي».

ينظر إليها ويحس أنه لا يرغب في أي شيء: «دعيني لحالي».

ويسكت حزينا، يسأل نفسه: «لِمَ تركه أبوه وأين ذهب أمه؟ ولم يحبه خليل؟ ولماذا لم ينقذه أبوه؟». ويتذكر أنه تلفت بعد أن أنقذه خليل، فرأى أباه يخرج من المقام يتابعه بعينه دون أن يناديه ليسأله عن سلامته. يبكي مختار وقد أمسى وحيدا، ليس بين ضلوعه شيء غير حزنٍ مُقيم.

فوق الفراش الطري، لا ترى عينا مختار النوم، بصدرة وجع، وبأنفاسه نشيج. تنفلت نههته رغما عنه، وينهض خليل من رقاد، يسأل: «ما بك يا مختار؟».

- أريد أُمي.

تنبش الكلمة جرح خليل فتدنيه، فيشهق باسمها: «أنس». الفراش طري، والليل غاسق، والنوم عزيز مفارق. وبقلب كل منهما أرق، وسهاد، وسؤال، وشوق وحنين.



في جسد الميت نار، لا تدعه يقر في مكان. يتنقل كالملسوع داخل الدار وفوق السطح. وتسأله سيسبان المتربعة في صحن الدار تُحمم مبروك: «مالك حيران؟!؛ فيداري سُعاره ويغمغم: «لا شيء».

تنشف سيسبان الولد مبروك وتلبسه، وتخرج شرقاوية من حجرتها، وعيناها على الصغير دون أن تعباً بوجه ابنها المحتقن. ويخرج الميت فتتسى أن تدعو له كما عهدتها.

يهرب الميت فوق أتانِه إلى الحقل بقلب مشقوق. شوقه
ينهب خلاليه ويصرخ باسمها! كأنها تملكته، يتحرق لها بشوق
طاغ، ويتردد صراخه الشره في داخله؛ يشعل غرائزه، فتتصب
صورة كوكب بفتنتها أمامه، ويشتعل بالرغبة والغیظ.

وينزل من فوق أتانِه على حافة التربة، ينزع جلبابه ويقذف
بجسده الساخن. الماء بارد، وجسده مستعر، يطفو ويغطس،
وناره يشتد أوارها. لا شيء يطفئها غيرها، ويهتف في نفسه: «لن
أدعك الليلة، يا كوكب».



رضوان في داره يأكل لحمًا، وبغمه ابتسامة. يتخدر جسده
تخمة. يدفَس رأسه في الوسادة، ويغفو، لكن يد كوكب تلكزه
وتأمره: «قم، اخرج لخفارتك».

- حاضر.

وينهض متثاقلاً، ويخرج واضعًا حزام البندقية على كتفه.
يمشي في الشارع وهو يتلصص بأذنه على الدور. الميت، غير
آبه بالناس، يخرج من حارة إلى زقاق. يهرول على غير هدى.
جسده متقد وعيونه مسعورة. وبمنعطف طريق يلتقي رضوان
وجهًا لوجه، فيسأله رضوان: «إلى أين؟». ويرفع الميت رأسه،
فيفهم رضوان أنه يقصد هنا، فيقول: «استر يا لطيف». ويهمس
لنفسه بتهكم: «ترى من ستكفنه يدك، يا ميت؟».

يلع الميت ريقه، ودار كوكب بعيدة، يقترب منها كقرد هائج. لا يلتفت إلى فضيحة ولا عين متلصص. جسده المحموم لم يعد يحتمل. يدفع الباب الموارب ويدخل. ويدله الضوء الخافت، وصوتها المتدلل المنادي: «تعال». وتتقد جبهته، ويفور دمه وهو يدفع باب حجرتها. يأكلها بعينه الجائعتين وهي تجلس على السرير بقميصها الأحمر، فتفزع مستغربة حين تراه، وتقول بحق: «كيف دخلت؟!». ويقرب واقفاً جوار نور السهرية، فيبدو كما وحش جائع. تنهض وتحاول أن ترده بكفها، فيرمي جسمه عليها. يلحس رقبتها، ويداه تعصران خصرها، فتشهق: «لِمَ لم تأت؟!».

- جئت...!

وسمعت جسده يصرخ: «عطشاان... عطشاان...».

تملصت منه، كي تحكم غلق باب الدار في وجه من ضربت له موعداً؛ ورجعت بعينين لامعتين. تملئ الميت بياضها، وقد وطأها ظل لامع، جعل الميت يقترب ويضع يده الساخنة على لحمها؛ فخلعت له ملابسه حتى تعرى. صدره عريض مشعر ومعضل، وملامحه فجة، وأسنانه مفلوجة. بكفه الخشنة تحسسها بنهم، فتهيجت وارتعشت. كان فجاً وقاسياً، وهو ينخرها نخرًا، فاتقد جسدها واشتعل نارًا. وعندما صارت عجينة طرية، حملها ووضعها على حرف السرير. جلدها الناعم الأبيض التصق بجلده الساخن الخمري. أطبق على فمها الصارخ بفمه. كان جموحًا وشرسًا، وبدا مخيفًا وهو يخور فوقها كالثور. تحشرجت

حناجرهما بشيق عارم، وهو يهز جذرانها هزًا. صرخت بالآهة
 ألماً ولذة، وأنشبت أظافرها في لحمه. وببدائية عرف ضعفها
 وضرب عليه، ومضى لا يعبأ بصرختها؛ تموء فيزيد، تعوي فيزيد
 أكثر، تصرخ وتتوسل أن يكف وأن يطيل معًا. كان كموج عاتٍ
 لا شيء يصده. عصرها حتى طقطقت عظامها في أحضانها.
 ارتعشت عدة مرات بالنشوة، ودبت في عروقها حلاوة الوصل
 وتخممة اللذة، فغابت عن الدنيا، وتخدرت عيونها المكحولة.



بسرٍ لا يعيه؛ خرج قنديل من النار. بجسد برحته رعشته،
 قلبه أبيض كمولودٍ طاهر، لا بكاؤه تعاسة، ولا ضحكته فرح. إنه
 سعيد بصمته، وقد أمسى الكلام عنده بلا طائل. يصعد الجبل
 فيرى البلد نقطة خضراء تحت قدميه، تترجاه أن يعود، لكنه لن
 يشتري من الحياة شيئًا بعد الآن!

ضرب البرق الدار واشتعلت النار. تهيأ قنديل للموت طالبًا
 الغفران. أحاطته النار بقلبها، فقال: «حان لعذابي أن ينتهي!»،
 وعندما استسلم للموت أبصر نورًا يتجسد. قام معافى على
 قدميه، يخوض بقلب النار نحو النور. طلب الغفران ولم يطمح
 في نجاة. سقطت أمامه كتلة نار هائلة؛ فعبرها شبه عار دون أذى!
 مر بجوار الناس محاطًا بستر الله. قلبه بكى ولسانه لم يكف عن
 الذكر. مضى عاريًا لا يحس ببردٍ ولا بسقم، حتى خلف البلد،
 وخلف كل ما كان.

مشى في الصحراء، تلفه سكينه، حتى وصل الكوخ. وقف أمام بابه بشوق، ومع طرفته الأولى فُتح له الباب. نام في الظلمة وصحا على النور. اغتسل ببقية ماء ظهور تركته يد طاهرة. لبس جلباب عطية الكاتب المعلق على وتدٍ بالحائط، وخرج.

قنديل يعيش الآن بإرادة لا عجز. بزهد لا عوز. بكلمة تبدد كل وحشة وكرب: «يا رب».

طهر البئر، ونظف حول المقام. مشى ورجع بفروع خضراء وبذور. غصن كافور، وغصن سدر، وليمون. يغرز الفروع وينثر البذور، وعلى الله كل شيء. راسخ بقلبه الرضا. خياله هو عين سعادته. يتخيل البلاد دون سفر، يكلم الناس دون لقاء، وفوق لسانه وفي قلبه كلمة تسكن الوجع، وتهدي البال: «يا رب».

الآن، قد انتبه أنه كان وحيداً وسط الناس. فلما غادرهم صار يأنس بنفسه، وزالت وحشته.

ودَّ قنديل أن يمنح مختار حباً لم تسمح الظروف أن يهبه له؛ لكنه فكر ماذا لو قرر أن يُبقي الولد معه؟ كيف سيعيش حياته في ذلك المكان؟ سمع صرخته في البئر. وعندما هم أن ينقذه؛ سبقه خليل، أنقذه، وغادرا معاً، فدعى له، وبقلبه ودعه، وهو على يقين أن اللقاء لم يحن بعد!

شقاء قنديل الآن منسي، قلبه طاهر ووحدته ونس، يرتاح في دعة الظل غير مؤرق بالفقد، فقد أمسى كل شيء في عينيه تراباً، إنه سره وستر حاله.



عشرون ليلة، استطعت فيها كوكب طعم اللذة وحلاوتها. عشرون ليلة، نسيت فيها كل الرجال، واستبقت الميت على غير العادة. عشرون ليلة، والميت يقلبها ظهرًا وبطنًا، ويتوغل في أحراشها. عشرون ليلة، روى فيها عروقها وحواسها بخشونة وبدائية؛ فارتضت أن يكون سيدها وتكون عاشقته، عشرون ليلة ذقت فيها ما لم تكن تعرفه؛ نشوة جامحة بالألم واللذة، بالصراخ والمتعة، تظماً فيرويهها، تجوع فيطعمها، عشرون ليلة، يلبد عليها كما تلبد البقرة، ولا ينهض إلا وقد امتلأت بثرها وفاضت؛ فتركها قلعة مستسلمة وقد كتب بدائية على جدرانها اسمه كذكر خرافي. وعندما صار الميت هو الحياة، ذهب ولم يعد، مرت ليلة إثر ليلة دون أن يجيء. توالى الليالي، ووقع الميت في فخاخ غيرها؛ أرامل ومتزوجات، أعمارهن مختلفة، وانتشرت همسات النساء وهن يشرن إليه كماردٍ، وسيدٍ للذة ساحرة يمنحها بكرم بالغ حتى التخمة لكل من تطلبها.



فوق المصطبة، يجلس خليل وحيدًا بقلب الليل، النجوم خابية في خدر السماء. وصفحة النهر ساجية تحت وطأة الظلمة. ومن ناحية المرسى يأتي أنين ربابة، ينسل من صوت الليل. وفتاة مليحة القد تمشي على مهلٍ، تقطع الطريق الضيقة محاذرة. تحمل بيدها صرة قديمة، وخطواتها تفرش أمامها نورًا يصاحب أنين الربابة، تضع الصرة التي نسيها خليل ذات سفر، وتسأل: «ألن تسافر ثانية؟».

- وهن العظم.

- خذ الصرة، وسافر مع الولد.

ثم تتوارى ويخفت النور، ويسكن أنين الربابة، ويبقى الليل والنجوم ترتعش في السماء، وصفحة النهر تمعن في الاخضرار، وخليل ينهض من حلمه، يتسم وقد أدرك الرسالة.

*

حل الغروب وهبط الليل، وخليل في دار أخته يسألها الدعاء، ويطمئنها عن قرب اللقاء، يقبلها مودعًا، ثم يرجع ليعد زائدًا للسفر، يقول لنجاة: «ثلاثة شهور على الأكثر، وأرجع»، ويُسرُّ للجليلة: «عسى أوفق، وأجمع الولد بأمه»؛ فتزد بإشفاق: «سافر وللقيا أوان».

وينفرد بمختار، يخبره بذهابه للبحث عن أمه، فيقطب الولد جبينه، ويقسم، إما أن يسافر معه، أو يهجرهم ويهرب من البلد كله، فيمثل خليل، ويكثر ما جمع من زاد لرحلتهم.

خليل يبحث عن أنس، ليس فقط لمحبتها الراسخة بروحه، لكن أيضًا رحمة بالولد.

يُقبَل كَف الجليلة، ووجه نجاة، وخذ فرحة، ويرفع صرة الزاد الثقيلة. وفي يد مختار صرة ملابسهما القليلة، ويخرجان إلى المرسى، ترقبهما فرحة بوجه أسيان، وعيون حزينة.

في البدء أشفقت فرحة على مختار، بسبب نظرة الفقد في عينيه، وسرعان ما تحول الإشفاق إلى تعاطف وراحة، والراحة إلى محبة، والمحبة إلى لهفة، واللهفة إلى وجع لا يصدق فراق مختار.

بدمعة حارقة؛ تفر فرحة بحزنها، وتصعد إلى السطح، تلاصق السور، وتظل تصاحبهما بعينها حتى يغيبا وراء الشجر في طريقهما إلى المرسى، تنزل فرحة إلى الحجرة المهجورة، ترص فيها عرائسها القطنية ومهملات بسيطة عدتها ممتلكاتها، وكل حين تمسح من فوق خديها دموعها التي لا تكف.

خاض المركب بقلب الماء، واتسعت عين مختار، تتعرف على الحياة، وتتيه في اتساع النهر، وكأنها تراه للمرة الأولى، انزوت قليلاً أحزانه، ولمعت عيناه، ورجعت بعض فرحته بالمعرفة وشغفه بالدنيا، أصابعه تشير، وفمه لا يكف عن السؤال: «ما هذا؟ وما تلك؟».

وخليل يسعد بصحبته، ويستعيد نفسه كأب ومعلم.

طوال الوقت يتملّى مختار ضفتي النهر، ولا تهمل عيناه حركة الناس على المركب، ويدهش لمقام خليل بين الرجال برغم قلة كلامه وضعف قوته، مقابل هذه الأجسام العفية. يسأله العجائز والفتيان عن أشياء، فيجيب بروية ورسوخ معرفة، يفرح مختار، ويناديه: أبي، فتأخذ الكلمة بقلب خليل، وينادي مختار بابني، طوال نهار كامل يشرد مختار، يرصد السحاب الأبيض، وببراءة يسأل: «أين الله؟».

فيضع خليل كفه على قلبه، ويقول: «هنا؟».

يتسم الولد، ويرى أن جواب خليل مزحة، فيقول: «جاوبني بالجد، أين الله؟».

يرفع خليل كفه إلى السماء، ويقول متحيرًا: «كأنه في السماء».

يشير مختار بإصبعه إلى كتلة هلامية في السحاب، ويقول بفرح: «أهذا هو؟».

فيرد خليل: «هو كل شيء، وفي كل شيء».

ولم يع مختار شيئًا، ولم يمسك جوابًا، فيرفع كفه إلى السماء، ويهتف: «يا رب، دلني على مكان أُمِّي»، ويعيد الدعاء ثلاث مرات متوسلًا، وبالدمع تبتل عيناه.



لم تعد كوكب تواعد أحدًا بالليل. تبادر بإخراج رضوان للخفارة، وتنتظر، لربما يطيب ليلها كله مع الميت. انتظرت بشوق ولهفة. ليلة إثر ليلة، ترتدي قميصًا، وتبدله بقميص أبهج لونًا وأكثر كشافًا. تزيد كحل عينيها، وحمرة خديها، ثم تجلس على سريرها تغني، وتتنصت أية حركة تسمعها، تتخيل الميت، فيتحرك دمها ويخفق قلبها وتتهيا، لكن الميت لا يأتي.

ترقب كوكب الطويل صار مضجرًا، وهي تعد الليالي وتنتظر.



يجنح المركب شمالاً مع ثورة الماء. النهر يتسع عرضاً، فلا تدرك العيون صفتيه. ويرقب مختار أحوال النهر. كم يتألق هادئاً أليفاً وقتاً، ثم يتبدل ثائراً عكراً مليئاً بالدوامات والجزر الخفية وقتاً.

يصل المركب إلى مرسى تتراص على جسره تلال من القلل وزلع الفخار، ينزلان إليه ويستريحان على البر لأول مرة من ركوب الماء، يأكلان جبناً حلواً، وخبزاً طازجاً، وسريساً أخضر رياناً، ويشربان الماء بارداً عذباً، ويشتریان شيئاً ساخناً من رجل أشيب. ويمر وقت طيب، ثم يركبان مركباً آخر، عليه مسافرون، ليخوض بهما عكس جريان النهر.

يرقب مختار جزراً شبه مغمورة بالماء، وأخرى مغطاة بالأعشاب الخضراء. ويرى على الجسور قطعان الماعز والجاموس هائمة تأكل الكلاً. ويتملى وجوه الناس، المنعم والشقي، الأسمر والأبيض، ويسأل خليل بأسى: «لماذا ظلم الناس أُمي؟ ولماذا خلقها الله سوداء؟!».

- حكمته، فقد خلق الله الناس على اختلاف ألوانهم، لغاية وامتحان.

ويتنفض مختار مبهوراً وهو يرى سرباً من الطيور يسابق المركب، تحلق ضامة أرجلها تطويها خلفها. فيسأل مختار مندهشاً: «ما اسم هذا الطير يا أبي؟».

- مالك الحزين، يا بني.

ويرد، وقد زاد اندهاسه: «ومال الطيور ومال الأحزان يا أبي؟!».



الدواب تتوالى على دار الجلييلة، تنزل أجولة الغلال وترجع لتحمل غيرها، والجلييلة فوق كرسيها، تحرك عصاها وتتابع، وعبيدة يقف يساعد ويشرف، وأجولة الحبوب يصعد بها العاملون، لتخزن في الصوامع.

فرحة -كعادتها- تصعد سطح الدار، دون التفات لهذا الصخب، تلهف لقدم المركب. تنظر إلى القادمين من المرسى، مشوقة لعودة مختار. وعندما يمر العائدون والباعة أمام الدار دونه، تحرقها الالهفة، فتتزل مهرولة تتوسل إلى الجلييلة باكية: «أخبريني متى يرجع مختار؟»؛ فتبتسم الجلييلة: «لكل شيء أوان يا فرحة».

وتشيخ بعصاها على ولدي عبيدة الجالسين يلعبان في التراب، كي تبعدهما أمهما عن أذى الدواب، فتلتقط الأم جعفر، تمسح على قدمه المتسخة، وتجلسه على المصطبة، وحال اقترابها من حسونة، يخطو -بقميصه الذي لا يصل إلى السرة- عدة خطوات ويسقط، وسط عيون عبيدة الحارسة وفمه المُرْدّد لسورة الفلق.

رغم الثبات والهمة التي يديها عبيدة إلا أن سرائره ترتعد، خوفاً من تلك الهمسات التي يشيعها الخفر بين الناس، بأن

العمدة اشترى أرض الجليلة، عيون عبيدة تتابع العمل، وبين الحين والآخر يلتفت إلى الجليلة عليها تطمئن خوفه، فتباغته ببشر امرأة: «وزع جوال لكل فلاح، وجوال لكل محتاج».



حُصَّ وقمر. دخان ونجوم. أبو جميل يجلس مستريحًا على فرشة مسبوطة، بفمه مبسم النارجيلة؛ يشد النَّفْس، ويخرج دخانًا له رائحة الحناء المُعتقة. يناول المبسم إلى بحر، والكلام يروح ويجيء بينهما بصوت لا يمكن أن تُفك شفرته، فتهتدي إن كان حقيقة أم خيالًا، جدًّا أم هذا، فالكلام راحة، والنفوس أمارة، والهواء طري، والدخان أزرق، والليل ونيس، والصبح بعيد.

- أتعرف، يا بحر؛ لأنها بلاد بلا صاحب، صارت لنا. كنت وابن عمي، الأبيض، فتیان، ندخن على جرف النهر. وهفت نسمة ناعمة من الضفة الأخرى فنهض الأبيض كطاووس منفوش يرقص، والهوى الطري يضرب رأسه المخدرة، فقال: «من أنا؟»؛ فَعَمَسْتُ الحجر، وقلت: «ابن عمي حبيبي»؛ فالتفت إليَّ الأبيض، وصوته ممتلئُ بنشوة السطل: «بل عمدة ذلك البلد البعيد، يا حمار»؛ فرددت ضاحكا: «لا تشتم ابن عم العمدة، يا جحش». وضحكنا، والأيام والليالي توات.

- أتعرف، يا بحر: يحتاج الناس إلى أمرين لتنفيذ مغامرة؛ قلوب قوية، وعقول راجحة، ومشاورة أصحاب الهمم. الأبيض قلب قوي وكف غاشم، وأنا...

فيرد بحر: «أنت عقل ماكر، ومدير حويط».

يخرج أبو جميل الدخان من أنفه، ويقول: «لكن الدنيا مكاراة، يا بحر. ولها ألف وجه».

فيرد بحر برزانة: «أعرف!».

- أتعرف، يا بحر: الأبيض صنع أيامه. وأنا...

فيرد بحر: «أنت ابتكرت حكايته».

فيتنهد أبو جميل وكأنه يفشي سرًا: (وجدني غريب الدجال فوق رأسه، أمنيته بالمال، وأوسوس له واعدًا بالسلطة والبيت والصحبة، ثم أخبرت الأبيض فنزل يرتب الأمر ويبدأ المكيدة. ولما رأيت هروب الناس، ضحكت بوجه ابن عمي وقلت: «مكتوب لهم النجاة، ومكتوب لنا الشقاء بهذا البلد، أترى حكمة الله!»). خضنا في تاج شمس بلا دم ولا عراك؛ يهزنا الضحك والهزل. صحبة من الأقارب والأهل يسوقون معهم حتى الأفاقين واللصوص، فالكل خلق الله الذي لا بد أن يحيا ويُرزق. ولم يكن هناك إلا راضي، ليكون عبرة وعظة لكل الناس ساعة يرجحون عقولهم. وبين ليل وليل، أمست الدور غنيمة بيد الأبيض. وأنا وهو أبناء عم، وللعنومة واجب وحقوق. والمال صار بلا جهد، يُصب صبًا تحت أقدامه. والذهب والأرض والبيوت. فقط تصك الأوراق والأختام بين يديه. ولأن دوام الأحوال الطيبة من مُحال الدنيا، والقلوب تتقلب والوجوه تتغير، وتتبدى الكلاحة،

ويذوب الملح ويتنكر الدم. قال الأبيض بوجهي: «الأرض لي، والمال لي، والدور لي. وما أمنحه لأحد ليس سوى منحة، عليه أن يقبلها بفرح ويسكت، فالعدل أن من يملك له أن يمنع مثلما يمنع»).

ويشد أبو جميل نفساً من النارجيلة ويخرج من أنفه الدخان، ويكمل: «قاتل الله السُّطَل، يفقد الرجل رباط لسانه، ونفسه. الأبيض كان في ضرب الكيوف غشيمًا، والكيف غلاب على المقامات والأنساب، يفتح الدماغ، ويُجوع البطن للذات الدنيا والنهم، كان للأبيض حال وأمر، ولي حال وأمر، والنفوس أماره! فكيف بالله عليك يا بحر؟ نطع من أنطاع الدنيا، رضوان، يجيء لي بصوت صريح، ليقول إن ابن عمي، الأبيض، يحذرني أنا ويحذرك أنت من نزول البلد، وإنه يخاف عليّ منك من أمور خطيرة، وإن وإن... فجئتُك أسأل: هل يصح هذا، يا بحر يا صاحبي؟!».

ويقهقه بحر وعيناه المتخدرتان تنظران في عيني أبو جميل قائلاً: «لا شيء يدوم، ولا أحد رقبته آمنة من الذبح». ثم يخشع كما لو أنه قد نزل عليه وحي: «أنا بحر. أنا ضربة القدر العادل، يا أبو جميل!».

فيغمض أبو جميل عينيه ويقول: «آه، يا بحر. للدنيا وجه مقيم، ووجه ضيف، وللدعاء وقت. والأبيض، ابن عمي، مذبح أمامي، ساحت دموعي عليه، وضرب قلبي الوجع على انقلاب

الأيام، لكن، يا بحر، الرجال مهما كانوا رجالاً لا يكبرون على الأجل، ولو ذبحاً! آه، يا أبيض، يا ابن عمي، وأنت تموت بين يدي، وعينك في عيني! لكن هكذا الدنيا، يا بحر، وتلك هي الأيام! أقول لك يا بحر، لقد اشترت الحوض القبلي والشرقي في أرض الجليلة، وأنت شاهد على عقد البيع يا بحر».

فيرد بحر: «شاهد! بالطبع شاهد يا أبو جميل!».

خُصَّ شمس وصمت. أبو جميل نائم على الفرشة المبسوطة، وعلى الأرض مبسم النرجيلة، وقد طردت رائحة زهر البرتقال رائحة الدخان الأزرق، بحر يرمي على كتفه عباءته، مغادراً ورأسه تدور بالسطل، وبطنه ينهشه الجوع.



ملاً الغمام صفحة السماء، ووارت السحب نور الشمس، البلاد كثيرة، والمراسي بلا عدد، ومختار لم يعد يسأل خليل غير سؤال واحد: «أين بلد أمي؟».

- الصبر، يا مختار. سنقضي الليلة على جسر المدينة، وصباحاً نركب مركباً آخر.

مختار بقلبه شغف وحنين، كلما برقت صورة أمه يسألها: «لماذا تركتني؟!». ولكن قلبه يسامحها مقدماً، فقط يجدها ولا يهم بعد ذلك أي شيء! مشتاق أن يرتمي في دفء حضنها، وبعدها تمسي كل الأحزان رماداً.

المراكب تمخر، والنهر بلا نهاية، ومختار يضح بحنيه،
وخليل يغص بحيرته وخوفه.

لم يفزع مختار كما الناس، وهو يرى التمساح بطوله الكبير،
وهو يخرج من النهر ليقبض بفكيه الضخمين على غزالة تشرب،
ويأخذها إلى وسط الماء. ويرى خليل في عيون الولد جسارة لا
تعباً بالخطر.

المراسي تتشابه في عيون مختار. والمركب ينعطف في
مساره، فيختفي ما يراه، ولا يبقى منه غير طيف ذكرى، يحاذي
المركب جسراً كبيراً معبداً بالأحجار، فيرى مختار في عيون
الناس ذهول المسحورين، وهم ينظرون إلى المرسى الضخم:
«أهذا مرسى المدينة؟!».

- هو، يا مختار.

ينزلان وسط حشد من الناس، ويسيران، حتى يعبرا الجسر
مشياً في طريق ناعمة معبدة، ودنيا مصقولة، ومصابيح عالية
تضيء، المنازل الشاهقة ملونة، والكنائس العالية ضخمة.
مآذن المساجد تناطح السحاب. والرجال يرتدون طرابيش
حمراء مع ملابس مهندمة غريبة، والنساء يقمن أقمشة سمراء
فوق قمصانهن الملونة على أجسادهن الطرية، وتحت أعينهن
اليشمك، وعربات تجرها أحصنة مسرعة، تبدو على أعينها آثار
دموع الشقاء. يشير خليل من بعيد إلى عربة، فتقف، يضعان صرة
ملابسهما، ويركبان: «درب الجمل، يا أسطى».

- عيني.

كل شيء يزداد بهاءً في عيون مختار. المحلات تنيرها مصابيح قوية معلقة أعلى أبوابها المفتوحة. لا ليل في المدينة. لا شيء غير النور وحركة الناس وصخبهم، كل واحد سيد نفسه، مالك حاله. تقف العرب ومختار مسرور. يشتري خليل كثيرًا من الزاد، فيحزن مختار، ويسأل مدرّكًا: «لِمَ كل هذا يا أبي؟».

- الرحلة طويلة يا مختار.

يمشيان حتى يقف خليل قبالة وكالة بابها عالٍ، يعبران الباب فتتسع الوكالة المقامة على شكل حدوة حصان. الطابق السفلي مقسم بالجدران السمكية لباقيات خاصة بالراحة وأعلاف الدواب للتجار وللضائع التي يجلبونها للبيع، والدور العلوي مقسم إلى غرف لإعاشتهم ونومهم.

مختار مندهش لكنه لا يهاب المكان والصخب والزحام، والحركة السريعة الخاطفة بين العتالين والسائسين، ويقف خليل يسلم على رجل ضخم، قابع على دكة خشبية عريضة؛ فيبش له الرجل بوجهه الغليظ وصوته الرفيع الحاد: «عاش من رآك يا ابن الأسياد. كيف الحال؟!».

- بخير ونعمة يا بكر.

- ابنك الناث، أعثرت عليه؟!!

يطأطئ خليل رأسه مروراً، ويخرج نقوداً فضية: «أجرة ليلة، والباقي إكرامية لك».

- جواد يا سيد خليل، وابن أسياذ. تفضلاً.

يصعدان ويتقدم الرجل الضخم، يفتح لهما الغرفة، ويسوي لهما الفراش، والبسمة تملأ وجهه. ثم يودعهما، ويقفل الباب، يتمددان على الفراش هامدين، ولا تمر دقائق حتى يغرقا في النوم. قبل شروق الشمس يصحوان، وإلى المرسى يعودان، يلحقان بالمركب الذي يمضي بهما في النهر ويتبعد، ومختار وخليل يقلبان أعينهما في سماء الله نهاراً وبعضاً من الليل.

✱

كوكب ينهار صلفها، ويغلبها شوقها، فترمي كبرياءها وتذهب إلى دار الميت. وبالصدفة يفتح لها الباب، تود أن تقبله وأن تنهش رقبتة بأظافرها لتدميه، لكن أساريها تنفجر، وتزغرد عيونها: «تعال الليلة، يا ميت».

- لا.

قال لا وكف، قال لا وانصرف. كسرتها الكلمة، وعمقت جراحها فاتسعت. من ذا يقول لكوكب لا؟ من يتجرأ ويقولها؟ حفار القبور الوضيع، الذي لا يتكلم كلمتين سليميتين؟! وقالت لنفسها: «لا عاش ولا كان»، ثم رجعت إلى دارها وأقدامها بالكاد تحملها.

✱

بعد سفر طويل ومراسٍ لا تعد، رسا المركب على جسر منخور بائس. تهيأ الاثنان للنزول وسط دهشة ريس المراكب، ابتهج مختار، واشتم رائحة حبيبة إلى نفسه، وانفتحت أمامه الحيرة، ماذا بعد لقيائها؟ هل يعيش هنا أم يعود معها إلى البلد؟ وماذا كان له في بلد الجليلة غير أمه؟ ويد خليل توقظه من شروده؛ تربت على كتفه، وتمسح رأسه.

وحيدين نزلا على جسرٍ بالٍ مهجور، وأشار خليل إلى بعيد، قال وقد تجلت بعينه الذكرى: «وجدت أملك هنا!»، وأكملا السير.

نقطة سوداء بعيدة تتجلى عن قرية صغيرة، دور طينية خفيفة تعلوها أكوام الحطب، ويطلق خليل تحية بلغة تعلمها من أنس، ولا يرد أحد. ويمشيان علَّ أحدًا يقابلهما فيسألانه. لكن لا أحد! تطأ الدور ظلال ثقيلة، والأشجار هائشة فوق جذوعها، لا هي ميتة ولا حية. ومع وقع أقدامهما وصياح خليل؛ تفزع من عليها غربان كبيرة. أبواب البيوت متروكة غير مغلقة، تهتز ذوائب أخشابها من السوس.

ويصرخ خليل بقوة: «يا أهل الله. يا ناس». ويرتد الصدى، ويتبدد بجوف الصمت والوحشة والخراب الذي طال كل حي، بيوت خربة، ونخيل ميت. لا صوت، لا حركة، والريح ترتع في الشوارع بالغبار، وبدفعة خفيفة لأحد الأبواب يفتح،

تنثر المفصلات كأنها تنتحب، في وسط الدار، يتدلى العنكبوت غازلًا شبابه: فأس قديمة، ومذراة غلال، وهيكل عظمي كبير لحيوان نافق. وعلى الأرض طبقات الرمال الناعمة تزيحها الريح، فتثير غبارًا أسود، ورائحة زنخة، خليل يغص بحزنه، ومختار مذهول، يستهول ما يرى، ويمشيان في الشوارع الخالية. يصلان إلى ساقية مهملة، الماء راكد ناله العطن، والهواء ساكن يزكم الأنفاس، طال الموت والفناء كل شيء! يقرأ خليل ومختار الفاتحة على أرواح من ماتوا، ويغادران. يشعر خليل كم كان ساذجًا في بحثه. ومن بعيد يطل على القرية الخربة ويتصعب.

يرجعان إلى الجسر. ينتظران حتى يأخذهما مركب عابر. لم يذوقا النوم إلا قليلًا. مختار يبكي طويلًا، وخليل يواسيه حتى أمست كلماته مكررة معادة.

النهارات طويلة، والليالي كثيبة، وصلا إلى جسر المدينة؛ قال خليل: «نبئت الليل في المركب المتوقف بالمرسى، وفي الصباح نرجع إلى البلد على متن مركب عائد». فيرد مختار غاضبًا: «وأمي؟ هل نتركها؟!».

ينظر إليه خليل وحلقه يغص باليأس: «ليس في يدنا شيء أكثر مما فعلناه يا بني».

— ...

النوم لم يطل جفون خليل إلا وقت السحر، وعندما صحا
تحت لسعة الشمس لم يجد مختار، بحث عنه في كل مكان فلم
يجده. انتظر يومًا ويومين وثلاثة، ولم يظهر الغائب. وظل خليل
يكلم نفسه حتى كاد أن يُجن.

12

يرى بحر الذعر بين عيون الناس، حتى من اشترى قرابتهم؛
 فيدرك أن الجميع باتوا يعرفون قوته، ويصمتون صوناً لحياتهم.
 يشعر بضيقهم من ظلم العمدة، وقهر الخفر، لكنه يوقن أن
 غضبهم لن يتحول أبداً إلى فعل، فيقول لنفسه: «النابه من يستفيد
 من هؤلاء الجبناء!».

ما جفل بحر ولا تردد في خلق دنياه الجديدة؛ يزرع فضاء
 داره الخلفي بدأب، ويناام باكراً. ولا يمر يوم إلا وقد زار أبو
 جميل، وأطال البقاء معه، وفي جلساته مع أبو جميل يقهقه،
 والدخان الأزرق يطير من أنفه: «أرض الجليلة ستصير في
 قبضتك، يا أبو جميل»، ويعطي مبسم النارجيلة إلى أبو جميل
 ويكمل: «والناس كلما ارتعدوا مني وخافوني، سيفكرون مراراً
 قبل الإقدام على فعل».

ويقهقه أبو جميل قائلاً: «ابن شياطين، يا بحر»، ويلف
 الدخان الأزرق المكان حاجباً ما بينهما حتى تنقضي السهرة.

تتوالى الليالي، والجليلة صامته تدعو، وإشاعة سلب أرضها
تقترب من اليقين، على لسان الخفر. الناس تنتظر فعلاً، وعيونهم
ترتعد إن لاقت بحرًا!



كوكب قلبها مشقوق. لبست عباءتها، وخرجت بكامل فتنها
إلى السوق. تفتش في وجوه البائعين والناس، تدور في ساحات
السوق، تقلب في البضائع، وتفاصيل في السعر عند تاجر، ثم
تركه لآخر. لا تدرك ما أصابها، وترى نفسها تتبدل، تسأل أين
الرجال الذين يلاحقونها؟! ولماذا خرست الأفواه التي كانت
تتوسل إليها؟! تنظر في وجه فتى، فيهرب بعينه عنها؛ فتسأل:
«أين الرجال الذين قبلوا قدمك ذلاً لترضى؟ أين العيون الولهى
التي كانت تتبع ثني خطوك، وأين وسوسة رسائل العشق؟». ثم
هتفت لنفسها: «لقد سُحرت!».

وسارت، ترقب الرجال بتوجس. تخاف أن تبتسم ولا
ترتد إليها البسمة بأوسع منها، مضت حائرة، تحس بجسدها
ينكسر، وخطواتها تنهزم، وأنفاسها تلهث. رجعت إلى بيتها
متعبة تنوء بالخذلان. وفي مرآتها النحاسية نظرت إلى وجهها،
فبدت تجاعيد بسيطة تحت عينيها، فهمست: «إجهاذ السهر».
لكن عندما رأت شعرة بيضاء بسوالفها المحناة صاحت: «لقد
سُحرت. سحرني الميت! وعهد الله لن أتركه».



يجلس خليل صامتًا على المصطبة جوار الجليلة، يسند رأسه إلى كفه شاردًا، وفجأة تقفز صورة مختار أمامه، فينهض كمن لدغه عقرب. يدخل الحجرة، يلم في صرته بعض الملابس. يمضي يركب المركب. يفتش في المراسي عن مختار، كأنه يبحث عن نفسه، يأسى لتردده وهروبه من مواجهة كل أمر. يأسى على قدر الولد، وفي ذات الوقت، يحسد مختار على تلك الجرأة التي قرر بها أن يختار حياته، وحتى لو أتى الاختيار خاسرًا؛ لا يهم، فمتعة الحياة أن تكون فيها حرًا.

يبحث خليل بدأب في كل مكان ينزل إليه. يفتش في كل مرسى، ويسأل عن مختار واصفًا طوله وشكله وهبائه، وينزل مرسى المدينة، يوقف عربة ويضع صرة ملابسه ثم يقفز، ويقول: «الوكالة يا أسطى».

- الأجرة تضاعفت، نسير أم تنزل؟!

وفي الطريق ينفث السائق همه، ويشكو غلاء كل شيء، وعند باب الوكالة ينزل، يعبر مدخلها الواسع، ويسأل بكر المتربع على دكته الخشبية العريضة: «كيف الأحوال يا بكر؟!».

- الدنيا توحشت يا ابن الأسياد. وكل شيء غلا.

- أسأل عن ولدي يا بكر، ولا أسأل عن الدنيا!

فيرد بكر، وكأنه ينفي عن نفسه تهمة: «والله ما رأيته يا ابن الأسياد، والله ما رأيته».

وينام خليل ساعاتٍ، ويبحث بقية اليوم، يفتش في الشوارع الواسعة والأزقة الضيقة. يسأل الأكابر والمعارف. حتى المتسولون واللصوص لم يستنكف سؤالهم عن مختار! وبعد قضاء أيام، يرمي بيأسه ويذهب إلى قرية أنس الهالكة، يعاود المشي في شوارعها الخرساء. الصمت يطبق على المكان، والعنكبوت ما زال ينسج شبابه. وينادي خليل في كل شارع: «مختار، يا مختار». وعندما ييأس ويتعب، يرجع إلى تاج شمس هامداً، يجلس على المصطبة جوار كرسي الجليلة، وكله خجل.

وفي جنح الليل، يطرق الباب رسول يخبرهم بأمر أبو جميل أن يقبلوا بعض المال، عوضاً عن الأرض التي قرر أخذها، فترد الجليلة متحدية: «ليفعل إن كان يقدر! وسيرى!».

ويتعجب الرسول من ردها الجريء، وعدم خوفها! ويضحك أبو جميل ساخراً، ويقرر تنفيذ أمره في موعد حدده، والأيام تتوالى حاملة النذير والترقب في الدار، ينام خليل في حجرته الحالكة، شاعراً بعجزه عن فعل شيء.



كوكب تلف البلد تبحث عن الميت. تعثر به واقفاً ناحية أرضه، تجري إليه وتقبض على رقبته، وتبدي شراسة، تريد أن تصرعه: «يا ابن الكلب»، والميت يقف صلباً صامتاً، لا يمنع ضربات يدها.

- يا ابن الكلب!

وتضرب صدره، وتكل يدها، وتحس بالرهق في كامل جسمها. تريد أن تطرحه أرضاً وتدهسه بنعلها فلا تقوى حتى إن تهزه. ويقبل الفلاحون والأجراء يتفكهون ويتمسحون: «ماذا فعل؟! وحدي الله، يا ست، اهدئي وصلي على النبي».

ترد بوجه محتقن متشنج: «الكلب يسرح في البلد بالأعمال والسحر».

يغادر الميت المكان، وينفض الفلاحون عن كوكب، غير فتى يرصدها حتى يصيرا وحدهما، فيضاحكها ويطلب موعداً، فتومئ برأسها: «تعال في الليل»، وتزحف بخطوها المرهق مقهورة لما يحل بها، تمشي وهي تهمس: «لقد سُحرت!».

وتتوه عن دارها في شوارع البلد، حتى تفيق بعد ساعات طوال، وتفاجأ بنفسها أمام عتبة الدار. وترى أنها حافية القدمين مغبرة شعناء، فتصرخ: «سحرتني الميت، سحرتني الميت!».

حزينة تنام كوكب وفور استيقاظها تستحم؛ فيبوح جسمها بعطوره. تدعك قدميها بحجر خشن حتى يضيء كعبها نعومة وحمرة، ترتدي قميصها الأحمر، وتشعل البخور، وتمسح بثلج الشَّبَّة تحت إبطيها. وعلى السرير، تفرد جسدها. ضوء السهرية خافت، وتمد قدمها وترفعها عارية، فلا تراها يبضاء مكتنزة. وبصوت مبوح متحشرج تغني.

وبعد وقت من مغادرة رضوان لغفارته تسمع ديب أقدام، تستقبل الشاب بصمت، وعيونها مسبلة، وتذهب لغلق الباب

بالمزلاج ثم تعود. وتحس بكف باردة تجوس في لحمها،
وتسمع أذناها كلام العشق كأنه فحيح، وترى شبحاً يتشقلب
على الحائط. وتغمض عينيها وتفتحهما، فتراه حقيقة. تكتم
ارتعادهما، ويستوي الولد جالساً وقد أخافه شرودهما، يخطف
ملابسه، وينفلت هارباً، وكوكب على حالها تنظر إلى الجدار،
وتهمس بحديث مع طيف تراه، تهذي وبلا صوت تبكي.



يخرج قنديل من كوخه طاهراً، عليه جلاب عطية، وعباءة
تركها عابر أمام المقام. يترجّل في الصحراء حتى مشارف البلد،
ويقف ينظر إلى البيوت والناس كأنهم شبه غرباء.

يقطع الطريق الواسعة، والخلق تقف على الجانبين قبل
أن يعبرهم. يسير فيفسحوا له، ويتراصوا على جانبي الطريق،
والنساء على عتبات البيوت يخفين وجوههن محدقات بعيون
تتسع. والأطفال في الطرقات والساحات توقفوا عن اللعب،
وتدلت شفاههم بسيل اللعاب، الجميع سأل: «إلى أين هو
ذاهب؟!».

رنا الصمت، وعمت الرهبة. وقنديل يخطو على مهل، كأنه
رسول يحمل أمانة. والناس من خلفه يتقاطرون، يجتاز عتبات
الدوار، ويُنجي الحرس بعصاه -عصا عطية- المعقوفة، يتقدم
غير هياب ولا وجلٍ. يجد أبو جميل أمام الدوار وحوله خفره،

فيرفع قنديل عصاه، ويلكزه لكزةً قويةً في كتفه وصوته يدوي:
«أرض الجليلة لا تقربها».

ويرتمي أبو جميل مطروحًا بوجهه على الأرض، وقد خانته قدمه والتوت خلفه، وبعد جهد يستند على كفه ويستدير ناظرًا إلى الخفر: «اقبضوا على هذا المخبول»؛ فيتحرك قنديل وينزع أبو جميل بالعصا في صدره، ومن بين صديري جلبابه، ينتزع ورقة العقد المزورة التي تدلت، وبصوت خشن يهدده: «اعدل، وأرض الجليلة لا تقربها وإلا ستكون حطبًا للنار».

يصيح أبو جميل بصوت متحشرج: «اقبضوا على هذا الكلب»، وينظر إلى رجاله المتجمدين رهبةً، وقد تظاهروا أنهم لا يسمعون، فيدرك بفطنته أنهم خائفون، وعندما يسب أبو جميل الخفر يتنبهون، ويهرولون إليه؛ فيأخذ أحدهم يده، ويمسح آخر على جلبابه الصوف، ويناوله ثالثهم قُلة الماء، ويلبسه الرابع مداسه، ويضع رضوان على رأس أبو جميل طاقيته الصوف وهو يواسيه: «سلامتك يا سيدنا».

تجمد أبو جميل، ليس رهبةً بل شُروداً في سطوة قنديل على الناس والخفر، فتصنع أنه سامحه في الأمر، وبداخله تقدح نار الانتقام.

قنديل يدب الأرض بعصاه، ويمضي غير هياب ولا جافل دون أن يجرؤ أحد على اعتراضه أو زجره من الخفر، خوفاً أن يحرقهم بنوره أو يمسهم من السماء غضب يقص رؤوسهم.

يوسع له الناس الطريق، وعيونهم تتبعه، فيسير منتصباً حتى يصعد الربوة ويأتي جسر النهر؛ فيتوضأ ويصلي على العشب الأخضر المنبسط. وقد رقت فوقه الشمس، ودنت السحب من السماء الوسيعة. فحمد الله وشكره، ثم قام قاصداً الجليلة، أعطاهما العقد المزور وقبّل قمة رأسها، فأومأت له راضيةً مبتسمة، ورأى فرحة، فناداها ووضع يده على جبهتها، وربت يقول «سبحان الله»، ومسح على وجهها مُكرراً التسبيح. ولحظة خروج خليل ابتسم، وبإجلال قبل كتفه بتوقير بالغ، وسط تهليل وتكبير عبيدة.

عاد قنديل من نفس طريقه، قاصداً الصحراء حتى وصل كوخه؛ فخلع العباءة وعلق العصا واستراح بعد أن أطاع أمر رؤياه التي لم تكذب.



كوكب لم تعد كوكب، إن أتاها عاشق في ليلةٍ يندم على ذهابه ولا يعاود الكثرة، في قمة فرحها يباغتها الحزن، وفي قمة أساها تنفج أساريها وتضحك. رضوان يداري على حالتها ويتنظر، حتى فاجأت النساء يوم عزاء قريبة لها، ورفعت كفها أعلى فمها وزغردت، وأمام عيون النساء ولومهن وسبابهن لها، امتقع وجهها وبكت، ثم نهضت تاركة طرحتها ومداسها، مشت في الشوارع حافية، تهمس لنفسها بكلام مبهم. وعندما وصلت الدار وتملاها

رضوان، حزن، وأيقن أن كوكب ليست كوكب؛ فاستعان بالصبر،
وأخذ يفكر في حل.



شد أبو جميل أنفاس الدخان وقد اكتست عيناه بخدر
الكيف، وجسده بيعض النحول، وبلسان ثقیل قال لبحر: «البلد
حرمة، تبدو كظهر محني يا بحر. كلما ضربته أكثر يستوي
لك ركوبه. وأنا أحب الركوب؛ ركوب الخيل وركوب اللحم
وركوب الناس. أتعرف يا بحر أنني أحب كل شيء لونه أحمر،
حتى الدماء. أشربتها يا بحر؟!».

وينظر بحر إلى أبو جميل ويبتسم؛ فيكمل أبو جميل حديثه:
«الكيف مزاج. والمزاج ألوان، والنسوان ألوان، والخمر أيضاً
ألوان.. قنديل، الحافي، يقف أمام عتبة الدوار، يسرق العقد
ويصرخ في وجهي، على مرأى من الناس! أولاد قحاب؛ الناس،
وقنديل، والجليلة، والخفر. جميعهم كلاب؟».

فيرد بحر: «كلاب وأولاد كلاب يا أبو جميل».

- الناس مجاذيب الدراويش يا بحر (ضاحكاً بمرارة)،
أتعرف يا بحر أن قنديل يمشي بلا سروال. ولو كان بينه وبين
الله سرٌّ وعمار، لأنزلت له موائد من لحم وسراويل من حرير،
يا عاقل، الخفر الأوساخ خافوا أن يمسخهم قروداً، أيرضيك ما
حدث يا بحر؟ أيرضيك؟!

وبعد طول صمت، تكتسي نبرة صوت أبو جميل بالحزن،
وتصبح الكلمات ثقيلة على لسانه، وهو يمد بمبسم النارجيلة
إلى بحر: «اشرب يا بحر اشرب، فهذا البلد كلما دهست ظهره
أكثر استطابك أكثر، كان الأبيض عاشقًا، أما أنا فجبار منتقم،
وأنت حبيبي ويدي التي تذبج».

ثم يصمت مأخوذًا بالحزن؛ فيلتفت بحر إليه وبثقة تهدئ
من روعه يقرر: «قريبًا ستسمع نعي من تكره يا أبو جميل فأنا لا
يرضيني ما حدث يا صاحبي».



الليل حل، كل مصابيح الدار مضاءة، وأنوارها لا تكفي.
كوكب شاردة، وعيناها ذاهلتان. تتكور مذعورة، كلما سمعت
النداء يرن في أذنها: «كوكب.. كوكب»؛ تفزع، وتفر من وسط
الغرفة تلوذ بركن؛ فتباغت بشبح يتحرك على الجدار، تضع كفها
على رقبتها لتحميها عندما تحس أن الشبح يريد خنقها، تهزول
متعشرة، تبحث عن ملاذ آخر في الغرفة، وكلما علا في أذنها
صوت النداء تهيج، وتصرخ مذعورة، وتقرر الهرب إلى خارج
الدار، تحاول فتح الباب المغلق بالترباس والسلاسل، تدفعه بكل
قوتها مرة بعد مرة، ومن شدة خوفها وبأس قوتها ينفسخ الباب؛
فتفر راكضة في الشارع هربًا، الناس تنظر إليها وتتمتم، لكنها لا
ترى أحدًا غير طيف يتقافز، وصوت ينادي باسمها، إن ضحك

لها، تبسم له مغصوبة، خوفًا من أن يكشر عن شرٍّ، ويؤذيها، تسأل وهي تهرول: «أعشقتني الجني أم يريد رقبتى؟»، ولا يقطع همس سؤالها غير ندائها الجهير على رضوان كي ينقذها، الأولاد يلتفون حولها ويزفونها قائلين: «كوكب المجنونة... ممصوفة يا ليمونة».

تمشي غائبة، والجو بارد، والحرارات ضيقة، والليل يئن. كوكب تجري، والأولاد خلفها يهرولون. إلى أين؟ لا تعرف! تتعثر، فيضحكون ويعلو صخبهم، الطرق تتسع، والأولاد يزداد عددهم، تهذي مع نفسها بكلام لا تدريه، ومن بعيد يوقفهم صوت غاضب: «من هناك؟!؛ فتتقدم إليه مذعورة: «أنا...».

- كوكب، كفى الله الشر!

ويسب رضوان من لم يهرب من الأولاد، ثم يسحبها بقوة عائداً بها إلى الدار، بعيون مكسورة وقلب حزين.



أبو جميل يجلس في القاعة، يتكئ على فرشة طرية. يصيح؛ فيضعون أمامه وليمة، وتأتي واحدة من نساءه، تجلس بجانبه، تضاحكه بغنج؛ لكنه زاهد في الطعام منذ فترة، لا يشبع إلا من الخمر، يصب كوبًا من النبيذ. تشرب المرأة منه قليلًا، ويرمي بجوفه الباقي. يتحرق من المذاق اللاذع.

أبو جميل، يومًا بعد يوم، يشحب جسمه، وتتجمد عيونه. يشرب؛ فيندلع في جسده عطش للشهوة لا يشبع، وكلما شرب، ازداد شرهًا للزيادة، يشرب حتى السكر، وفي الفراش تسمع شتائم المتدحرجة فوق لسانه الثقيل المخمور، يسب ويهيج ويضرب، ويمتزج ضربه بالصراخ والتهليل.

انتظار الانتقام يؤرقه، لكنه يتسم من مرأى رضوان واقترابه. يهمس رضوان في أذنه: «رجع ولم يفعلها يا عمدة»؛ فيتغير وجه أبو جميل، وبضيق يأمر: «اذهب، يا وجه الشؤم!».

ولا يلتفت رضوان لأبو جميل، ويكمل سيره مغادرًا مدرجًا أن ذلك من تبعات الغضب والسكر، وقبل أن يصل إلى الباب يباغته أبو جميل: «احبس امرأتك، يا نطع، كي لا تفضحك في الشوارع بأسماء عشاقها».

يهتز رضوان على وقع الكلمات؛ ترتجف ركبتاه، وتلتف ساقاه ببعضهما بعضًا، ويمتلئ قلبه بالحقد والكراهية. لكنه يدير وجهه لأبو جميل، ويضحك، ثم يستدير ويحلف بينه وبين نفسه أن يذهب إلى أبعد مكان في الدنيا يمكن أن يكون فيه شفاء لكوكب.

يمشي رضوان، ويبقى أبو جميل شاردًا يفكر، ويسأل: «ما الذي منع بحر من قتل قنديل؟ أمحبته لسكينه جعلته رخوًا خائفًا؟ أم تراه عقد صفقة مع قنديل الكلب؟».



يحل الليل، ورضوان كلما رنت في أذنه كلمات العمدة؛
يتفادى النظر إلى عيون كوكب الزائغة، وبمرارة يقرر: «الزمي
الدار، ولا تخرجي».
- لا.

ويسمع أنفاسها مبهورة، كأنها تستعد للهرب من شبخ خفي؛
فيكرر: «الزمي الدار يا كوكب».
- اسكت.

ويحمل شعلة موقدة إلى حجرة الخزين، وهو يعي أن كوكب
التي يعرفها غائبة، يتلبسها جن. ويفكر ربما تتنكر تلك الجنية في
هيئتها لتشاركه الحياة في الدار، وأخافته الفكرة فأمسك بكوكب
ودفعها إلى حجرة في عمق الدار ذات باب ضيق منخفض وبلا
نافذة، وهو يخبرها بأسى: «العمدة يعايرني بك، سامحيني».
ويخرج مغلقاً الباب وراءه بالترباس. ومع اقترابه من باب الدار،
وقبل خروجه، يسمع صوتها وهي تغني أغنية فرحة بصوت
حزين؛ فيهمس بقلب ينفطر: «يا حبيبتى يا كوكب».

13

الجليلة فوق كرسيها الخشبي، كأنها منفلة من قبضة الزمن،
بوجهها تحدّ، وبقلبها ترقب، وعلى شفيتها تتممات، والناس
-غرباء وأهل- يقبلون عليها، يلتمسون الدعاء، فتدعوا لهم
ولتاج شمس، ثم تهمس: «لكل شيء أوان!».



الشهور تتوالى، وأبو جميل ينتظر عل وعسى أن يفعلها بحر!
وعندما مر عام ونيف؛ تيقن أن رقبة قنديل لن تُمس. لعن بحر
وسبّه أمام رضوان في نوبة سكر، ولأن رضوان يكره العمدة
ويخاف من بحر؛ لم يرض لبحر أن يُسب، ثم إن بحرًا سب هو
الآخر العمدة وتوعده ثم قال بأنه حمار لا يفهم! ولأن رضوان
يخشى العمدة ويتصرف كذئب؛ لم يرض لأبو جميل أن يُهان.
رضوان يقط، يكتم في قلبه لوعته على كوكب، ويداري حنقه
على أبو جميل!



حياة كوكب غائمة بين اليقظة والشرود، تقضي شهوًّا في
الجبور الذي ينقلب إلى غم وبكاء عظيم، هي ورضوان مؤمنان
أن سحرًا أصابها، وفي أيام اعتلالها؛ يحلف رضوان بأغلظ
الأيمان أن يحضر لها من يداويها، يتنصت بحنق على أسطورة
الميت مع النساء، ويؤخذ كلما ذكرته كوكب في أوقات الشرود،
بأنه سبب سحرها!

رضوان لا يكف عن السؤال. يذهب بعد مشورة الخفر،
إلى الثعلبي، ذلك العراف الذي جاء من بلد أبو جميل؛ بهالة
وشهرة تؤكد قدراته الفارقة، ظل الثعلبي لفترة طويلة يهمس
في أذن كوكب بتعاويذه، ويلبسها حجابًا ويختلي بها، فتخرج
بعد الخلوة شبه رائقة، ويخرج هو واهنًا متعرقًا، ولا تمر شهور
حتى يمسك بها الشرود ثانية، وتخرج من الدار هائمة ويرجع بها
رضوان حزينًا، يسب الميت في سره!



الميت قصة تهمس بها الشفاه، بطلٌ تائهٌ، يضع قدمًا بفتحة
قبر، والأخرى بيئر امرأة، يتقلب فوق جمر غواية اللذة إلى جمر
السر العصي، وكلما تألم؛ يصرخ داخل طلسم سجنه الذي لا
باب له ولا شباك!

في عز صمت الميت يتذكر الكتاب الواسع، وخليل فوق
أريكتة العالية يحكي: «الموت بهي يرتدي البياض، الزمن تحت
قدميه؛ يغمض عينًا هنا، ويفتح عينًا هناك، وسره يظهر لمن جاء

دوره، يمسح صدر من يريده فيأمن ناظره ويطمئن قلبه، يوصل من كان معه إلى طريق النور ويرجع وحيداً! كل الناس لهم عنده زيارة إلا إنسي يقابله ليكون خليله، ولا يدري الميت كيف فتنته الكلمات فانسل واقفاً، يصرخ، وسط عيون أقرانه الداهشة: «أنا خليله. أنا صاحبه!»، وخرج يهرول متمرداً.

ظل أقاربه يفتشون تحت خيمة الظلمة عليه. شرقاوية تنوح، وهو يسمع ويختبئ، حتى باغته قنديل في مخبئه ناصحاً: «نذهب إلى عطية الكاتب، يا ابن المجنون، يشفيك أو يريقك أو يقلبك كلباً على باب الكوخ. هيا، يا ميت!».

ذهبا، وكان الطريق رهبة، والصحراء تيهًا مخيفًا، والجبل صامتًا مقبضًا، وصوت عطية يستقبلهم: «تعال، يا ابن شرقاوية. ادخل، يا قنديل».

ويرفع عطية وجهه، وهو يستمع إلى رجاء قنديل: «اشف الميت، يا شيخ. أمه مفطورة عليه».

- بركاتك، يا قنديل!

- سامحك الله. أفسخ مني، يا شيخ عطية.

ويتنفض الميت من تذكره المعاد، وهو يتمتم سائلاً نفسه بحزن: «لِمَ اصطفاه، وتركك؟!».



الأعوام تتوالى، وفرحة تكبر وعقلها يتيقظ، ويعلمها من هي أمها ومن زوجة خالها. تبتعد الكلمات الطيبة عن الحقائق من حولها، تضحك أحياناً، لكن أتراحها ترقد تحت جلدتها، تنتظر حكة، لم تنس مختار، لكن لماذا لم تنسه؟ سؤال يراودها! أليعيونه الحزينة التي تشبه عيونها؟ أم لذكرياتهما التي كلما ابتعدت حَلَّتْ؟ الحق أنها معجبة به، وبصلايته التي كان يرد بها المسيء، وفي أحلامها تراه سندها ومخلصها من همومها إن رجع، تذكره طوال الوقت، تأسى لبعده، وتنتظره بأمل راسخ.

ترعى فرحة دار الجليلة، تنظف أمام الدار، وتملاً الأزيار، تطبخ وتخبز ولا تنسى أمها؛ تذهب إليها بالطعام كل يوم. لا تأكل سكينه إلا من يدابنتها، فرحة تحلم أن تنتقم من بحر أبشع انتقام، لكنها ترتعد -كما أمها- من عيون المخبئة إن لاقته خارجاً أو داخلًا! سكينه ترفض رجاء ابنتها أن تبيت معها في الدار؛ مخافة علة ابنتها من بحر. تقسم سكينه للناس أنه قاتل زوجها وابنها، فيؤخذون، بعضهم يشلهم الخوف، ويهمس آخرون لها: «اشتكيه إلى العمدة!».

فرحة تكبر، وقلبها ما زال يخفق مع القادمين من المرسى. ذكرياتها مع مختار وشم عصي على المحو، يقف على تخوم اللهفة والحنين. تسترجع طفولتها معه، كيف صعدا معاً إلى السماء فوق حصان القش؛ فتشبه عيناه اليتيمتان اللتان تركهما في قلبها حزناً؛ وتهمس نفسها: «لا نصيب لك في اسمك، يا

فرحة!». ويأتي خالها خليل من سفره بلا جديد، غير هداياه، تزيحها جانبًا وتستقصي منه الأخبار، و خليل يحكي لها، كما يحكي للعاملين على المراسي، الذين صاروا يعرفون حكايته وسؤاله عن ولده الضائع ويتأسون عليه، تستمع فرحة بحزن، ولولا ملامة أمها والجليلة؛ لطلبت بنت الثانية عشرة أن تشارك خالها السفر والبحث.

تعاظم هالة بحر، ترتعد منه العيون وتخشاها، ويمسي توقيره فرضاً، يزداد تجمع من اشترى قرابتهم حوله، يعامل الجميع بود، مخفياً وجهه المتوحش المرعد، تجلس سكينه شاردة يائسة، تلف حجرات دارها بموقد البخور؛ تدعو على بحر الذي يكثر أنصاره، ويرتعد كارهوه بنظرة منه!



الأعوام تمر، حسونة وجعفر توأمان يكبران، جعفر يميل إلى هدوء والده، والرضى بالموجود، أما حسونة فممتلىء بنقمة ساخرة على كل شيء.

لا يخضع جعفر إلى نزوات أخيه، ينصحه فيرفض النصيحة. دائماً ما يتحول طيش حسونة إلى جنون، في جنح الليل يتنقل عبر الأسطح المتلاصقة للخفر، يسرق البيض من الخزائن والأعشاش، يحمله إلى دكان البقال ليبدله بما يشتهي!

في غير الليالي القمرية؛ يتنقل حسونة فوق الدور؛ يتمدد على بطنه وعينه تتجسس وأذنه ترهف السمع وبسبب ما رآه عند

الخفر من فضائح؛ أصبحت كلمة العيب التي يتجحون بنطقها أمام الناس دون معنى في نظره، وصارت الحياة كلها في عينيه لعبة اختباء، يفوز بها من يمكر.



السر يتنقل من فم إلى فم، حتى يذاع في البلد كله، بعد أن كان همساً بين النساء في جلساتهن المغلقة: «من يدخلها الميت تُجن!».

فبعد عدة أعوام تجاوز الأمر كوكب؛ ولم تعد وحدها من تهرب من أشباح ليلها، وتنوح في الشوارع بالأسرار. لحقت بها أخريات، فلا يمر العام إلا وتمس واحدة، أرملة من غرب البلد، وعانس من شرقها، ومن وسطها ثلاث، لتتلق التحذيرات بشبه يقين: «حذاري من الميت».

امتنعت بعض النساء عن الاقتراب منه، وبإلحاح الغواية لم تصدق الأخريات! حزنت سيسبان، ولم تستطع مفاتحة الميت في الأمر، سكتت، واستمعت للنصيحة فحاولت أن تسد جوعه للنساء؛ بكل ما تملك من طاقة، حتى تيقنت أنها مهما صنعت لن تكفي ذلك المارد الجائع، الذي لن تكفيه كل نساء البلد.



كوكب تباغت رضوان بشroud طويل، وبغناء حزين جعل رضوان يكاد يبكي، ويذهب كاتمًا لوعته إلى الثعلبي الذي يبرر

عدم شفائها؛ بأن جنياً عنيداً يسكنها، وطلسمه بيد ساحر شهير
يسكن أقصى الجنوب!

يمشي رضوان شهراً بعد شهر، حال خروجه من البلد حاملاً
رسائل من العمدة؛ يسأل العرافين في البلاد الأخرى، يشرح ما
بكوكب، ويترجى علاجاً لحالتها، ظل يذهب ويعود بلا إجابة،
حتى أكد له عراف هرم ذو مهابة، نفس ما قاله الثعلبي، وزاد عليه
أن الساحر من قبيلة «برنو» في الجنوب، واسمه أوجا جلّمي
والوصول إليه صعب وشاق، فرجع رضوان مرغماً إلى الثعلبي
بعد أن أقسم ألا يعود له! يختلي الثعلبي بكوكب، ويتفنن في
رسم نقوش فاضحة على صرتها وعانتها، متوسماً أن يكون فيها
الشفاء!



الأعوام تفر، وأبو جميل ينحل جسده، ويتسع بغضه الخفي
لبحر، وبحر يدرك ويضمّر لأبو جميل الكثير من التوجس
والحذر، تجمعهم المناسبات فيدخلون ويشربون، يتحدثون
قليلاً، وما بالقلوب تكاد العيون تفضحه. تسرب إلى قلب أبو
جميل خشية خفية من قنديل، فكلما فشل من يرسله لقتله؛ يتجلى
له قنديل في لحظات الشرود، يضحك ساخرًا، ويلكزه في نفس
المكان القديم، فيشعر أبو جميل بوجع حقيقي يؤلمه وبكدمه
زرقاء في مكان الضربة المتخيلة! مرة إثر مرة، حتى امتنع أبو
جميل عن المجاسرة بإرسال آخرين، واكتفى بسب قنديل في

لحظات هياجه، وقد رسخ بقلبه، أن الاقتراب منه مهلكة له، وبدا له أيضًا أن للقوة حدودًا، وللبلد عرفًا وناموسًا لا يمكن تجاوزه، وللجليلة سرًّا خفيًّا مباركًا، أكبر من أن يفهمه، فارتضى العيش في رغد ما هو فيه، وتقلصت أطماعه، وانصبت شراسته على الشراب والنساء، وأحزانه على ابنته المخبولة، وعلى أولاده الذين يجهضون في بطون أمهاتهم، حتى راوده ذات يأس أن يبعث بمرسال لقنديل، يقاوضه بأي شيء مقابل دعاء مخلص منه، لكنه تراجع، فأخذ يطلق نساءه، ويتزوج، يعاشر وينتظر بصبر ولدًا من صلبه يرثه، بعد عمر طويل.



عبيدة يدعو أن يحفظ الله ابنه، وأن يأتي يومه عندما تخور همته وترتجف كفه. بصدر جعفر ما بصدر حسونة، حسونة يعلنه بطيش أمام الناس، وجعفر يخفي كراهيته للخفر والعمدة في صدره، جعفر لا يحب المزاح، وحسونة ابن حظ، يموت لو لم يضحك. رغم شارب حسونة الأخضر ما زال يتشاجر لأتفه سبب، ويتلصص في الليل على أسطح الخفر، يسرق البيض، يأكل ويوزع الزائد في الخفاء على المحتاجين، رغم طيش حسونة إلا أن الناس تحبه، كبارًا وصغارًا، حكايته المضحكة؛ تهون شقاء حياتهم الصابرة، يتقمص حسونة دائمًا دور البطل. يسأله أحدهم -وهم عكوف يجنون المحصول- عن جديده، فيرد حسونة متصنعا الرزانة: «ليس عندي جديد». فيغمزه

أحدهم، ويقول: «احك، يا حسونة»؛ فيلتفت حسونة برأسه كي يطمئن لابتعاد والده، يحكي عن خسة قفز من قلب أوراقها عفريت وعفريته صغيران وعريانان تمامًا، فلما ضحك ساخرًا من عريهما؛ إحتقن العفريت وأخرج سيفين من خلف ظهره، مد أحدهما قائلاً: «بارزني يا حسونة». وفي اللحظة التي أوشك أن يفوز فيها حسونة ويطعن العفريت؛ يضربه عبيدة على غفلة، قائلاً: «يا واد يا حسونة يا نتاش اشتغل!»؛ فتعلو ضحكات الفلاحين الذين تؤانسهم حكايات حسونة الملفقة، وتنسيهم أوجاعهم.



فرحة - بنت السادسة عشر - تتلمس أنوثتها ولا تأبه بالفتيان المأخوذين بخفتها وجمالها، حسونة وجعفر، وكذلك مبروك الميت، وغيرهم كثر. يعبرون أمام الباب، يتملونها في صمت، لكنها لا تلقي بالاً بأحد، غارقة في حياة من أحلام رائقة، مختار بطلها، تحلم وهو يصعد بها إلى السماء، أو يركبها خلفه فوق حصان أبيض، يسابقان الريح ويضحكان.

خليل يسافر بشوق ويعود بخيبة، ونجاة تسأله شاردة عن عودة ابنها الغائب! والجليلة على كرسبها تراقب السحب وتجبب بالأمل، وعبيدة يزرع ويحصد، والناس تأخذ ما تجود به الجليلة وتحمد، وحسونة يتلصص ويتشاجر، وجعفر ينصح به ويصبر، ومبروك يسب أباه في سره، والعمدة يشيب ويسكر،

ويهيئ حين تجهض زوجاته، وبحر بعوده الضامر؛ يُنفذُ أمر القدر في رجال خارج البلد، وعند رجوعه يتلصص مفتوناً بسكينة، التي تقضي نهارها صابرة تحلم بالانتقام، والميت تعلو أسوار سجنه في عيونه وتتفرق الكثير من النساء عنه خوفاً، وشرقاوية تدلل حفيدها مبروك الذي كبر، وسيسبان لا تدري ماذا تفعل مع زوجها الشبق؟ الأيام تتشابه، والعمر يمضي، والبلد مستكين، لا شيء جديد يحدث فيه، وكأنه في غفوة طويلة من أعوام تتابع وتنقضي دون تغيير!



كوكب في لحظات إفاقتها؛ تمحو كل ما يحدثه شرودها من أثر، تأكل مستردة جسدها الذي شحب، تحني شعرها، وتحمر خديها، وتكحل رموشها، وتهب رضوان ليلة هنية، فيطمع رضوان في أن تصبح كل الليالي هنية، لكن لا يمر شهرٌ أو اثنان؛ حتى تغيب في شرودها المُعذَّب، فيغتم رضوان ويعاود السؤال بحماس عن ذلك الساحر الذي بيده شفاء كوكب، فيحكون عنه؛ ما يعجز العقل عن تصويره. أقلها أنه يرمي بالحبل في الهواء، ويصعد عليه كسلم، وأنه يتخذ جذوع النخل وسيلة تطير به من مكان إلى مكان! لم يترك رضوان أحداً من أصحاب المراكب حتى سألته عن أوجا جلّمي ومكانه، فيخبرونه بمشقة السفر واستحالة الوصول، لكن إصرار رضوان لم يلن، حتى تعرف -بالمصادفة- على تاجر، جاء في زيارة أبو جميل، فأخبره أنه

يذهب إلى قبيلة ذلك الساحر مرة كل عام بغرض التجارة معهم. وبعد إلحاح يوافق التاجر أن يحكي لأوجا تفاصيل ما حدث لكوكب؛ ويعود التاجر بجواب أوجا القاطع: «شفاء كوكب في جلسة».

يطلب رضوان من التاجر أن يصف له الطريق، وأثناء الشرح يتوه رضوان ويقر بعجزه عن الوصول. وفي زيارة التاجر التالية للعمدة؛ ينفرد برضوان ويخبره أن أوجا بادر بأن يعرج إلى البلد ويزورهم ليشفي كوكب، لكن دون خمسة جنيهات ذهب لن يأتي. ثم أخبره التاجر أنه حال الموافقة، سيحمل الذهب لأوجا عند زيارته المقبلة. رأى رضوان أن المبلغ نصف ما يمتلكه من ادخار سنين، فجلس حائرًا بين تبديد ما ادخره وبين شفاء كوكب، وفي ليلة من ليالي شرودها، أحرق قلب رضوان الوجد، فأخرج الجنيهات من مخبئها وصرها في كيس، منهيا تردده. سلم الذهب للتاجر وظل يترقب، حتى جاء التاجر في زيارته للعمدة، وأخبر رضوان بمقابلة الساحر الذي أخذ منه الذهب، وأعطاه ورقة، مؤكداً إحضار ما بها من طلبات. وعندما سأل رضوان ببشر: «متى يحضر أوجا؟»، أخبره بأن الساحر رفع رأسه إلى أعلى وأجاب: «عندما تأذن النجوم للماء!». خفق قلب رضوان توجساً، وهو يمسك الورقة، ويقلبها بين يديه بدهشة، ثم يعيدها إلى التاجر ليعلمه بما فيها، لكن التاجر ابتسم وأخبره بجهله لتلك اللغة التي كتبت بها الورقة. حفظ رضوان الورقة

في جلبابه، وظل يدور على الناس، علَّ أحدًا يعرف تلك اللغة فيخبره بالطلبات المكتوبة كي يحضرها، وكلما كان الوقت يمر كان شك رضوان يتسع في أنه قد تعرض للنصب، وأشيع الخبر، فأصبح يوم مجيء أوجا؛ طرفة يحكيها كل شباب البلد، وردًا ساخرًا على كل أمر لن ينفذ! ورغم شك رضوان؛ فإنه كان يحلف لكوكب أثناء شرودها أن أوجا سيأتي في يوم قريب ويشفيها!



ينظر خليل إلى نفسه في المرأة، ويرى أنه قد شاب ونحل، ويتعجب كيف انقضت خمسة عشر عامًا، منذ هروب مختار، يتذكر اليوم البعيد، ويشرد في تفاصيل حياته، ويعد خساراته المتتالية، يحن للسفر، وكأنه لم يبق له غيره. ينهض بأوجاعه، ويحزم صرته، يودعهم ويقصد المرسى، حزينًا على نفسه لأن الحياة غلبته، فلم يستطع التصرف معها بحصافة رغم ما حصله من معرفة، يمشي منهكًا حتى المرسى، وفي المركب تغمره راحة ويشمله خدر ودفء، يرى حاله يتبدل، وقلبه يصفو وهو وحيد صامت يكلم نفسه. يتكىء برأسه على الصاري، يرقب نزول الليل. السكون يسود، والناس يصمتون والظلمة تشتد، يتملئ السماء ويتمتم: «الآن»، وينظر إلى القمر، ويدنو المركب إلى جسر ويرسو، ينزل الركاب يرفعون صرر أمتعتهم، يتفرقون على الجسر، يذهبون، وهو باقٍ مكانه ينتظر الصبح؛ ليستأنف الرحيل.

يستنكف خليل أن يقر بأنه يبحث عن سراب؛ فالولد حتماً
قد غيره الزمن. كبر، وزاد طولاً وعرضاً، وتبدلت تقاطيع وجهه
التي تحفظها ذاكرة خليل. وربما لو قابله وجهاً لوجه ما عرفه،
فعمَّ يبحث خليل؟!!

خليل يأتس بالقمر، ويسترجع وجه أنس وتبسمها، وكيف
كانت تطرح عنها كل أسى ومرارة، رغم سابق عهدها مع الشقاء
والفقد، يرى طيفها يرقص كما رقصت في ليالي السمر، وصفية
تنقر لها وتصفق وهي مستغرقة بحركتها الرشيقة اللينة وتثنيها
الأخاذ، مرة يرى خليل الدنيا أبسط من أن يحمل البشر همها،
ومرة يراها ثقيلة وبلا معنى.

يجهر الفجر بنوره، وتستيقظ الحركة على المركب،
ويخوض بعد انتظار في الماء، المراسي كثيرة، والليالي طويلة،
يبتعد خليل عن الناس وصخبهم، يتخيل مرسى البلد، ويرى
الجليلة تجلس على مقعدها، فيودعها كأنه يودع الدنيا!

الرياح هامدة، والأشرعة منكسة على صواريخها، والهواء
ثقيل عصي، والقيظ يشتد، وأكوام الناموس تغير على صفحة
النهر كجراد لاذع، يحس خليل بلدغه، وبعد وقت يقهره ضعف،
وتضربه حمى ساخنة كجمر حارق، العرق البارد يتدفق على
جسمه المرتعد، يتخيل موته، وكيف سيلفونه في كفن ويوارونه
أقرب مكانٍ لأعينهم على اليابسة، ويمضون بالمركب إلى
مرساه، فلا يعود من ذكره شيء، وينعونه في البلد، ويحزن

بعض الناس لوقت، ثم يُنسى اسمه، حتى يحمله شقي آخر،
يمشي بنفس التيه، ويعيد نفس الأسئلة، وتضرب رجعة الحمى
خليل، فيهمس: «في الموت راحة».

جسد خليل واهن يرتعش وجبينه قطعة جمر، والمركب
في عرض النهر، يسقونه ماءً مغلياً بعشب، فيتقيؤه. ومن كانت
له خبرة جلس يطببه قائلاً للناس: «وحدوا الله»، وطلب منه أن
ينطق بالشهادتين!

ينحرف مركب تجاه جسر خرب مهدم، ليلتقط من عليه
بتناً تلوح بغصن أخضر، تصعد بخفة وسط شغف عيون تتملى
حسنها، تمشي بين الناس، وتقترب من خليل، ترمي صرة ملابسه
إلى قلب الماء وتهمس: «كفاك سفرًا، هيا».

ويفتح خليل عينيه المجهدتين، وهو يهمس: «صفية، أين
أنت؟». ويشعر بنسمة تهف على خده، وابتسامة شاب يمسح
جبينه من العرق.

- بالخير نرجع بالمشيئة!

ويحس خليل بكف الشاب تلف رأسه بقماشة مبتلة، وتعطيه
ترياقاً. يتلفت مبصراً ما حوله، ويرفع جفنه الثقيل فيبصر وجهًا
لفتي بشارب كث، وخلفه السماء بيضاء، فيهمس بوهن: «كأني
أعرفك!».



من فوق مقعد الجليلة العالي، أبصرتهما وسط الغمام؛
يقبلان من المرسى ويصعدان الربوة. رجل هزيل مهود، يتكى
على ساعد شاب عفي له بسطة بدن لافتة. ابتسمت الجليلة،
وهمست بيقينها الذي لم يتزعزع يوماً: «لكل شيء أوان».

خليل رجع حُرًا، رغم هزاله ووهنه، وقد ارتاح أن الله وفي
دينه، وأرجعه بالولد. ومختار عاد رجلًا بشارب كث وجسد
صلب، له بسطة وبطش. ينحني مختار ليقبل يد الجليلة؛ فتبتسم
بقسمات طليقة، وعلى ثغرها تمتمات لا تُسمع، وفي عيني
مختار حجل.

يسط لخليل خرقة الصوف الثخين على المصطبة، بجوار
كرسي الجليلة كي يرتاح. يفرد خليل ظهره ويتمدد بطوله
مهودًا، لكن بقلبه شيء كالخلاص. والوصول يُنبئ في قلبه
شيئًا كالسكن، والسلام يُظله، وتتعلق عيونه بالطيور تسبح في
السماء الرائقة، وحمام الدار يحط جوار رأسه ويهدل؛ فيسبل
جفونه على عيونه ويتنفس.



نجاة ضربها الرهق والشيب قبل مواعده؛ ظلت تتفرس في
وجه مختار، لا ترفع عينيها عنه، مدهوشة تتساقط دموعها حينًا،
وأخرى تهول بحبور إلى مختار، تفتح ذراعيها وتضمه، وتمسك
برأسه وتشم شعره وتلثم جبينه وخديه، وبصوت يتهدل ويرقص
فرحًا تنادي فرحة ذاهلة: «يا صفية.. مختار رجع يا صفية!».

14

في أول ليلة له في بيت الجلييلة؛ ينسل مختار من الجمع الملتف حوله، يدلف إلى غرفته، ويغلق النافذة بمقدار يسمح للنسمة بالعبور، ويحبس ذلك الوجه المتوهج للقمر، ويقوم من فوق فرشته أكثر من مرة؛ ليضبط النافذة حتى تلاشى كل ضوء أحس أنه يراقبه، فرد جسده على فرشته، مسندًا رأسه على براح كفيه، مستسلمًا لهماهمة قلبه الذي أوشكت أن تنفلت منه آهة شرسة:

بعد هروبك من خليل؛ رجعت، يا مختار إلى بلد أمك الهالكة، تمشي في كل شوارعها، تنادي بحلق مر وصوت يتحشرج ويبكي: «أمي يا أمااا».

وصدى صوتك يرد عليك ويتكرر، تهت في أفكارك: «ماذا تصنع؟»، وكرهت الرجوع منكسرًا، ووجوه الناس -أقارب وغرباء- تتشفي فيك، فأقسمت ألا تعود! ورجعت مبهورًا بالبلد الكبير، الذي لا تُظلم مصابيحُه ولا ينام أهله، وقد خُيل إليك أنه لا ليل له، حتى أدركت أن العتمة فيه أكبر، ومع صباح كل نهار أعلمك أنه بلا قلب، لا يرى ولا يسمع، البلاد الكبيرة جاحدة

صخرية، أغلب أناسها يدهسون قلوب من لا سند لهم. يأكلون لحم الذي بلا أهل ولا عزوة، ويستعبدون الذي لا مال عنده، في البلد الكبير كلُّ شيء يُباع، لا شيء بغير ثمن؛ قوة الرجال، ولحم النساء، ونداوة الصبيان. والأموال هي رخصة السلطة والمناصب والنفوذ فتنة البلاد الكبيرة وفتنة الدنيا والزمان.

مع أول ليل لك في البلد الكبير، يا مختار؛ رأيت الدنيا وحشية؛ جفاف يكلس الحلق، وشهقة وجع وأدركت أن من أكبر النعم أن تكون لك جدران تأويك وسقف يظلك في سكن تأمن فيه، لترتاح وتغمض عينيك هانئ البال.

ثلاث ليالٍ، يا مختار، تمشي وحدك شريدًا فردًا، والليل وحشة، والعمة متربصة بالخطر، والبرد يلسع كالنار، ويضرب العظم. ثلاث ليالٍ، والجوع يأكل جوفك، والغربة وجع ومذاقها مُر.

تجر جر جسمك بالتعب والآلام والبرد والجوع إلى رُبع الرئيس سليم»، تلصق ظهرك الذائب المنهك بزواية جدار، تخبئ من الخلاء ونصال رياح الشتاء السموم، وترى نارًا ونورًا في ظلال الجدران، يستدفي حولها حلقة من صبيان يأكلون شيئًا كاللحم المدمم بجلود مشعرة متهدلة تقطر بالدهن، ويغنون بغلظة وزبيطة: «يا باشا، يا عين القملة... مين قال لك تعمل دي العَملة؟»*.

وتكورت تحت جدار، تخبئ رأسك من الصقيع. وليل الغريب طويل وصباحه بعيد. وتذكر يا مختار، لكن، والله، تود

أن تنسى. لكن أبدًا لن تنسى ولن تصالح، والنهار الرابع يجيء على بدنك بدفء شمس الشتاء، فيسخن دمك، ويجري بالعروق صراخ البطن، فتقوم تسعى حتى تتسمر أمام بسطة طعام: خبز طازج فائح، تشتم طيب رائحته، وطبق جبن أبيض طري، وفول عائم في الزبد، ويبيض مسلوق محمر، من غير الإمكان أن تتذكر إلا وقوفك أمام أرض الإسطبلات، وباقيات السيد مراد، التاجر، يلكرزك سائلًا: «اسمك؟».

... -

وحلقك جاف، وبطنك خاوية تعض لحمها.

- يا ولد... ما اسمك؟

وأنكرت اسمك يا مختار.

- من أين؟!

وعيناك جاحظتان، ولعابك يسيل من فمك، وتصرخ معدتك. لا تقدر أبدًا على رفع نظرك عن الطعام. ويقبض السيد مراد على رغيفٍ لدن كبير، ويلقي به بين يديك: «اجلس، وكُل».

ويقوم عن طعامه لتأكل الفضل. تتذكر، يا مختار: آواك الإسطل. علقت للخيل، ونظفت مبيتها، وحممتها، ومسحت روثها، وحملت الأقدار والوسخ، وأثقلت على كتفك وظهرك. تعبت أكثر مما يحتمل صبي. عركت التعب وقلة النوم وانعدام الراحة، وشُتمت بعرض الأم، وشرف الأب، فقط كي تأكل

وتسند بدنك وظهرك إلى جدار تنام في ظله، والليالي تنقضي،
والنهارات تمرُّ، ويسر لك الله المشقة وتعتاد، يتقدد وجهك
وتغلظ عظامك، ويشتد جسمك ويتعضل، ويخشن جلدك،
وتتخشب راحتك، وتقوى ضربة ساعديك.

وفي ليل بلا برد ولا ريح، تلف جسمك بحرام خشن ثقیل
في ظل جدار، وتحسهم فوق رأسك، وتذكر الصوت المقرق:
«اخشع، يا ابن الكلب».

ونزعوا من فوقك الغطاء، وامتدت أيدٍ كثيرة تُمزق قميصك.
تحاول... وتقاوم... آه، يا مختار كسرتك الكثرة؛ ضباع مسعورة
تنشب وتنهش، وأنت عار، أعزل وحيد، كما ولدتك أنس للشقاء.
وتذكر السباب البذيء. تود لو تذوب ذاكرتك بماء النار. والغريب،
يا مختار، أنك لا تتذكر إلا ما تود بكل روحك أن تنساه! ذاكرتك
سوداء كالثعابين النهاشة الغادرة، تقفز في أي وقت وفي كل مكان
تلدغ وتبخ السم في هناءتك وراحتك، في غفوتك وصحوتك.
والسم حارق؛ فكم هي غائرة جراحك. والليالي تنقضي، والنهارات
تمر، والمرارات ثقال، حتى تسأل: «أفي الحياة بهجة؟ ألها فرحة؟
أبها لذة؟».

ثم ماذا؟ وليل جاء، وأنت بنفسك، يا مختار، فوق ظهر
أحدهم تُعريه، وتطرح كف، وينهرك صوت جهير: «اتق الله!».
وتفر فريستك، وتمتد يد تلمس كتفك: «اهدأ، وصل على
النبي».

وتضع رأسك بين ركبتيك وظهرك متقوس ترتعش وتكتم
البكاء. الانتقام له طعم كريه، يشتعل بالقلب حارق كالنار،
يجلس جوارك، ويبسط الصوف يغطيك، ويؤنسك: «اسمي عبد
الجليل». ويتبسم.

وخبرت أن العيش لا يطيب بغير أخ صاحب صديق. جاء
عبد الجليل رحمة من الله لك، يا مختار، ابن الفلاحين جاء من
قرية جنوب النهر ليتعلم في الجامع الكبير بطول كل البلاد
وعرضها، والذي حدث معه في هذه الدنيا المعجونة بالغرابة،
أنه أحب أحد شيوخه لشجاعته في الحق، ورفضه للجور.

وذاث يوم دُبرت مكيدة؛ مشادة كبيرة انتهت بعراك، وبقلب
العراك يُنال من شيخه حتى يجيء العسس، وتنزع المهابة
والكرامة، رأى الجند يأخذون الضحية دون الجاني، تمزقت جبة
شيخه، ونُزعت عمامته، وانفرط شالها على الأرض، وديست
بالأقدام؛ فضرب الدم عروق رأس عبد الجليل، ونفر ما بين
حاجبيه عرق دم النخوة، وما درى إلا وجندي مجندل تحت
قدميه. ولملم شيخه حاله، واستتر بظهره وهو يزود عنه. ولما
انفض الجمع، وتبين الحق، كان هناك مقتول وقاتل، وهرب
جليل، مضى في الإياب إلى قريته. وعلى تخوم بلده، كان النذير
ينتظره ويحذره: إنهم يكمنون في الديار.. فقَبِل ابن خاله، وَحَمَلَه
السلام لكل دمه، وفر. وأمسى طريداً مطارداً، لا سكن ولا أمن،
يغير مأواه دوماً لحظة أن يشتم رصدًا، أو عينًا تتبعه.

وفي إسطنبول الرئيس سليم؛ كانت الرفقة، ولأن جليل له عزوة وأهل يرسلون إليه المال سرّاً؛ اشترى الأمان. آوتكما غرفةً ضيقة، لكنها طيبة الريح ونظيفة، ويكفي أن لها باباً يقفل عليكم، وصار بينكما عيش وملح وأخوة وعهد، لكن تبقت غصة جليل وتوجسه من كل غريب قادم، في زوايا الحجرة يراكم كتباً ثقيلة يجليها، مغرمًا باقتنائها، لكن عبد الجليل نوام، أما أنت، يا مختار، فليلك طويل والضوء كافٍ والأنس طيب وفنتت بالأوراق.

نهارًا تكون أنت رئيسه، ومع الغروب يكون شيخك. صحح لك جليل ترتيل القرآن، ومضيت تقرأ وتكتب وتحفظ آيات الله، وجودت معه النحو والصرف، وصرت في الليل تفتح الكتب الثقيلة الكبيرة، وتتخفف من أثقال ظهرك، تسبح بعيدًا عن شقاء النهار وأعين البشر، وأدركت أنك أفطن من صاحبك الذي يحفظ ولا يفهم! ورأيت ما لم تراه من قبل، ذات يوم مشمس، وسط الساحة الهائلة المفتوحة أطرافها على طرق فسيحة ممدودة، رأيت، يا مختار، رجالاً دراويش، متلاصقة أجسادهم على طول الشارع، وجوههم إلى الأرض وأذرعهم تحت جباههم، وشيخهم فوق حصانه مزهوًا يمشي على أجسادهم. المؤمن من يحتمل الوجد، وقليل الإيمان من يصرخ بالآهة، وفي الشارع الآخر رأيت زفة بهية لم تر في الحياة لها نظير، يمثل بها الجمع من أرباب الحرف والصُّنَّاع على عربات، لكل جمع طائفة وعربة يمثلون عليها هيئة صناعتهم والشغل فيها، حتى القهوجي بآلته

وكانونه، والحلواني، والفطاطري والحباك، والقزاز بنوله. والملاعيب والرقاصون، وأصحاب العافية يحملون سيوفاً من خشب ودروعاً من صفيح، يتبارزون عند رأس كل شارع كما الفرسان، وأصحاب الخوارق يثقبون أصداعهم ليمرروا خيطاً يشدونه طوال سيرهم.

وبعد كل هذه الزينة، موكب عظيم للأغوات والحريم والمحتسبين. وفي قلب كل هذا الصخب، هودج لعروس على عربية من صناعة بديعة عالية مزدانة فائقة الجمال، وراءها جند، ووراءهم رجال سود عماليق، ممن يلبسون دروعاً من حديد، حيث لا مكان لهم إلا للمصائب والخراب ودماء الحروب، وأنتما منبوذان وسط كل هذا الصخب.

تتجمع مصائب الدنيا عليكما، والناس يلهون بزيبتها، وأنت رأيت وحدك، يا مختار، تُجاراً كباراً يقبلون بزهوهم، وتمضي الأيام فيخسف بهم، ويضربهم البؤس والشقاء، ويصبحون عمالاً بما تبقى من عافية لتجار جدد في عمر أولادهم، ورأيت فقراءً مُعدمين ينزلون شعناً غبراً، يشدون لقماتهم بكد وعرق ليغمسوها بحصى الملح. وتمضي الأيام، ويتبدل حالهم، فيمتلكون مالاً وتجارة. يُوقرون ويخطب ودهم ويُطلب رضاهم، وهم أُمكر من الدهاء، وأحوط من اليقظة، صاحبت منهم سليماً، ومن وراء عين جليل، يكلفك بأعمال ومهام تشعل بدمك الغضب، وتوجع قلبك، وتؤرق نومك، وتُنكت ضميرك، فيجزل لك عطاياه ويستجدي ودك: «أنت سري.. أنت ذراعي».

والليالي تنقضي، والنهارات تمر.

أمسى لك، يا مختار، اسم جديد وصيت، وألفت الخسة،
وغدر البشر، وقبول المنكر.

تذكر، يا مختار، هذه الليلة، وأبدًا لن تنساها، ليلكما كان
طويلاً، لكن تلك الليلة انفتحت فيها عقل جليل، وانفجرت حيرة
قلبه عندما سأله ترى أين نذهب لو أطبقوا عليك؟! فنزع عنه
عمامته، وشد طوق قميصه يكاد يشقه، وانتصب يصيح، وصوته
يعلو ويعلو ويتلون: «أين نذهب ثانية، شمالاً أم يميناً، يا مختار؟
أنهرب ثانية؟ دعني في حالي، دعني أشكو لله بشي وحزني».

وإذا به يبكي، فتبكي.

وتمر الليالي وترى، يا مختار، ما لم تر من قبل، دمعاً محمراً
يقطر من ذقن لمستها الدموع فابتلت، وحلك سواد شعراتها.
تذكر، يا مختار، وعبد الجليل يبكي ويسجع: «وما علموا أن
البساط قد انطوى، وكلُّ قد ضلَّ وغوى». ويبكي. «وما علموا أن
الصراط واتبع الهوى». ويبكي. «وكلب الجور كشر أنيابه وعوى،
ولم يجد له طارداً ولا معارضا ولا معانداً فانبرى»، ويبكي!

وسمعت سليماً يغني: «إن كان بدك تصاحب حر، اسقيه
بعد الحلاوة المر. وإن لقيته للود القديم صابر، سبل رموشك
فوق عيونك، وقول: الصاحب الجد، ينفع على طول الزمن ما
يضر».*

والليالي تنقضي، والنهارات تمر، وترى، يا مختار، ما هو أسود من كوابيسك؛ سليم ليس إلا عبداً صغيراً مأموراً يعمل لحساب من هو أكبر منه، ولما تجبر وجاهر أنه كبر انقلب عليه الحال. ووطأتكم ليلة سوداء حين هجم على أرض الإسطبلات رجال مسلحون ملثمون، ولما فتحت عينيك كان حد نصل السيف على رقبتك، وأنت نصف عار. قُبِضَ عليك، وشق سليم أمام أعين الجميع نصفين. ذهب السيف من فوق حوضه مهشماً ظهره، فانطرح جزعه عن ساقيه، وتلفت تبحث عن عبد الجليل فلم تجده. وتقول لك نفسك: «خانك صاحبك وفر!»، لكنك تصيح تكذبيها: «جليل صاحب وفي!».

ورموك بقلب سجن تحت الأرض، لا تدري الليل من النهار، وسط أجساد رجال صَدِئِي الجلود من الوسخ، تتحزم جلودهم بالجرب، وتبرز عظامهم من الجوع، والليالي تنقضي ثقيلة والأيام تمر بلا نهار.

لسنوات لم تر نور سماءٍ، ولا خضرة زرع، ولا صفحة نهر، ولا لمس كتفك دفء شمس، لا شيء غير حديد الأبواب الصدئة، وحجارة الجدران المبرطشة بدم البق والبراغيث والعتة، ويبيض الصراصير وبراز الفئران في كل زاوية بحجرة لا تتسع لعشرة رجال بطولها وعرضها، تتداخل بها لحوم سبعين رجلاً وعظامهم، مشبوحين كالمسوخ، يأكل كل منهم نفسه، ينتظرون معجزة من السماء تحت الأرض، وذات يوم رأيت ناراً وسمعت

ضحيجًا وصراخًا وانفسخت أبواب الحديد، ونقبت الجدران وزحفت كأنك بعثت من القبور، ورأيت نور شمس الله؛ فسألت: «أين أنت، يا مختار؟ وماذا عليك أن تفعل؟».

ورجعت للربيع ورأيت أبوابه محطمة، والجند يقتلون الناس بالشبهة، تنقلت من هنا إلى هناك، وأنقذتك الأقدار، حتى أوصد البلد كل أبوابه في عيونك، ولما استبد بك يأسك قلت لنفسك: مت في بلد أمك! وركبت مركبًا، وعملت عليه شيئًا مقابل أجره ركوبك، وبالصدفة رأيت «خليلاً»، وتذكرت أن لك بلدًا، وأبًا ربما ما زال حيًا، فطبيت خليل من الحمى، وتأملت صنع الأقدار في رجوعك، وتعجبت!

أفق، يا مختار، وانفض عنك تذكر ما فات واسأل: «ماذا ستفعل الآن؟!».



النهار يتنفس نورًا ودفئًا، وتقطر السماء برقة ورهافة قطرات ندى الصباح، وأنت، يا مختار، لم تنم! لم تقول إنه ليس بيتك ولا هم أهلك. أفق، يا مختار، فأملك اسمها أنس ما عاد لها أثر، وأبوك اسمه قنديل عبد الله أمسى سيدي قنديل أبو النور! الكل كلمه وراه إلا أنت! أنسيت ما جرى؟!!

الآن، يا مختار، وأنت بين الجليلة والشاحبة نجاة، ترى صفحة النهر يعلوها ركود، ويكاد يقفل سريان الماء ورد النيل،

والطحالب لها رائحة العطن، أمست تفوح قرب الربوة التي تبدو لك الآن ضئيلة عن صورتها التي كانت مخفية في مخيلتك.

ها أنت وحدك، يا مختار، حرًا، فما الذي عليك أن تفعله؟! تقول: «أمشي»، فتمشي حتى تقف أمام دارك القديمة التي هابها الناس بعد الحريق، وتركت خربة بقلبها برك ماء آسن وقذر، يسكن فيها الذباب والهوام. فيتوجع قلبك، وتهمس بحيرة: «ابن من أنت، يا مختار؟ وماذا عليك أن تفعل؟». تنهد وتهمس: «لكل أول آخر، ولكل بداية نهاية». وتهتف: «يا رب، يا عالم بحالي، يا رب».

15

تنظر الجلييلة إلى السماء المطبقة على النهر الملتف كالأفعى؛
وتهمس: «ديبه قادم. أكاد أسمع صوته!».

ويسألها خليل الجالس بجوارها: «من هو؟!».

فتشير إلى غرفة في الدار ممتلئة بالحبال، وتدعو: «اجعله
خيرًا، يا رب»، ثم تلتفت إليه، وتقول: «حاذر!».

وتقبل فرحة فوق حمارة يسحبها عبيدة، تسلم على خالها
وتقبل يد الجلييلة، وما إن ترى مختارًا خارجًا؛ حتى تمد نظرها
إليه وتقف أمامه صامتة خجولة، فيمد كفه يسلم، ويحس كفها
دافئة ترتعش، وقد سرت فيها نشوة الذكريات، وبحلقها أسئلة
كثيرة: «هل غير مختار البعد؟ وهل كان يفكر فيها كما كانت
تفكر فيه؟ هل سأل القمر عنها كما كانت تسأل القمر عنه؟».
لكنها تبتلع أسئلتها، وتهزول إلى داخل الدار. يحمر وجهها من
الخجل، وهي تهمس لنفسها بكلمات محبوسة في صدرها.



قنديل هناك، فوق الجبل، شارد مع سحب يمزح في عبابه؛
فيظهر وجه يهمس له: «انهض».

يغلق قنديل عينيه ويفتحهما، فتهمس السحب: «هيا».

تضرب قلبه رجفة، ويحس بشيء يدفعه إلى أن يذهب بعيداً ليجمع حطباً، ينزل عبر مدقات الجبل، يلتقط بلطته، ويتخذ مساره، قاطعاً الصحراء حتى يقف على جسر النهر، عند نهاية حدود البلد من جهة الشمال؛ يقترب من شجرة كافور سامقة، تهتز أوراقها مع الريح، فيسمع صوتاً من داخله يأمره: «اقطعها».

مع كل ضربة يضربها في جذع الشجرة، يحس براحة، فيظل بصبر يضرب، والعرق ينفر من جبينه وصدره، وقبل الغروب تن الشجرة وتسقط في النهر، فيجرفها الماء مسافة قليلة وهي تتفزز حتى توقفها أحجار مرصوفة على جسر النهر، فتغدو تشارك الماء دون أن تتحرك من مكانها. يجمع قنديل بعض الحطب، ويرجع إلى كوخه؛ بقلب مرتاح وهو على يقين أن في الأمر أمراً.



في مربع خفارة رضوان؛ يقبل مبروك يركض متلهلاً كأن الأمر يخصه: «أوجا قادم، التاجر بعث للثعلبي والثعلبي أرسلني كي أخبرك لتجهز».

يتلهل رضوان، ويتحسس الورقة التي شك كثيراً أن الساحر أوجا هو من كتبها. ظلت الكلمات الغامضة؛ مُلغزة المعنى رغم حروفها العربية، حتى ترجمت مقابل المال، يومها أنب رضوان نفسه على ذلك الخنوع والغفلة الطويلة، سخر مما يفعل،

وتعاظمت نغمته على ما تقوله كوكب في هذيانها من حكايات فاحشة مع الرجال، وفي أوج غضبه؛ فكر أن يطلقها، لكن رده الحنين بسرعة، فكلما تذكر طعام الليالي الحلوة مع كوكب، ضحكاتها ورقصها، ميوعتها وتقصعها، حتى سبابها الفاحش، يوقن أن كوكب بالنسبة إليه هي كل شيء، ويمسح رضوان صدره مسامحًا، ويقرر إحضار كل ما بالورقة من طلبات. يحدق في النجوم ويهمس بكل حب: «متى تشفين يا كوكب؟».

ويعطي لمبروك ثلاثة قروش فضة، ويكلفه باصطياد خفاش، فيرفض مبروك القروش بشهامة ليست فيه قائلًا: «أنا خدامك يا عم رضوان، من غير فلوس!»، ويتسلل إلى الخرابة ليصطاد الخفاش، ويذهب رضوان إلى داره يراجع كل طلبات الساحر: ديك أحمر على أسمر، وبخور صندل، وبخور لبان، ولباس كوكب الحريري، وحمامة بيضاء، وسِكينة مسنونة.

ثم يجلس ينتهد جوار كوكب ينتظر، وعندما يحضر مبروك الخفاش؛ يحبسه رضوان أسفل قفص جريد، وهو ينظر إلى مبروك بقرف، جراء تنبيهه أن الخفاش يحتمل أن تأكله كوكب لتشفى، فيباغته طارداً: «غور يا مبروك».

- عندي طلب يا عم رضوان

- غور الحين قلت لك.



لم يكتسب مبروك عملاقة أبيه. فقط أخذ منه عيونه الضيقة، وأخذ من أخواله سماجة الطلة، وزاد على ذلك بسمة خبيثة يكرهها الناس. نشيط، وحظه معاكس. منذ طفولته، ورفاق مبروك يعبرونه بوجه أبيه الشؤم، ويسربون له مع حكايات أبيه كل ما يسيء، كره مبروك أباه، وظل الكره يكبر مع السنين، وعندما رأى أن المال يعز صاحبه ويؤكد سطوته؛ اتخذ طريق الحرص والتقشف؛ حتى سقط في بئر البخل واستعذبه؛ لا يخرج المال من جيب مبروك ولو على جثته، طعامه الدائم خبز وجبن قديم وسريس أخضر، فإن ذبحت أمه أو جدته دجاجة، يتغير وجهه رغم أنه يأكل وحده أكثر من نصفها، تمنى زوجة متيسرة تنتشله من فقره، فكر في بنات الخفراء، وأدرك استحالة موافقتهم عليه فاتخذ طريقاً آخر. وبعد صبر وتذلل وعمل شاق في زريبة شيخ الخفر وداره وعده أن يلحقه بالخفارة ليعس على الناس ويجلب أخبارهم! سار مبروك إلى الدوار عندما طلبه شيخ الغفر وأمله قد كبر بأن الوعد قد تحوّل إلى حقيقة، في ساحة الدوار انتظر استلام عمله، وبالمصادفة خرج أبو جميل من الدوار، فما إن لمحّه إلا وأشار إليه يسأله: «اسمك؟»، فابتسم ابتسامته المنفرة، وقال: «مبروك الميت، يا سيدنا».

استعذب أبو جميل خلقته القبيحة وبسمته السمجة، وقد رأى فيه كلباً مطيعاً، لكن المنحوس منحوس، فقبل أن يستدير مبروك ليستلم بندقيته، دوت صرخة عالية، وأتت الخادمة بالخبر الشؤم: «الست نزت، والجنين أجهض».

ويضيق صدر أبو جميل وتنفر عروقه، ولا يجد غير تلك الخلقة القبيحة يرمي عليها غضبه فرفع يده بالسوط الممسكة بها كفه وضرب مبروك ضربة قوية صرخ من ألمها ككلب أجرب وفر.

نظر أبو جميل إلى شيخ الخفر نظرة مزرية، ونهره بغضب: «تخير خفرك يا بغل وإلا!»، وتركه ودخل الدوار غاضبًا. لم تمر ساعة حتى عاد مبروك إلى شيخ الخفر، يتسم ابتسامته السمجة ويطلب استلام العمل، فبصق شيخ الخفر في وجهه، وبصوت حانق صرخ غاضبًا: «امش يا ابن الكلب، يا نحس».

خرج مبروك من الدوار يلعن أباه، ويعزي نفسه في حظه العشر، وفكر في رضوان أن يكون هو واسطته هذه المرة ليكون خفيّرًا، لكن ها هو رضوان يطرده! ويهمس مبروك لنفسه: «المنحوس منحوس»، ويرجع إلى داره ناغمًا يتمنى أن يمسك الخفر بأبيه متلبسًا بجرم فيضربونه ضربة موت وينتهي أمره، لربما ينتهي النحس الذي يلازمه وتضحك له الدنيا.



مختار، وآخر السّحر، عيناه غائرتان، وقلبه متخم بالندوب، ودمه يصخب فائزًا، وظهره يتصلب يود أن ينفذ برأسه في الحيطان، وأصوات مستجدية تصرخ، والأبواب تطرق بغلظة والصياح يعلو: «الفيضان. الفيضان يا سيد خليل».

يثب مختار، لا يستر بدنه سوى سروال كتاني طويل، وفي لحظة كان في وسط صحن الدار. كتفه بكتف خليل؛ يفتحان البوابة الكبيرة للدار الواسعة، يلاقيان جمع الرجال، والعيون جاحظة من الذعر.

الجليلة يقظة واقفة على عتبة حجرتها، يعلو صوتها أمراً نجاة أن تستر رأسها وتكتم عويلها، ويتحرك الجمع يقابل الهول؛ جبال النهر المنهمر، والماء هائج يفور بغرين الطمي، يعلو ويضرب الجسور بشراصة عمياء، والرجال يتضامون، يراكمون الحطب وفروع الشجر مع الحجارة والرمل، فيبلع الماء الذي تمرّد ما يلقفون، وتعلو جبال الماء الذي اخضر.

فوق السطح يقف مختار بصدر عار، منتصباً بطوله وصدره العريض وساعده المفتول، يأمر وصوته في السماء: «يا ناس، يا ناس، يا أهل البلد».

والرجال -كما أمر- يرفعون جذوع النخل وعروق الخشب من حوش الدار، ثم ينزل ليأمر عبدة وولديه -حسونة وجعفر- والرجال أن يجمعوا سريعاً العروق الغلاظ، وفلوق النخل الثقال، فيعقدها مختار ويربطها بالحبال كي تشكل حائطاً ثخيناً عريضاً، يأمر بعدها مختار كل الرجال بأن يشدوا تلك الحوائط الصلدة بالحبال المعقودة، فترتفع فوق الأرض أعلى الجسور، ثم ينزلونها مائلة في وجه الجسر المخترق، وتشد الحبال، فترفع الحوائط، تغلق فيض الماء وراءها، وبعدها يهرول الصبيان

والبنات، يلقون ما يجمعونه من حطب وركام وخشب وحجارة وصخر ورمال. يتراكم كل هذا وراء الحوائط الساندة. ثم تأتي النساء يفرغن من فوق رؤوسهن التراب والحصى.

الوجوه بدأت في التَّبَسُّم، وتألَّق عرق العافية على الجباه، لما أحسوا بقرب الخلاص، فتضاموا وكأنهم بدن واحد، وقف الجميع يتعرفون على بعضهم بعضاً مجدداً، وعلى الخير الذي فيهم، الجلييلة ونجاة، فرحة وسكينة، شرقاوية وسيسبان، عبيدة وحسونة وجعفر. خليل ومختار، والناس كثر. الكلُّ يدُّ بيد، وروحٌ بروح، يغمرهم فرحٌ كان غائباً، وبنشوة الوجود معاً لا يصدقون حقيقة أنهم قادرون على ردع تغول النهر، وقهر أصول الطبيعة وتغيير الأرض.

ينقضي السَّحَر، ويبين الخيط الأبيض من الأسود، ويهجر الليل سقف السماء، وتأتي من بعيد شمسٌ حمراء خجلة. الرجال تكلس العرق والغبار على أكتافهم فصاروا كأشجار الكافور المتربة على تخوم الغيطان، يجلسون فوق الجسر يترصدون بقلق وبقلوب فرحة، لكنها واجفة مرتابة، والنهر يحشد ماءه ويتجيش وراء سدِّهم، لقد أغرت الناسَ سبعَ سنوات بلا فيضان، فأمنوا هدوء النهر، وغرهم سكونه، فزرعوا الوهاد وأقاموا بعض الدور في محاذاة النهر، وها هو النهر يغمر ما زرعه ويذيب ما قد بنوه!

الرجال يستريحون لحظات، والنساء في البيوت المفتوحة أبوابها الكبيرة على وسعها يُنضجن أناجر العدس الساخن،

لتحملها البنات الصغيرات على الصواني فوق رؤوسهن،
 ويصعدن إلى الربوة، والأولاد والصبيان يجمعون البصل
 الأخضر من سبلة الحقول، وعلى جرف التربة يقطعون حزم
 السريس والجعضيض، ويلتم الكل على بُسَط الطعام الممتدة
 على الصواني التي وضعت وسط حلقاتهم، يأكلون ويضحكون
 ويحكون عما فعلوه تَوًّا.

بعد تلك اللحظات الهائلة كان الشباب وعلى رؤوسهم
 مختار بالأمر والترغيب والزجر بصوته القاطع المتسلط، يدفعهم
 كي يواصلوا رفع تلال الطمي الجاف المتحجر من على رؤوس
 الغيطان ويضعوه على جرف الجسر، ويغلظوا الركام خلفه، حتى
 يعلو صدر الجسر الحامي، وتطل الجليلة من بعيد، ويدها عالية
 ممسكة بعصاها ترفعها تحت قبة السماء الحانية.

على جرف الجسر، يقف خليل، يرقب الحواف الواهية،
 ويفرح بمختار وهمته، وانصياع أهل البلد له، وهو يتعملق
 وسط الشباب، يخبط على ظهورهم ويدق أكتافهم بهزر ومحبة،
 مشجعاً ومحفزاً. والشباب يتلقون لَمْسَ مختار لهم كمكافأة
 يستعذبون مذاقها، ويرزون أنفسهم بسرور فيها قلب خليل
 ويطيب صدره من كل هم.

يستدير خليل هابطاً من صدر الجسر وسط مخاضة الوحل
 اللزج، فينزلق قدمه، وينقلب من أعلى الجرف ويأخذه فوران
 المياه ويغلبه إلى أسفل، تصرخ النساء صرخات العويل؛ فتتمدد،

تشق القلوب لوعة وكمدًا، تحسّرًا وغمًا على خليل، والشيوخ
تخشبت أبدانهم وارتجفت قلوبهم وابتلت عيونهم لقلّة حيلتهم،
والرجال تنهار أصواتهم وهم يحجزون الشباب عن إلقاء أنفسهم
في النهر، حالمين بإنقاذ خليل، غير عارفين أن هذا عين التهلكة،
فبركان الماء المتدوم لا قبل لأحد به.

إلا أن مختار، ابن الليل والأرق، ابن التشرّد والجوع، ابن
السجن والعذاب والقهر، ابن الذل والمهانة، يضرب الدم في
عروقه، وقد شعر بالناس تصوب نظراتها إليه وكما فعلها وتمرد
هاربًا عندما كان صغيرًا، يرمي بنفسه في قلب الماء المصطخب
دون وعي! أملًا في بطولة ليس أكثر.



الوجع يضرب القلوب. العيون تحرق مذعورة. النهر يجري
إلى بعيد، والماء يغلي بغرين الطمي الفائّر. وصفحة الماء داكنة
تتقلب سريعًا، تطفو على سطحها رؤوس سوداء ووجوه منتفخة
وأجسام متفسخة لبشر غرقى وحيوانات نافقة. يقلبها الماء
كالأخشاب الطافية.



دخل أوجا البلد منتصف الليل، ولم يعرف أحدًا من أي
طريق سلك. همس بعضهم يسألون: «أجاء بالطوفان أم جاء
الطوفان وراءه؟!». الثعلبي يجري أمامه، وأوجا يمشي الهوينى

بقدمه الطويلة كساق شجرة. لم يجرؤ أحد على السير وراءهما، تابعهما بعضهم من خلف شبابيك وأبواب مغلقة، وخاف آخرون وتراجعوا مع أول لمحة لأوجا. وجهه أسود كامل الاستدارة، وشفته حمراء، وبروز خفيف في وجنتيه، شعره الأجعد طويل، وثيابه ملونة ومنقوشة بالأصفر والأحمر والأخضر، وحول ساعديه ورقبته سلاسل فضة، وسبح حباتها ملونة تضيء في الظلام، ينظر إلى البيوت بعينين مكحولتين لهما بريق خاطف كبريق عيون القطط في الليل، ويسعل، وأمام باب رضوان يتوقف الثعلبي، الذي يعرف قليلاً ما يقوله أوجا.

محينًا يدخل أوجا كي لا يصطدم رأسه بالباب، ويضع الثعلبي عن كتفه جراب أوجا الذي يحوي العجب. يمد أوجا كفه ويفتح الجراب، ويخرج كوبًا يصب فيه من هذا وذاك، وهو يقرأ تعاويذه، ثم يبلع من الكوب ملء فمه، ويصق على فحم جاف فيشتعل، وتهب نازٌّ زرقاء، فيأمر بلغة عربية مكسورة وهو يرفع كفه: «البكور».

ويناوله رضوان بكف ترتعش كيس بخور اللبان، وكيس بخور الصندل. فيرمي أوجا حفنة من بخور اللبان، وعليها حفنة من بخور الصندل، فتتوهج النار، وتفوح رائحة نفاذة تسيل الدمع. ثم يمسك بالسكين ويمسح بظهر النصل على لسانه، أمرًا: «اركدي ألا بتنك».

ولما لا يفهم رضوان الأمر، يشير إلى الثعلبي؛ فيعيد الأمر بلغة مفهومة، وهو يشير إلى كوكب: «ارقدي على بطنك»؛ فتقلب كوكب مستلبة تائهة تغني لنفسها وهي تضحك وتبكي.

يذبح أوجا الحمامة، ثم يذبح الخفاش ويغمس إصبعه في دمه، ويخضب بالدماء بطن قدم كوكب اليسرى، ثم يغمس إصبعه في دم الحمامة ويخضب بطن قدمها اليمنى، ثم يمسك رأس الديك ويلفه في الهواء حتى يفصل العنق عن الجسد، فيصفي دماء الذبائح الثلاثة فوق جمر النار، فتخبو حمرتها لحظة لتهب النار برائحة خبيثة، فيغمغم بهرتلة عجيبة ويتغير وجهه ويكلم خفياً، ويقلب كوكب لتمدد على ظهرها، وهو يأمر بصوت مخنوق: «اتحي ساكك»، ويفتل لباسها الحريري كحبل غليظ، يصفع به رجلها وفخذاها، وكوكب تصرخ، وهو يتوعد بلغة الهوسا: «اخرج، يا نجس». ويظل يصفع بالحبل حرها وكوكب تصرخ، وبسرعة البرق يحمي على النار خنجراً ويكوي كوكب؛ فيدمى بين فخذيها. تظل تصرخ وترتجف ثم تغرق في إغماء. يرمي باللباس للنار؛ فتتوهج، ويفتح زجاجة ويقربها من أنف كوكب، فتستعيد وعيها ببطء. يلم حاجياته بجوف جرابه القماش وهو يُطمئن رضوان ييقين: «كرج».

فيجفل رضوان هائئاً، ويتنهد براحة، ويقول: «أخيراً خرج!».

ويهمس الثعلبي في أذنه: «يا بختك».

وفور خروجه من الدار، لم يعرف أحد في البلد، حتى
الثعلبي، من أي طريق عاد أوجا.



لم يستسلم الماء، والتف حول البلد والجسور العالية التي
شيدت على الجسر، وضرب بعيدًا، ناخرًا أضعف مكان مغرقًا
الشوارع.

16

يجلس أبو جميل على فرشة في حديقة الدوار، ينظر إلى النجوم، ويرمي بجوفه كأس الشراب، بينما بحر يشق الطريق إليه حتى يلتقيه على الوسادة، فيفسح له أبو جميل متكاسلاً، وهو يمد له كأساً بكفٍ ترتعش، ويسأله بصوت لا تبرحه الجفوة: «خُذْ. لماذا تأخرت؟».

ويدرك بحر أن رسالة في عيني أبو جميل يكتمها، وستسأل مستغفلة سكره، فيمسك بكأسه، ويؤثر الصمت وهو يرفع عيونه لأبو جميل يسمعه: «يقولون، يا بحر، إنك روضت الجبل والصخر كهرة، وإن الذئاب تهابك، وإنك تأكل الثعالب وتحلي بالأفاعي!».

يتسم بحر؛ فيكمل أبو جميل: «اشرب، يا بحر، اشرب، يا حبيبي. وانظر معي، ترى الناس يقطعون قلوبهم على جدار ذاب في الماء، أو بهيمة غرقت، ثم يقولون إنهم مؤمنون، والدنيا عندهم لا تساوي خردلة، كل الناس كاذبون جناء! اشرب، اشرب، يا بحر».

ويمد أبو جميل يده بكأس أخرى، يلوح بها في اتجاه أسوار الدوار، قبل أن يمدّها إلى بحر، ويقول: «انظر، فعلى كل جدار بهذا الدوار العالي الحصين رجال، وللرجال سواعد تلعب، وأصابع غليظة تعبث، وبين أرجلهم حديد يقذف نارًا، ولا أحد ليست له مؤخرة طرية، وعين تغفل، وعقل يغيب، وجسد ينام، والنفسُ بالنقود تجيء مسحوبة. اشرب، يا بحر، اشرب، وانظر لي، ولا تنس، فلا يأخذ الرجال إلى المهالك غير النساء، اشرب، وإياك أن تحب، وإن أحببت فابعد عن التي تكرهك، أفق يا بحر، وانظر، ترى العجب، وإن عشت وعمرت ترى الأعجب».

ويلتقط بحر طرف الكلام، ولا يستطيع أن يكظم امتعاضه: «أنا بحر يا أبو جميل، بحر الذي يختر الناس تحت قدميه كالخرق المهلهلة!».

فيدير أبو جميل عيونه في عيون بحر، وبصوت حاد يرد: «الناس أما أنا فلا؛ فأنت تعرفني وأنا أعرفك... اشرب، يا بحر، اشرب».

فيرد بحر كأس الشراب، وينهض وهو يضع بهدوء عباءته فوق كتفه: «مزاجك غير رائق اليوم يا عمدة، ولا رغبة لي في السهر».



بينما البلد كله ذاهل، بعد ما صنعه الفيضان من خراب، كان الميت يخوض في قلب الوحل، وهو مشغول بنفسه عن

أهوال ما حوله. على صدره حجر، وفي قلبه نار، بجسد يتلظى
 ساخناً من هوس الشبق لا يعبأ بعيون الناس الحيرى ولا ببيوتهم
 المفتحة الأبواب والتي خربت جدرانها بفعل الفيضان، يتجاوز
 عتبة دار إحداهن، فيغص قلبه ويجف حلقه، والمرأة ما إن تراه
 حتى تجفل فزعة من بعيد، لكنها تكتم الصراخ، ولا يعبأ الميت،
 ويقترب متذكراً ما كان، ويفاجأ باستعاذتها منه وهي تنهره بحدة:
 «ابعد يا وجه الشؤم!».

من كانت تشده فوق صدرها طوال الليل، ولا تفلته إلا مع
 فضيحة النهار الآن تطرده! الآن، لن يريحه أحدٌ من النساء،
 ملعوناً تصاحبه النقمة، مريضاً بالفتنة والغواية، يهيم مكروهاً.
 تتجلى له حقيقة قبحه، يخوض في الطرقات يلطخه الطين، ومن
 دار إلى دار ترمى الصرخات في وجهه المنبوذ: «اذهب.. امش..
 أعوذ بالله!».

ويظل الشُّباب يرمي وراء ظهره؛ وهو يمشي ملعوناً كأنه
 شيطانٌ، أو كلبٌ أجرب، حتى يصل إلى داره، شرقاوية وسيسبان
 ومبروك أخرجوا بهيمتهم الناجية إلى أرض جافة، وظلوا
 يجاهدون حتى ردموا الزريبة بالحطب والحصى والتراب، ومن
 شدة التعب لم يجدوا غير سطح الدار يتنفسون عليه الراحة،
 وهم مبتلين بالطين والعرق.

لا يعبأ الميت بعيون ابنه اللوامة، ولا كلمات سيسبان، ولا
 بإشارات أمه المستفسرة، يدخل ويستلقي على وحل الأرض،

بقلبٍ مكسورٍ وجسدٍ يخبو، وفي ركنه المظلم بدت عيناه مثل
عيني ذئب جريح.



فاض ببحر الصبر، دون أن يعرف كيف تهابه ناس البلد
وتعجزه سكينه! لعنته على مسمع الناس، لأنه فكر ذات يوم في
طلب يدها، وتلعنه الآن لأنه عرض المساعدة في ترميم حائطها
البائس، رضخ الناس بعد انفصاح سره وشيوع حكايته، وظلت
سكينه وحدها لا تلين؛ بل يزداد عنادها وغلظتها، لو يعرف بحر
من يقوي قلبها عليه لقتله وعلقه من عرقوبه، وتحت وطأة اليأس
يقول لنفسه: «الملعون، أبو جميل معه حق لا فائدة من الصبر
مع هذه المرأة العنيدة». يعلم أن وراء كلام أبو جميل شيء آخر
غير النصيحة والتأسف على حاله في جفائه وغضب عينيه؛
رسالة ناقمة تشي بتأمره، جراء رقبة قنديل التي أفلتها طوعاً! بحر
قاتل وابن دواهي، لكنه يؤمن بالقدر والمكتوب، وصفحة العمر
لا تزال بها أسطر لم يخطها قنديل. لو كان أبو جميل سيصدقه
فيما حدث لحكى له، لكن أبو جميل لن يصدق أن بحر شحذ
خنجره، وبرق بعينه عطشه للقتل. تجنب البيوت التي زحفت
متناثرة كعقد انفرطت حباته وخاض في طريق لا يعرفها غيره،
ولما رأى طيات الرمال أحس باشتياق جارف للصحراء.

وسط الطرق الملتوية التي اتخذها استرجع ذكرياته القديمة،
على تلةٍ جلس يتذكر وجوه ضحاياها، كفه تستشعر دفء الحجر

وهي تتحسسه، عيناه الضيقتان شغوفتان برحابة المدى. وفي اللحظة التي قرر فيها النهوض لإكمال السير، أحس بلدغة في راحة كفه، وعقرب يفر مختبئًا، فيضربه بحجر ولا يصيبه. يتحرك العقرب فيضربه بحر بحجر آخر قبل أن يختبئ بجحره، ويفاجأ بثعبان يخرج نافثًا سمه، فيتفاداه بأعجوبة. يشحب وجهه بحر، ويشعر بحرارة اللدغة تسري في جسده، ووهن في كفه، ولأنه ابن الصحراء؛ يخرج من جرابه الممتلئ ثمرة يضعها مكان اللدغة وقتًا حتى تمتص بعض السم، فيلقوها بعيدًا، وبدرية مداو يضع على مكان اللدغة حنظلًا وليمونًا وثومًا ويلف عليها قماشة. ثم يخرج ترياقًا يبلعه، ورغم وهنه واصفرار وجهه يعاند نفسه وينهض بتصميم غريب على الذهاب لقتل قنديل!

عندما ظهر الكوخ. سمع صوت قنديل بالداخل كأنه يكلم أحدًا، تنصت لكنه لم يهتدِ إلى معنى ما يقال، وإذا بالوقت يمر وبحر غير قادر على الدخول ولا على المغادرة، ولحظة خرج قنديل بنظرة مبتسمة تبطن شيئًا من السخرية؛ فار دم بحر، وانفجر الشرر من عينيه وقال بعلو صوته: «ألا تخافني، يا ابن الشياطين؟!». وعندما هم بحر بإخراج الخنجر، أحس بثقل وخدر في كفه يزداد، لكنه استجمع كل قوته، ومع إصراره على إخراج الخنجر، جرحه النصل المسنون! فنظر إلى كفه وإلى الخنجر الغارق بدمه موقنًا أن قدر الله لا يريد رقبة قنديل! ارتبك لما وقعت عيناه في عيني قنديل، الذي استدار يكنس الأرض

ويملاً الدلو ويسقي الزرع، وكأن لا أحد بالمكان غيره، وبحر يقف كصنم مذلول، ويرجع خائب الرجاء وقد أقسم ألا يحكي ما حدث لأحد.

يشعر بحر الآن بالوحدة، وبوحشتها كما لم يحس بها طوال حياته، يسأل نفسه عن الراحة والسكن، وعن لمة الأقارب ودفتهم، ورنث في صدره كلمات كأنها رسالة من السماء إليه: «فتش عن زوجة تسكن إليها»؛ فهمس بخشوع: «لتكن مشيئة السماء!».



المصاب كبير، دار الجلييلة يلفها الحزن؛ سكينة تواسي نجاة، ونجاة تتوسل إلى الجلييلة بعينيها، وتنشد موالاً تحفظه عن أمها، وأمها لاهية عن الجميع، تجلس على كرسيها صامتة وكأن شيئاً لم يحدث! أما فرحة فتتربع على الأرض بثوب الحداد، يفترسها الوجع، وحسرة الفراق تؤلمها، تدرك حبها الكبير وإجلالها لخالها، وتؤنب نفسها أنها لم تبج بحبها صراحة لمختار، تبكي فترسم غبشة دموعها وجه الغائبين؛ فتهمس: «أحبكما».



في كل مكان بالبلد؛ الرجال عرايا الصدور، يخوضون الماء، ويسحبون من برك الطين والوحل رمم الغرقى من الحمير والبقر، ثم يأخذون برقاب البهائم الحية، يرفعون رؤوسها فوق الماء، ويسحبونها إلى فوق الجسور. والحمام يهيم في السماء،

والعصافير فزعة من نباح الكلاب وراء الثعابين التي خرجت بوضح النهار، إثر غرق شقوق جحورها.

بعض الجدران تذوب، وبعض الأسطح تهدم منهارة بأثقالها من صوامع الذرة وسحارات القمح. قُفِلت بعض الطرقات الواسعة، وغرقت الحارات، فعزلت بعض البيوت. العجائز فوق الأسطح يعتصمن ويولولن على أحفادهن، والرجال والنساء في قلب الماء والطين يراكمون الحطب أكوامًا، وحلقات كسواتر حول عتبات البيوت. ينشلون الماء من صحنون الدور إلى خلف تلك السواتر. ودون حديث تتبدد الخصومات وتنسى العداوات في قلب الهم الواحد والأسى، أما الأولاد والبنات الصغار فيتحركون في قلب الماء فوق الحمير بعد خروجهم من الدور الغارقة، صاعدين الربوة خلف دليل. وأمام دار الجلييلة ينزلون، فيوزع عليهم عبيدة وحسونة وجعفر، الطعام الخارج من دار الجلييلة، فتلقف أيدي الأولاد الصغار الجوعى الأرغفة الدافئة الحلوة.



يتجمع الكثير من الرجال وسط الساحة الكبيرة في قلب البلد، يشدون جذوع الأشجار الطافية إلى بعضها أطوافًا، يحملون عليها المتاع والأثاث وبقايا الطحين الناجي من الغرق. وتوقد النساء الأفران بعد جهد فيخبزن ويوزعن الطعام على الجيران والأقارب.



الهواء يهيج بالرياح، وأكوام القش والحطب أمام كل دار،
حتى أسوار دوار العمدة تلفها تلال وتلال من الحطب والخشب
والتراب المانع للماء، العرق يقطر من كل جبين، والشمس تبدو
وراء الضباب كحلم.



من بعيد، من رمل الصحراء، رجلان حافيان منهكان من
طول السير، يتحركان كشاهدين عاريين إلا من الطين كأنهما بُعثا
من جديد! والناس يجنهم الفرح وتسكتهم المفاجأة، الرجال
تحبي، والنساء تزغرد، وتُنسى المصيبة، ويرتج البلد، والرجلان
يتساندان، كَتَفًا فوق كتف. ينظران وكأنهما يبصران البلد لأول
مرة، رموشهما ملطخة بالطين، وشعورهما ملبدة به، يصعدان
الربوة خلفهما الناس يتصايحون فرحة بعودتهما سالمين، خليل
منهك واهن، يتساند على ساعد الفتى مختار! لكنهما يتحاملان
ويسرعان لإسكات حسرة القلوب عليهما، خليل يسأل نفسه:
«كيف نجا؟!». ومختار يسأل نفسه: «كيف يراني الناس الآن؟!».



الجليلة فوق مقعدها العالي ترفع عصاها، تبسم وتومئ
لصفحة النهر الذي سكن. ونجاة - من سنوات طويلة - مرة
أخرى تزغرد، وتقبل مختار، ثم تخطو وترتمي في حضن زوجها
طويلاً. وسكينة واقفة مندهشة، وفرحة تنظر إلى مختار وإلى
خالها، بعيون تدمع.



يستشعر خليل دفئاً غريباً في حضن نجاة، جعله يفكر سائلاً:
«لماذا لم يظهر هذا الحب إلا لحظة الفقد؟ ولماذا يفتر مع طول
البقاء؟!». ويدفعه حنين غامض لأن يحتويها في حضنه، وكأنها
حبيبة قديمة ردت إليه بعد طول غياب.



الصبح يتنفس ويخلع الظلام عن الأرض التي أجهدا
الفيضان، الأرض ساكنة إلا من نباح كلب ونقيق ضفدع وصياح
ديك، تستر نجاة بقماشة مشنة القرص، وعلى نداء عبيدة تقمط
الطرحة على رأسها وتدس رجلها في المداس، يضع عبيدة
المشنة في يدها بعد أن يطمئن لركوبها، تخوض الأتان في
الوحد، ويتخذ عبيدة طريقه إلى المقابر، وقرب شاهد العائلة،
تنزل تاركة المشنة لعبيدة، وبشوق تستند إلى جدار المقبرة
وتجلس. تظل تهمس بكلام حتى يتمدد النور ويأتي الأطفال
والعجائز، وتتسلل القطط من كل مكان، تضوي بعيونها في
وجه نجاة، وكأن بينهما ودًا. يوزع عبيدة «القرص» كلها، ويقرأ
الضرب ما يحفظ ويعلو بالدعاء وهو ينهض واضعاً النفحة في
جيب جلبابه، يمر الوقت، وعلى هزة خفيفة من كف عبيدة تفيق
نجاة من شرودها وهو يري جوها: «الليل سينزل، يا ست نجاة،
وواجب نرجع».



الأيام تمضي... والأرض تبتلع الماء؛ فتنحسر البرك شيئاً فشيئاً، الأقدام تصنع مدقات على الطرق، والأيدي ترمم حوائط الدور، وتجفف الغرف. ويستعان بالجبن المخزون في الزلع، والخبز المقدد، لكن أكوام القش والحطب تظل في أماكنها خوفاً من تمرد آخر للنهر.



مختار يؤرقه الضجر من الراحة ومن ذلك الصمت الذي لم يألفه؛ فيخرج ذاهباً إلى خليل الجالس على المصطبة وحيداً، ويباغته: «سأعمل مراكباً، كما الرئيس الأبيض». ويرفع خليل عينيه مستغرباً: «لا يا ولدي!».

فيصمت مختار ويدخل إلى الدار، فيرى نجاة تقف أمامه تسأله: «هل ستركنا؟!»، وتسيل دموعها وهي ترجوه: «لا تكسر قلبي وتغادر».

وقبل أن يرد عليها؛ يسمع نداء الجلييلة عليه من داخل حجرتها؛ فيقبل مستغرباً إشارتها الآمرة: «افتح الصندوق وأحضر لفة ورق لون برباط أخضر، تلك عقود أرض بور ينقصها الماء، خصّبها وازرعها، ثلث المحصول لك، وثلث لي، وثلث لأهل البلد، وحتى تحصّد، لك راتب كل شهر».



غادر الليل، والصبح جاء، ومختار يرمي السلام على الناس،
يمشي قاصداً الأرض التي عهدتها له الجليلة. مرشده عبيدة
وولده، جعفر يحبه ويقدره، وحسونة متعلق به حد الهوس،
يرفع مختار كفه، وباعتزاز يسلم. يرد الناس سلامه ويشدونّه
إلى مجلسهم بما يشبه الجر، فيسأل نفسه: «هل نسوا ما صنعوه
بي وبأمي؟! أم أنهم لا يجدون من يثونه أوجاعهم؟!». ويرى
مختار أكفهم عامرة بالهمة، يحنون إلى الماضي ويخافون من
المقبل. يجلس على مصطبة أحدهم، يقرأ على وجوه الملتفين
حوله طلباً لا يتغير، وكلمة تحمل أمنيته المسجونة: «العدل
العدل». يخبرهم أن طريقه طويلة وأمنيته شاقة وبعيدة، ويتغير
شيء في وجوه الناس وشيء في قلبه تجاه البلد، يستأذن ذاهباً إلى
الأرض، ويلتصق بهم الولد مبروك، الذي لا يكف عن الصياح
كلما نظر إلى مختار: «جسد أسد، وعيون صقر!»، ويتسم مختار
منتشياً من المديح.



الأرض البور ربوة مستنفرة الأشواك، مشققة من الإهمال،
تربع في طرف قصي جنوب البلد، صالحة للزراعة، لكنها عالية
عن منسوب قنوات المياه. وقف كل منهم يعرض اقتراحاً. قال
حسونة ساخرًا من مبروك: «نسقيها بالدلو، وتملؤه أنت من النهر
يا مبروك. ويكون عملك من الفجر حتى الليل». ويضحكون.
ويقول جعفر: «نحفر بئراً!»؛ فيرد حسونة مكملًا المزاح: «ثم

يسقيها مبروك بالدلو من الفجر حتى الليل، طوال السنة». يضحكون. ومختار لا يضحك، بل ينظر بجد إلى عبيدة، ويقول: «نشق من النهر مجرى، وترفعه السواقي إلى مجرى أعلى!».

يفغر الجميع أفواههم، ويمسكون ابتسامتهم المندهشة حذرًا من غضبته، لكن عبيدة يجيب: «لو صنعنا مجرى سيغرق كل البلد في طوفان من صنع أيدينا!».

فيرد مختار: «يحتاج الأمر إلى هويس وبوابات!». فينظر إليه عبيدة بئس، ويقول: «الأرض متدرجة الارتفاع، والأمر مستحيل!».

ينقضي النهار، وفي المساء يجمعهم مختار. يعيد عليهم بكل رصانة فكرته، وقد بدا أنه قد عدل فيها. يتسم حسونة، ويستغرب جعفر، وعبيدة يكرر: «مستحيل».

ومختار كالطود الشامخ ينظر لهم وعقولهم تقلّب فكرته، يصمتون، فيباغتهم: «ليس في الدنيا مستحيل؛ فمن معي ليساعدني؟!»، ويردون في صوت واحد: «كلنا معك، ولكن...!»، فيقطع ترددهم: «في المدينة كل شيء يُشترى!».



الأيام تأتي، والليالي تنير، والنهارات تشرق، وأصبح لمختار عُصْبَةٌ وَصُحْبَةٌ، كل نهار يأتي الشباب: حسونة، وجعفر، وعبيدة، والولد مبروك، ومئات غيرهم من الشباب، في كل نهار

يجتمعون، وفي كل نهار يأمرهم مختار بشيء للبلد كي يصنعوه، ردموا أرض النشع، وتسايقوا يجمعون نوى الفواكه من كل الثمر ليغرسوها على حدود الأرض، ظلوا يخصبون أرض النشع حتى أثمرت. ويحدون رؤوس الغيطان. ويحفرون بالفؤوس قناة ماء عميقة. والليالي سامرة ساهرة، والنهار ألق، والأيام أليفة والأرض الصفراء التي أوكلت إلى مختار، سويت على ثلاثة مستويات، وخططت جميعها في انتظار الماء، في سابقة غريبة على عيون الفلاحين وأولهم عبيدة.



أخذ مختار مالا من الجليلة، وحجابا من نجاة، وبسمة مطمئنة من خليل، وسلاما حارًا من فرحة وسافر إلى المدينة. رسى المركب في المرسى الكبير، فنزل مختار مأخوذاً، يستعيد يوم تهدمت جدران سجن «بركة الوحل»، وفر هاربًا ككلب مذعور. يتذكر وهو يمشي وحيدًا بلا سكن، ولا أهل، ولا راحة، ولا مال ولا أمل! هائمًا ود أن ينخلع يومها من الأيام.

ويقوده قلبه إلى الرَّبِّع، ليقف على الخراب الذي ضرب كل شيء. آثار النار ومساراتها على الجدران السميكة. البوابة الكبيرة تفسخت مفاصلها فسقطت وتحطمت، أبواب الحجرات سلبت ونهبت كل مخازن البضائع.

ويرى أغرابًا مسلحين بسحنات هجينة يتنطعون على ناصيات الطرق؛ ليسلبوا الناس أي شيء! ويختفي مختار لينام

في مأمن، وفي الصباح يمشي وحده متوجسًا يسأل المجاورين عن صاحبه، يصف ملامحه ويذكر اسمه؛ فيخبروه بأسى: «نظنه قُتل!!»؛ فيحزن ويغادر إلى دار شيخ الصنعة، يُخبره بأفكاره عن الهويس؛ فيتَهج ويجمع صُناعًا؛ حدادين وبنائين ونجارين مهرة، ثم يُحْمِلُ عدته فوق عربة كارو، ويشترى كل ما يلزمه. تُصَف كل الأغراض على رصيف المرسى، وفي الفجر يحملهم المركب إلى تاج شمس.

17

يقف المركب على مرسى تاج شمس وقتًا طويلاً، يحمل أهل البلد بفرح، عُدّة الصُّنَّاع وخاماتهم؛ كَمَرَات فولاذية، وعروق أخشاب طويلة صلبة، ولفائف معدنية، وزجاجين حديدية، وسط توجيه الصناع، للأشداء من الشباب، بكيفية حمل كل خامّة، والصعود بها ثم كيفية رصّها.

ارتج البلد بالحدث، وأمسى صعود الربوة ورؤية العمال القادمين من المدينة أكبر تسرية، قُسِّم العمال حسب صنعة كل منهم، فبدأ عمال البناء بمساعدة آخرين يقطعون من الجبل أحجارًا بمقاسات محددة، وانضم الحدادون من أهل البلدة ينفذون ما يأمرهم به صُناع المدينة، حتى اصطاد خيالهم تلك التعاشيق الدقيقة للتروس الكبيرة التي لم يُركبوها من قبل.

بعيدًا عن الجسر بمسافة مقدرة؛ حفرت الأرض وبنيت أساسات عريضة عليها حوائط حجرية سميكة في جهتين متقابلتين، وركبت الكمرات ملتصقة بأكتاف تلك الحوائط العالية على مسافات متوازية، وأخذ الحدادون يُعشّقون التروس

ويشكلون في الحديد الساخن، حتى استوى شكل البوابة الكبيرة وركبت في مجراها. وبقي أن يجرب الهويس ويعمق المجرى الذي سيتدفق فيه الماء لترفعه السواقي المتباعدة إلى مناسب الأرض المتدرجة الارتفاع، وعندما أنجز كل شيء، امتلأت عيون الشباب بالحماس، ونبت في عيون الناس الأمل، وبدأ لعبيدة أن ما كان يظنه مستحيلاً صار ممكناً.



وسط انشغالاته لم ينتبه مختار إلى عيون فرحة، حاولت بالإيماء وفشلت، فلما استعانت بالإشارات الخفية، ولم يلتفت؛ قررت مدفوعة بالحب أن تغامر! انتظرت وسط الدار تترقب خروجه من غرفته. في صدرها كلام محبوس وفي قلبها مختار يهنأ بالدعة، ولحظة إقباله عليها وقفت الكلمات على طرف لسانها، فلما رآها مختار مأخوذة محمرة الوجه، سألها: «ماذا بك يا فرحة؟».

- أُحبك.

قالتها بخجل؛ وفرت من أمامه، تركض بقلب يخفق. تستلبها ذكرياتٌ ولت، وأحلامٌ تحلق. إنها تأنس للحب، وتتيه كالعمياء مأسورةً بأمنياتِ قلبها الحالم!



كوكب على سريها تتمدد صامتة، على وجهها لا أثر
لحزن ولا لفرح، يأتي رضوان من الخفارة، يناديها للطعام فلا
ترد، يرجوها أن تأكل معه فلا تجيب. يسحبها من كفها برفق،
فتنهض كطفلة طائعة. تأكل قليلاً، ثم تعود إلى مكانها وتغرق
في الصمت.

تنساق لرضوان وهو يخلع ملابسه. تجلس في قعر الطشت
كبنت غافلة، وبلوفة خشنة يدلك رضوان جسدها حتى يشتعل
جلدها ويحمر؛ فيرمي على رأسها وصدرها آخر خمس قطرات
صفراء من زجاجة أكد أوجا على استعمالها كلها، ويصب
رضوان الماء ساخناً فوق رأسها، ثم يغطي جسمها الساخن
المبلول، وفي قلب السرير العريض يدثرها بالألحفة، فتغرق
وتفوح رائحتها المسكرة، ولكي يبدد ذلك الصمت الموحش
يحكي لها عن البوابة التي يشرعون في عملها، وعن ضيق العمدة
مما يصنعه مختار وهي تنظر إلى رضوان بعين شاردة، حتى إنه
شك في إدراكها لما يقول. وقبل أن تنام يمسح لها على الجرح
بقماشة مبللة، فتتوجع قليلاً وتغط في نوم ثقيل. فيتمدد جوارها
يسأل نفسه: «هل كوكب في طريقها إلى الشفاء أم ستظل على
تلك الحال بقية عمرها؟!».



قنديل يتملى البلد من فوق الجبل؛ نثار من بيوت بعيدة،
وسط رقع خضراء. قلب قنديل هادئ وراضٍ، لكنه خائف أن

يأتي يوم يأمره الهاتف ولا يطيع. لذا يقول لنفسه يروضها: «مهما كانت غرابة النداء لا تقولي: لا!».

الآن قد أيقن! فأثناء ذهابه لجمع الحطب من الشجرة التي قطعها مأمورًا، رأى مختار و خليل يتعلقان بها وينجوان من طوفان الماء الجارف، كف مختار تمسك بكف خليل، وبحذر يمشيان فوق الساق الطافي، حتى عبرا بسلام إلى الجسر واستراحا.

ود قنديل حينها أن يهرول إلى مختار كي يضمّه إلى صدره، لكنه مضى إلى حاله منساقًا لهاتف أن وقت اللقاء لم يحن بعد.

يغمض قنديل عينيه، وقد برأ من وخذ قلب كان يؤلمه على مختار، وبصوت شجي أخذ يبتهل، شاعرًا أن في قلبه ولدت جنة خضراء مسقية بالنور.



كان مختار أوعى من أن يقدم على أي أمر دون مشورة الجليلة ومباركتها. المتخاصمون صالحهم، والمعوزون أطعمهم بما تجود به الدار الكبيرة، لا أحد يذهب إلى مختار إلا ويخرج مسرورًا، من له ومن عليه، من يعرفه ومن لا يعرفه، خطب فتاتين جميلتين لحسونة وجعفر. فأصبح الشباب على أعتابه كثر، يفكر أبو جميل بقتله، ويتراجع لضيقه من بحر، مقررًا الاستفادة من مختار وتطويعه، لكنه يؤجل خطته إلى ما بعد تشغيل الهويس، الذي أقسم شيخ الغفر أنه كارثة مؤكدة.



غُصَّتْ قلوب الناس خوفاً من أن يضرب الماء البلد ويغرقه،
التف الكثيرون حول الجسر في مواضع آمنة، وبجوار شيخ
الصناع، أخذ مختار يدير عجلة الهويس؛ لثُحْرِكَ التروس بعضها
بعضاً، وتعلو بالقائم الذي أخذ يرفع البوابة، ليعبر الماء من النهر
إلى قاع المجرى المبطن بالحجارة.

يندفع الماء في المجرى ويجرف ما يلاقيه بعنفوان وشراسة،
الدهشة تملك الجميع، والخوف يرعد قلوبهم، يصل الماء إلى
السواقي، فتدور وترفعه إلى مجرى آخر، وعند نهاية المجرى
ترفعه سواقي أخرى إلى منسوب أعلى. تشرب الأرض البعيدة
بمستوياتها الثلاثة حتى ترتوي، ويصبح عبدة مشيراً بكفه إلى
أقرب رجل يراه: «قل لهم كفى».

فيهتف الرجل: «كفى». وتظل الكلمة تتردد حتى تصل إلى
أذن مختار، فيقوم بإغلاق البوابة الحديدية بيسر وأمان. يتهلل
الناس ويفرح أهل البلد. يقبض شيخ الصناع باقي أجرته، ويعود
برفقة صناعه إلى المدينة فرحاً. وعندما أبلغ العمدة بما جرى؛ بلغ
ريقه، وأمر رضوان أن يستدعي مختاراً لمقابلته.



أبو جميل يطلب مختاراً، وبحر يسأل رضوان لم يطلبه؟
ورضوان العبد المأمور يذهب وينادي هذا لهذا، لكنه يتتحي
بمختار وينفث بالسر المخبوء، مقسماً عليه بالكتمان. قلب

رضوان ممتلىء بالغضب من أبو جميل الذي يضحك ويتهكم عليه كلما رآه: «بددت مالك على عاهرة مجنونة يا نطع!».

يسبه رضوان في سره، لكنه يبتسم في وجهه كأن الأمر لا يعنيه.

كوكب لم تعد تسمع نداء الجنى عليها، ولم تعد ترى خياله يتحرك على الحائط، تأكل بنهم، وكأنها تحاول أن تسترد ما ناله الزمن منها من شحوب.



بصحبة ولديه يقبل عبيدة، يود أن يشكر الجلييلة على تزكيتهما لهما عند أنساب أولاده. وقبل أن ينطق، تسبقه الجلييلة: «الفرح هنا يا عبيدة».

- لكن...!

- هنا يا عبيدة.

- أمرك.

وتنادي الجلييلة على نجاة، فتأتي وتبارك، ثم تقترب من أمها وتهمس سائلة: «وحفيذك مختار، متى سيتزوج؟!».



مشى مختار في طريقه إلى الدوار بدم فائر وصدر ملتاغ وعقل مشغول! الدنيا في عيونه غابة موحشة، الضعفاء فرائسها،

لا ينجو منها إلا من أنشب مخالب، وامتلئ دهاءً. مختار صار يعرف السر، وليس بيده إلا أن يتحمل علقمه.

وحيداً ومتعباً يسير، الليل وحشة، والاختيار خطر. ظهره بارد وجبينه يتعرق، يتقدم إلى أسوار الدوار العالية، يبلع جرحه ويمسك غضبه ويواري ناره.

ويرى أكداس الحطب الهائلة حول أسوار الدوار لم تزل منذ وقت الفيضان، والحراس يشرعون الأسلحة جهته كغريب مجهول، فيرفع يده بالسلام، ويتحجر صوته: «أبو جميل طلبني». وتُفتَح الأبواب ويدخله أحد الحراس وهو يقول باستعلاء: «العمدة في انتظارك».

ويسلمه الحارس إلى رضوان، فيمشي برفقته ويهمس في أذنه ناصحاً: «حاذر، واعلم أنني رجلك عندما يأذن الله بعدله».

ويسلمه رضوان إلى حارس آخر، تبتلعه متاهات وردحات، ويفتح باب ويصير قاعة واسعة، ورجلاً أشيب نحيفاً يجلس في الصدارة، ومن بعيد يحييه: «أهلاً بحبيبي»، ويشير إليه كي يجلس في مقعدٍ على يساره.

كبد مختار مشتعل، لكنه يمسك غضبه. بين أصابع أبو جميل عنقود عنبٍ أحمر يأكل منه ويتسم، ومختار يتفرس ساخرًا من ذلك المسن الذي يرهب البلد، يتملى عيونه الذابلة بإرهاق السهر وعقر الخمر وإدمان الكيف، ويراهها تخفي وعيداً: «كيف الأحوال يا مختار؟!».

ويضع أبو جميل من على كتفه عباءة من الصوف الثخين، وهو يحدث، وينتظر الرد: «نحمد الله يا عمدة».

- أتعرف لِمَ جئت بك؟

- لِمَ؟!

- لأصطفيك!

وتفتر شفتا أبو جميل عن ابتسامة ملغزة كريهة، فيسأله مختار: «كيف؟!».

- تكون يدي اليمنى.

ويسكت مختار، وينظر أبو جميل في عيون خصمه منتظرًا، ثم فجأة يقطع الصمت ويبعث بسلامه إلى الجلييلة وإلى نجاة. ويطيل في سلامه الخاص إلى خليل، وقد تغيرت لهجته، موجهًا طعنة بابتسامة أحس مختار بمغزاها المؤلم، سلامة يدعي أن عشرة كانت بينه وبينهم يومًا. لكن معسول الكلام أبعد من أن يصل إلى أبواب قلب مختار، يأتي أحد الخفراء بكوبين، يضعهما وينصرف، ويحييه أبو جميل ويمد كفه بكوب، ويقول بما يشبه الأمر: «اشرب».

ويتذكر مختار كلمات رضوان، ويحاذر. يمسك الكوب ولا يشرب. يتلهى بتمللي نقوش الجدران الباهتة لفرسان يخوضون المعارك تحت سنايك السيوف، يحمون صدورهم بدروع حديدية، وهم يطعنون أعداءهم في القلب، والشمس من

أعلى تبزغ عليهم بوجه بشري، منبهرة بشجاعة فرسانها الذين تَوَازَرهم، الرسوم التي أوشك الزمن أن يمحوها، جعلت مختار يسأل نفسه: «من رسمها؟ ومتى رُسمت؟». ومختار يعرف أن جميع من حكموا البلد طوال عمره وأطبقوا على الدوار ليسوا من أهله، إيمانهم واحد بأنهم اصطفوا بامتلاك الأرض وما عليها، والعجب أن من نقش ورسم هم أولاد البلد!

وتنفضح عين العمدة عن ذئب جائع يريد النهش، ومختار، يدعي أنه لا يرى، لكنه يعرف ويحس ويرى، ويمر الوقت ويضع مختار كوبه دون أن يمس، فيهتف أبو جميل: «اشرب».

فيرد معتذراً: «شربت على قدر استطاعتي».

بصمته الماكر يتملاه أبو جميل ليعرف أي الرجال هو! يبتسم مختار وهو ينهض مستأذاً؛ فتبدي شراسة عيني أبو جميل رسالاً، ومن صوته المشحون بالوعيد تحذيراً: «معي أم لا يا مختار؟!».



يجمع بحر في داره كل من اشترى قرابتهم، وبأدوات الوشم أخذ يشم ظهر أيدي الجميع برسمة ملونة بالأسود على الأزرق، فرح الأطفال، وتضاحكت البنات، وبحر يتنقل بعينه بينهن حتى اختار بنتاً، أمسك كفها الدافئ، وهو يغرز الإبرة في جلدها ويحشو مكانها برسمته بأصباغ كُحل الأثمد.

يدخل بحر بيت من اختارها، ويخرج وقد تزوجها، يتم الزفاف في النهار التالي وعيون الناس تسترق ملامحه، وهي

تتابع زفة العرس من فوق الأسطح، والأهل يغنون له: «يا بحريا أبو ليلة محنية.. خد بالك من الحلوة الغالية».*

يبتسم بحر بتحفظ، وهو يمشي بجلباب عرسه الجديد. عيونه مشتتة حذرة، تحمل ثقل سر كبير. وعند الدار شكر الواقفين وأغلق بابه واستأذن، مُعلِّماً الجميع برغبته في عدم الزيارة. ومر يوم وأسبوع تلو أسبوع والباب موصد. وبحر لم يخرج، وحديث الناس والأقارب عنه يزداد.



يتمدد أبو جميل في فرشته برأس مثقل بالسكر، وفؤاد حزين. ينظر إلى طاقة السقف ويكلم نفسه، كأنه ينعاها: «آه على الدنيا وعلى الأيام يا أبو جميل. لا طعم لشيء، الأولاد يموتون، والنساء تشيب، والخمر خل آسن، آه، يا أبو جميل لم يتبق سوى المرار! أرأيت هوانك في عين مختار؟ قفة من عظام نخرة. آه، يا زمن، آه، يا أبو جميل. لم تنس يوم وسوست للأبيض أن يترك راضي مصلوباً حتى يتعفن ويمسي مثلاً. ومن يومها، وكابوسه جاثم في مناماتك مصلوباً ومقلوباً ينز بالقيح والصدید، يقهقه ويسبك! ذابت حلاوتك يا دنيا، ولم يتبق إلا طعم المرار في الحلق، والموت. الموت، يا أبو جميل، لم تتذكره؟! مختار، والخوف، والموت، مختار، ابن السوداء التي.. آه، يا أبو جميل، وابن عمك، الأبيض، ينز دمه وهو ينظر إليك باتهام صريح. نفس النظرة كانت في عين الولد، مختار. أين سكرة الخمر، لأنسى؟! »

أين التوهة، لأنسى؟! الخمر صار لاذعًا كالخل. أين اللذة؟ لم صار كل شيء بدون طعم؟ أين ثمل النوم؟ وأين راحة البال؟ أيعرف الولد، مختار بالسر؟ وإن كان لا يعرف، فلماذا كانت نظرتة كشهاب حارق؟!



الأطفال يتوافدون صاعدين الربوة، متأهين لعرس جعفر وحسونة. تكنس البنات الأرض، ويرشها الأولاد، ويرشون بعضهم بعضًا في فرح. الشباب يتحركون كالنحل؛ هذا يختفي وهذا يقبل، هذا يصعد وهذا ينزل، يتوافد الناس حتى أمسى البلد شبه خال.



طلب رضوان الليلة إجازة، ووافق أبو جميل ساخرًا من الطلب. ذهب رضوان إلى داره وصحب كوكب إلى العرس، صعدت بمشقة، وظلت ساكنة، حتى رأتها إحدى صاحباتها فأخذتها إلى حلقة الرقص وأجلستها، وعلى إثر دقائق الطبول، أحست كوكب بدم يتدفق في جسدها، فنهضت ببطء مخطوفة القلب بداخل حلقة الرقص، لفت إحداها طرحة سمراء على وسطها، فأخذ جسم كوكب يتثنى حتى اصطاد الإيقاع ليستعيد جسدها مع الشني بعض فتنه. اتسعت الحلقة لتضم لها كل النساء، وأخذت عيون الرجال تتلصص على تقصعها وتغندرها، فرمم ذلك بعضًا من حزنها على نفسها، ولما لاحظ رضوان فتنه

بعض الرجال وعيونهم المتلصصة، دارى ابتسامته وأخذ الفرح
يرقص في قلبه مع دقات الطبل.



لحظة قدم العروسان، انتفضت كوكب تزفهما وهي تتغندر،
وعلى وقع الطبول غنت، وأخذت النساء يخبئن وجوههن،
ويدارين ابتسامتهن عن مغزى الأغنية الفاضح، واشتعل الغناء
والرقص وقد زال كثير من الشرود عن عيني كوكب.



فوق تلة القبور، رأى الميت السماء كحيلة موشاة بالنجوم
اللامعة، الهواء طري ونيس، والصدر منشرح، ورمى الميت
ظهره إلى شاهد قبر، وأخذ يتملّى صفحة السماء في الليل،
ويطلب لقيا الموت، ووقعت عيناه على القمر يتسم فأخذه
الوسن، فغفا.



خليل يجلس وحده في طرف بعيد فوق المصطبة، تشع من
ثغره بسمه غامضة، ونجاة، على غير عادتها، تضاحك سكية.
وعبيدة يسعى في تلبية طلبات الناس ببشر، بعد أن تأكد من غفلة
ولديه عنه، وقد حذراه مما يفعل، فخبأ البلغة التي فصلوها له
على مقاس قدمه، وأخذ يمشي حافيًا كعهده، والبسمه على ثغره
كهلالٍ ساطعٍ.



أثناء انهماك أهل البلد في تناول الطعام، سمعوا ضجة بعيدة أخذت تعلو؛ فانسَل بعض الناس ينظرون إلى البلد من فوق الربوة، أسفل السحب بدت البيوت تحترق، بقع اللهب متناثرة في أرجاء البلد، ورأت العيون المتمعنة أن النار أقرب ما تكون من بيوت الخفراء ودوار العمدة، وتذكر الناس ما حدث لدار قنديل، فقال بعضهم: «هذا غضب الله»، لكنهم تراجعوا وقالوا: «وما ذنبنا والنار عمياء؟!».

ترك الناس ما يفعلون، حتى الجوعى سقط من أياديهم طعام حلموا به ليالي طوَّالاً، الذعر والدهشة في عيون الجميع، وطريق النزول إلى البلد مغلق بنار تفور وتضرب بحمها في السماء، حلقاتها تتصل وهي تصدر موجات كالبرق والناس مشدوهون، كلُّ يحاول أن يرقب داره ووصول النيران لها، الجميع يمدون قدماً ثم يتراجعون، فلا قبل لأحد بذاك الجحيم ليطفئه، العجز كامل في عيون الواقفين، الكلُّ مستسلم، الكلُّ تضرب عقولهم الحيرة: «تُرى مَنْ فعلها؟!».



يلامس مركب المرسى ويتوقف. ينزل منه شاب طويل نحيل على كتفه صرة متاعه، يعبر المدق الوعر، ويرتقي الطريق الضيقة، لتفيق عيناه على جمهرة الناس، وهولهم من الحريق المفزع، يشق طريقه بين الأجساد المتلاصقة، ولما يأتس لوجه عبدة

يسأله عن مختار. ورغم ما هم فيه، ينادي عبدة بعلو صوته: «يا سيدي مختار، يا سيدي مختار».

وتنضم إلى صوته أصوات الناس الذين قصدوا الاستغاثة لا النداء. ومن بعيد، رأت العيون مختار وبعض الشباب يصعدون الربوة، بثياب ملطخة بسواد يشبه القار، وعلى وجوههم ما يشبه اليأس الكامل والحزن العظيم. يتقدم مختار بهدوء حتى يلحظ ملامح الواقف، فينتفض مهرولاً إليه: «عبد الجليل»، ويحتضنه. وإثر هيمنة الحريق على ربوع البلد، يسأل عبد الجليل مستغرباً: «ما هذا يا مختار؟!».

فيلتفت مختار ينظر دون أن يبدو منزعجاً: «كما ترى.. حريق».



من بعيد. فوق الجبل. يقف قنديل منتصباً، يشير على اللهب المتأجج يطاول السماء، ويصيح بعلو صوته في أسي: «ما ذنبها؟!».

18

تَسْمَعُ الميت ديبًا في قلبه، ووشيشًا يعلو وأصواتًا كأنها دق
خافت، حديق وسط الضباب النازل وألتاع وهو يرى الدخان
الأسود ينعقد ثم يتصاعد في أقماع عملاقة، ورأى القمر على
صفحة السماء يتبدل من بدر إلى محاق ويتوارى، وانتصب
الميت واقفًا والسماء تنظمس من صفحتها النجوم.

في لحظة، علا الأزيز ودوّت فرقعات زاعقة، واندلعت هبة
وامضة. وأبصر الميت أمامه الجسر الملتف حول تل القبور
يشتعل بالنار، فهرول يربكه الدهول وقلبه يتوسل الرحمة.

ضربت على عينيه غبشة من سواد الدخان المتدفق كالموج،
فهرول كأعمى، ونزل مذهولًا مضطربًا، اشتبك جلبابه بفرع
شجرة سنط متدل، فانشق مقدودًا إلى نصفين. خلص نفسه
وجرى يستر عورته إزار كتاني معقود بحبل فوق سرتة، وينسدل
حتى ركبته. يهرول وقد نسي الطريق وفقد الاتجاه، دار خلال
المدقات الملتوية بين القبور وشواهد الأضرحة، وتاه، وتعثر
بشاهد قبر متهدم؛ فارتمى على وجهه يصرخ قلبه: «البلد

يحترق». واتكأ على ساعديه وقام يبصر دمًا على يده ودمًا ساخنًا يقطر من رأسه، والنار في البعد تتراقص.

أعمدة الدخان تحمر في وسط البلد، تنقدح في قلبها شظايا من كرات اللهب، تقذف بقبة السماء بعد أن تخترق سقوف الدور الكبيرة، وتهشم جدران البيوت الواهنة. وبدا كل هذا الجحيم الذي يتلظى أمامه وكأنه لا شيء. وملاً قلبه الأمان وشملت روحه السلام. جرى في الشوارع ولهفته أمامه يرتعش وقلبه يقول: «الآن سأراه».

ودوى في الأفق انفجار أقوى من الرعود.



النار جاحدة، عمياء صماء، ولكن ما هذا الصوت؟ وهذا الصراخ من أين يأتي؟! ليس لرجل ولا لامرأة، بل لكائن صغير محصور بين هلاكين. صراخ مسنون خافت، كقطعة صغيرة تخرج روحها المخنوقة. لا، إنه صوت بنت صغيرة قد حجزتها النيران. وبعلو صوت الميت يصيح عليها: «يا بنت، أين أنت؟».

تصنت الميت على أنين البنت وحدد مكانه، حاول أن يمرق من كوة في الحائط، فأعاقه جسده العريض وعظامه الغليظة، حاول، فلسع جلده وتفصدت بالعرق جبهته، وانتابه غثيان من خنقة الدخان، حاول، حتى سقط لاهثًا، ووجهه في التراب يستنشق الندى الرطب، وقلبه يحدثه: «اليوم يومك يا ميت، أن تأخذ بيد صغيرة على عتبة الموت، وتشدها إلى الدنيا».



وحده الميت، والسماء قبة سوداء، لا ضوء غير كرات النار
تندلع من الدور كقوس الشهب؛ إلى فراغ السماء حتى تشظى
ساقطة كالرجوم الحارقة فوق البلد.

وحده الميت، ولم يبالٍ باللهيب، ولا برقص الفارين
وصراخهم عليه كي يجري ويهرب مثلهم، ورغم فرقعات النار
ووشيشها المستعر لم يشغله غير نحيب البنت خلف الحائط
الطيني السميك. وسمع هاتفاً ليس لشیطان ولا لملاك، إنه
صوت في روحه يعلو وقت المحن: «قم، يا ميت، انهض، أنقذ
البنت، هيا، يا ميت».

ووقف الميت يستنجد بالله، ويضرب بكتفه المتعضل باب
الدار المغلق، مرة بعد مرة، لكن الباب صلب عنيد، والبنت
تطلب النجدة من أمها وأبيها اللذين ربما ماتا وتركها فريسة
للقدور. ويعلو الصوت بداخله يستحثه: اضرب الباب بكتفك
ولا تيأس. استنجد بالله واضرب بقوة أكثر. اضرب، ولا توقفك
شظايا الخشب الحارق المتطاير تنغرس في لحمك. اضرب،
ولا تعباً بالدم النازف منك يسيل. اضرب. اضرب.

صراخ البنت يعلو، والنار تخطط مخترقة سقوف الدور الكبيرة
للخفر، وتهشم جدران البيوت الواهنة بجوارها لفقراء أهل البلد،
وبدا كل ذلك لا شيء عند الميت أمام استغاثة البنت؛ فهتفت
روحه: «بأي ذنب تموتين محترقة مخنوقة؟ يا رب عفوك».



النار ترقص، وألستها تتلوى خارجة، تتلمظ من الكوى الضيقة. يا الله، قليلاً من الرحمة، وبضع هنيهات تتيح فرصة يصمد فيها سقف هذا البيت المتجمر العروق، يا الله، متسعاً من الوقت قبل أن يتداعى. يا الله، أعن كي يفسخ هذا الباب الموصد، بالخوف منك مد يد العون للميت، الذي يهرق ما استطاع من عافيته، ها هو يضرب بكتفه التي تهرأ لحمها، يا الله وقتاً! يا الله وقتاً قليلاً.

*

يضرب الميت الباب ضربة بعد ضربة، لكن كل الضربات بلا جدوى، واللحظات الغالية تنقضي، ويعمي عينيه الدخان، واللهب ينفث لظاه من خلف الباب، وتخرق أذنيه فرقعات العروق الثقيلة المشتعلة في السقف، والاهتياج يضرب بدنه. يركل الميت بقدمه الباب، لكن الرفسات بلا جدوى، ترتد في بدنه تخضه، وصراخ البنت يتوارى ويتلاشى، ويرى في لحظة خاطفة كل الموتى الذين وسدهم قبورهم يتراصون جوار بعضهم، تُطل من أفواههم بسمة تعلن أسأها من حاله ومن شقائه، كلهم تحت باب الموت ومسارب الفناء؛ يتسمون، ثم يتلاشى كل شيء!

*

سيني يا ميت وأنت تسأل عن الموت داخل أبواب الفناء، فهل تعجز الآن أيضاً أمام بابٍ لنجاة حي؟!

*

الأزيز يُدوي، والجدران توشك أن تنفجر. بعض الخفر يفرون من النار، الميت يتراجع إلى الوراء يضرب بظهره ناسياً الألم؛ فينفسخ الباب. ينفذ الميت إلى الداخل، وتأتيه الاستغاثة واهنة، لكن الدخان يعميه والنيران تحاصره. وبين الأخشاب المشتعلة والجدران الملتهبة وكرات النار المتساقطة؛ يتمدد على الأرض بجروحه الغائرة، يسند ظهره إلى حجر رحاية مقلوب على عمود وسط الدار، وقد تجسدت في قلبه كل كوايس الهلاك.



كل ما تعرفه عن الموت، يا ميت، هو طلة الفناء، أعوام وأنت تسرب إلى القبور فلا تسمع غير السكون، ولا ترى غير الأكفان المنحولة والعظام الهشة، والسلام التام يحوم في قلب القبور، توصلد عليهم بابهم لينعموا بالراحة وترجع أنت إلى العذاب! الآن، لا قم، يا ميت، انهض ولن تلبث لحظات حتى تلاقي الموت والراحة، انظر، ها هو أمامك، أبيض في قلب الدخان الأسود وسط النار، أتراه؟! ها هو يسعى في صحن الدار عموداً من بياض، مديك والمسّه. جسّه، ثم هشه وأبعده عن البنت، عن الأرض التي تقف فوقها. هشه خارج الباب الذي كسرتة، هيا.



يسترق الميت لنشيج البنت التي تلسعها لفحات الألهبة، فيصرخ: «أين أنت يا بنت؟»، وينبطح على ركبتيه. يمشي على

أربع وينادي بوهن: «أين أنت يا بنت؟!». يزحف ويلصق بطنه العاري بالأرض، ويلمس التراب، يزحف في القاعة الخاوية حتى عمق البيت. الجدران حوله تلين، وعروق السقف تلتوي مسقطاة الجمر الملهب، يتمرغ وينبش جزعاً، يتحسس زوايا الجدران حتى يهتدي. لكنه يحاذر فالوقت قد ينفد، والبيت قد يصير جمرة هائلة تقد من كبد الجحيم لتطبق فوقه.

يتسمّع الميت نشيجاً واهياً متقطعاً يلمس حلمة أذنه. فيقتحم برأسه موعلاً. يتحسس حتى يتلمس اللحم الطري لذراع الصغيرة تحت حاملة الزير، ويتشل الصغيرة بذراعه العارية التي تسليخ جلدها، يضم البنت إلى حضنه ويتكور عليها ب صدره، ويتدحرج متمرغاً نحو الباب المتفسخ، والبنت تلتصق ب صدر الميت العاري، تتعلق أناملها بجلده؛ كقطعة رضية بثدي أمها، الميت يزحف متكوراً على جنبه، يخرج بالبنت من لسعة النار كأعمى لا يرى شيئاً.

ويقذف بنفسه عبر البوابة وسط الغبش المحمر، ويصرخ محذراً البنت: «اجري. اهربي. هيا».

كرات النار تنفجر فوق البيوت بوهج بارق، والميت يعيد صراخه: «اجري، يا بنت. اهربي».

لكن البنت تلف ذراعيها تطوقان عنقه وتقرقر، يضمها، فتتكشم في صدره ثم ترجف شاهقة.



ينهمر الدمع، يمتزج بالدم على خد الميت فتلسعه جروح
وجهه الملتهب. يلثم رأس البنت بالقبلات ويرفع وجهها
ويحلق فيرى على شفثيها بسمة تتسع لكل معنى. بسمة غريبة
فوق قسمات وجهها الباعث للحيرة؛ فيصرخ وهو يرى نورًا على
مقربة منه يختفي!

وتهدلت البنت على ساعده وسكنت؛ فقام يمشي بها بركة
تهشمتم وتورمت. يمشي والنار وراءه تستعر، وجثة البنت ينزلها
من على كتفه ليده، يمشي مذهولًا يجبر جسده المدمم المنهك،
يمشي وقد احترق شعره وجلده، لكن في قلبه ما هو أكثر تعاسة
وأشد ألمًا وحيرة، يكاد يأخذه الخرف، يهذي وهو يمشي عاجزًا،
الآن وعى من هو: «أنت مخلوق غلبان عاجز يا ميت، والموت
مأمور ذليل!».



حروق الميت مؤلمة، وأبواب الدنيا موصدة، كم قال:
«هانت وما بقي غير القليل»، فجرت الدنيا صوب التيه، يمشي
والنيران تتسع وتتمدد وفرقاتها تدوي بجواره وبعيدًا عنه،
يمشي، وأقماع الدخان الأسود تصارع الليل، وصفحة السماء
سوداء بلا نجوم، يمشي، وصرخات الناس فوق الربوة تتوسل،
وهو لا يدري هل زاغ البصر أم عمي؟ ويرتطم جسمه بشاهد
في صعوده إلى تلة القبور، يمدد جثة البنت ويقرفص جوارها،
يتملى السماء ولا ينطق، ومن بعيد يخيل لعينه أن الموت نور

يلفه دخان أبيض وسط دخان أسود في قلب النار. يقسم الميت أنه بعد الآن لن يُسأل ولن يُغوى، ويضرب كفه على التراب، ويسند رأسه إلى شاهد القبر، ويدعو والكلمات تكاد تسمع وسط نشيجه: «يا حي، يا خالق كل شيء حي.. يا مميت، يا وارث كل شيء حي».

الدم على وجه الميت تجلد، والدم من يده يسيل، والنار تأكل في البلد.

19

خبت النار، وأمسى الكثير من بيوت أهل البلد أطلالاً، أما بيوت الغفر فقد أكلتها النيران، وهرب من كتب له القدر النجاة، وحدها المقابر لم تمسسها النار، وكأن أيدي الموتى انتصبت من قلب الفناء، ووقفت في وجهها تدفعها بعيداً!

روائح الحريق في الصدور، مساراتها خطوط مبهمة على بقايا الجدران، أكلت النار عروق الأسقف، فتعرت البيوت التي وقف أصحابها أمامها عاجزين.

في وسط البلد تنتشر الكلاب بالنهار، والذئاب الجوعى بالليل، تأتي من الصحراء، تقتحم أطلال البيوت، وتنهش الرمم، تجرّها وتلغ فيها وتفسخها بأنيابها وأظافرها، وتتقافز الثعالب الصغيرة فوق أنقاض الدور، تتسابق في النهش صانعة فيما بينها ألعاباً، ولحرمة البدن وخشية الله يقوم عبدة والفلاحون بدفن كل من مات من أهل البلد في أكفان طاهرة، بعدها أخذوا يجمعون الجثث والعظام والرؤوس المنثورة للخفر، وفي مقبرة الغرباء يدفنونها، وكانت بقايا جثة أبو جميل المحترقة من بين ما دفن!



في جنح الليل، يخرج مختار متسللاً، برفقة عبد الجليل وحسونة وجعفر، يصحبهم ضوء خافت لهلالٍ نحيل، في ظلمة الشوارع الخرساء يسIRON، وأمام أطلال الدوار المنهارة جدرانها؛ يقفون، ليهمس جعفر: «رضوان، يا رضوان!».

ويظهر رضوان من خلف جدار شبه متهدم، يحييهم وقد التقط بكفه كتاباً متحرق الحواف، ومن تحت أقبية شبه منهارة يتسربون خلفه، وجلال الموت يسكتهم، وعند غرفة تعرّى سقفها يهمس رضوان: «أظن هنا!».

فيسأل حسونة: «أين بالضبط يا رضوان؟!».

فيرد رضوان، باندهاش: «وكيف أعرف يا حسونة؟».

يشعل جعفر فتيلًا، ويهمس عبد الجليل: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}، وهو يرفع المعول وينزل به يشق تراب الأرض، وبعد ضربات قليلة، في أماكن متفرقة؛ ينال منه الإجهاد. فيلتقط حسونة المعول وينبش في أماكن جديدة، ثم ينحني بعد جهد، يشد طرف جلباب، وينحي المعول. يبلع مختار ريقه الممرور وهو يتابع الأيدي تزيح التراب بحرص، ويغمض عينيه حين يظهر الجثمان المتمدّد بطوله وقد كشف عنه التراب!

ينكفي مختار، يتملى الجسد الراقد دون راحة، وعند عظمة إصبع البنصر يطل لعينه خاتم شبه صدى، يخلعه برفق من العظمة المشبوك فيها ويمسحه، وعندما يبدو لعينه لون فصح الأحمر، يقربه إلى شفّتيه، يقبله، ويهمس مـوجوعاً: «أمي!».

وهم يعينونه على النهوض، يأمر بصوت متحشرج حزين، وهو ينظر إلى عبد الجليل: «لننقل الجثة إلى مقبرتنا».

يجمع جعفر وحسونة عظام الجثة، ويودعها عبد الجليل داخل كفن جديد، وعندما ينتهون من كل شيء؛ يخرجون في صمت، يصعدون تلة المقابر، وعند المقبرة التي دفن فيها قنديل حيًّا؛ يشعلون الفتيل، وينقبون الكوة المخصصة للنساء. يوارون عظام جثة أنس، ويغلقون فتحة المقبرة بالحصى، ويكلسون عليها بالطين، ويغادرون قبل أول شعاع ضوء، مخافة أن يعرف أحد السر.



بعد سماع سكيئة بخبر هروب بحر؛ ابتسمت وتحركت في نصف دارها دون خوف من تلصصه عليها. مدفوعة بالحنين والشوق، صعدت بحذر سطح الدار وأطلت بنظرة عطشانة إلى نصف دارها المغتصبة، ورغم أن النار كست حوائطها بالسواد، فإن نخلة وسط الدار نجت ووقفت مثقلة بثمرها. بحنين طفولي ضرب الشوق سكيئة أن تجمع التمر من تحتها، كما كانت تفعل منذ صغرها، لكنها خافت أن تعبر الجدار ويظهر لها بحر من مخبأ مجهول!

يومًا بعد يوم حتى أيقنت سكيئة الواقع الجديد. زالت هواجسها وهدأت مخاوفها، وبدا لها أن رجوع نصف دارها

المغتصبة، على بعد خطوة، فانتظرت هي وفرحة أن يفعلها
مختار ويخطوها!



وسط الظلمة يسند مختار ظهره إلى حائط غرفته المغلقة،
غائبًا مع الوجع. يأكل ما يبقية حيًا، والذكريات تعض قلبه.
يستعيد نفسه في الصغر، بشعره الأجعد وعيونه اللامعة، يهرول
في الحارات مع الأولاد، يسمع نداء أمه بعيدًا، وعند ناصية
الشارع يراها، على ثغرها بسمة تفتت عن أسنانها البيضاء، تقترب
منه، تحنو على ظهره وتترجّاه أن يأتي معها إلى الدار ليأكل.
يخبرها أن حصانه القش جائع أيضًا، فتضحك وتخبره أنها أعدت
له طعامًا. كفها الدافئة تحضن كفه الصغيرة والعيون ترمقها حتى
تدخل باب الدار. يحادثها عن ألعابه وهي تطعمه، وفي حضنها
تضمه. تحكي له عن قرية ركب أصحابها الخيول وصعدوا إلى
القمر. تترنم بأغنية لها وقع حزين، تغنيها بلغة لا يعرفها. لغة
لها بريق كاب كبريق النحاس الأحمر. ينظر إلى عينيها؛ فتمسح
دمعها وتلثم خده. عندما يسألها: «لماذا تبكين؟»، تحاول أن
تبتسم!

الذكريات مّرة، والأسى فادح. عن يمين مختار الكتاب
المحترق الحواف الذي أصبر رضوان أن يقرأه، وفي خنصره
خاتم أمه ذو الفص الأحمر، الذي بفضلها تعرف على جثتها!

كلما تحسس مختار خاتم أمه؛ تخايله صورتها في أبشع
صور الانتهاك. ولا يهدأ قلبه إلا بتخيل أبو جميل مصلوبًا أمامه

يترجى الموت. حزنٌ بغير دمع، أرقٌ ويقظةٌ موحشة، وذكريات
مُرة تنداعى.

في وسط المدينة، على تخوم رَبع المشانيق، يضحك سليم
ويعطيه لفافة ممتلئة بأصناف الكيف، ويصف له دار الأزرق،
والضامنة في حوش الدار الواسعة عجوز بأنفها حلق فضة،
تدخن النارجيلة وتخرج الدخان وهي تتفرس في مختار الذي
يناولها اللفافة، قائلاً: «من سليم؟!».

- ابن حلال، سليم. ولصاحبه هدية.

وتضرب بكفيها فتخرج من الحجرات بنات يتقصعن، على
وجوههن أصباغ، وعلى شعورهن وأكفهن حناء؛ سمينات بضات
لهن أثناء كبيرة وحلمات نافرة، ورفيعات طويلات لهن خصر
مقدود ووجه مسحوب، ومن بينهن أطلت كقمر ليل خجول،
فذهبت عينا مختار إليها ولم ترجعا: «أتعجبك السوداء، يا... ما
اسمك؟!».

وقف مفتوناً حتى إنه لم يرد ولم يهتم، كانت تشبه أمه في
الملامح وتكاد تقترب في الاسم. بسرعة تسلفت أنيسة إلى دمه،
فصارت روحه بدونها ينقصها روح. وسليم، عندما رآها ذات
مرة، ابتسم معاتباً: «أنيستك ليست حسناء!».

لكن آه من غدر البشر، عندما ينقلب الناس إلى ذئاب نهاشة
على من لا مخالِب لهن؟ ففي ليلة شتاء قارس، ذَهَبَ إليها

بشوق بعد غيبة، ولم يجدها، وقالت الضامنة، ودخان النارجيلة الأزرق يتبخر من فمها: «مرضت، وماتت. لا تحزن، عندي أجمل منها!».

وعلم بعد بحث أنها بيعت إلى تاجر كبير عشقها، ثم قتلها في نوبة سكر. شرب مختار النساء بعدها ماءً مالحاً ولم يرتو. طوال بحث مختار عن أمه كانت بداخله أمنية تدفعه ليحيا. أما وقد انكشف المخبوء عن قتلها المشين، فكيف يعيش ولم؟ ولم يجد من عزاء له سوى السلطة التي سلمها الناس له بإصرار وكلهم أمل!



في قلب مختار غصة من أهل البلد، فإن جاءت سيرتهم؛ يهمس قلبه: «أراذل».

ويتركهم يثرثرون بأمانهم، ومن لا يعرف سره؛ يحسب لحيته الطويلة وعيونه الذابلة لأجل البلد وموت بعض الناس بالحريق، وعندما يتكرر قطع خلوته في كل عمل يقدمون عليه؛ يقول بضيق: «عبد الجليل مكاني، فاسألوه».



تعامل رضوان بدهائه الفطري مع الواقع الجديد، استشف أين ستستقر السلطة، ولمن ستجنح، فأخذ يمشي بين أهل البلد،

يحكي عن مختار وشيمه وخصاله، وكلما مدح يستطيب الناس حكيه. يهمس إلى محدثيه وكأنه يفشي سر ما دار بين مختار وأبو جميل، وكيف رفض مختار أن يكون تابعًا يلم الجباية، وكيف صاح غاضبًا بوجه العمدة: اعلم، يا أبو جميل، أن كل الناس أهلي، ولن يظلم أهلي ما حييت!

رضوان ينعت مختار بالعمدة ابن الأصول، فإن نظر له أحد الناس مستغربًا، يرد كأسد جصور: «ومن غيره ينام البلد في حماه؟ ومن غيره يصلح حارسًا للبلد وسيدًا عليه؟!».

عيون الناس تبتسم في وجه رضوان وقلوبهم تنعته بالثعبان. لكنهم مسرورون من أحاديثه، ويبنون على مختار أمانهم المدفونة تحت مذلة القهر والظلم.

بمكر من يُتقن انتهاز الفرص، أخذ رضوان زمام الأمر؛ فهمس في أذن عبد الجليل بفكرة بناء دوار جديد مكان بيت قنديل، ثم اقترح ضم أطلال بيوت الخفر الملاصقة. وشرع في العمل بغية إنجازه بسرعة وعلى أكمل وجه. ولم يطل الوقت حتى اطمأنَّ رضوان إلى مكانته، فاختار بعض الناس ليكونوا حراسًا في الليل خشية انتقام بحر وأقارب أبو جميل الهارين. ظن بعض الناس أنه يتوق إلى شياخة الخفر، لكنه بدهائه الغريزي كان يعي أن مكانته كخفير مسموع الكلمة أفضل وأبقى، من منصب يجلب إلى صاحبه المكائد.

يعرف رضوان أن نقل جثة أنس هو قدس الأسرار عند مختار، ولن يهناً على نفسه ساعة من ينشر ذلك السر، الحق أن رضوان لم يشهد قتلها، لكن بقرون استشعاره عرف، وأوهم الخفر أنه يجهل سر الغرفة التي جعلوها مقبرة لكل سيدة قتلها أبو جميل في هياجه الجنسي. فكما قتلت أنس قتلت حور، مخافة أن يخرج جينها من أحشائها إلى النور، فتبجح بولد من صلب الأبيض وتطلب حقوفاً!



ابتعد عن كوكب حزنها وشرودها، يحكي رضوان، ما كان يفعل الجني معها؛ فترسم الدهشة على وجهها وهي تنصت بكامل جوارحها، وما إن ينتهي رضوان حتى تسبه وتنتعه بالكذاب، فينظر لها ويبتسم متلهفاً لليلة من ليالي زمان.



عبد الجليل ينعم الآن، بالأمان وشيء من السلطة، يؤنس مختار ما استطاع، ويمشي في الناس يتحدث بكلام مسجوع عن الدنيا وبابها الحديد، وسفرها البعيد، وقادمها السعيد. يأسر كلامه المسجوع بعض الناس، ويضحك آخرون وأولهم حسونة. عرف أهل البلد عبد الجليل كصاحب لمختار، فلما أوكل له مختار الكثير من الأمور مثل بناء الدوار وترميم البيوت، سألوا: «من هذا؟ ومن أين جاء؟!»، وتكفل رضوان بنسج قصص تعلني من ذلك الذي أمسى ذراع مختار وسره!

ترك عبد الجليل وراءه المدينة هالكة، لا أحد فيها يعرف من يقتل من؟ ولا من ينتصر لمن؟! لا طعام ولا أمن. والجوع كافر، وعندما لم يجد عبد الجليل أماناً في أي مخبأ؛ قرر الهرب، ولما سأل نفسه: «إلى أين؟»، لم يجد جواباً، حتى عرف بترتيب القدر حكاية الهويس من أحد الصناع، ورن اسم تاج شمس في أذنيه عالياً فهتف: «مختار!».

يمشي عبد الجليل، في الناس ويعلو بصوته: «سأقيم الجدران وأصلح البنيان».

ولأن عبد الجليل لا يفقه في دنياه غير رنين الكلام؛ فتش في أهل البلد فلم يجد أخلص من عبدة، الذي قبل التكليف برضا، وقال: «أمرك يا سيدنا الشيخ». ثم هروا بحماس من ضميره، يجمع الناس. الأجراء والصناع والفلاحين، حتى الصغار والعجائز دعاهم، ليهتف فيهم: «للبلد دين في الرقاب، يا ناس، فهيا نرده».

لم يكَل عبدة من العمل، يهروا من شرق البلد إلى غربه، يعاون بكل ما يستطيع، ويوزع الطعام بالحق على الجميع، وهو يطلب الدعاء للجليلة.

نَقَلَت الدواب على ظهورها أغبطة التراب، وضع أكواماً، عجن بالماء والتبن حتى اختمر، صنع منه الطوب بمقاس واحد، رص وجفف، والبناءؤون ينتقلون من دار إلى دار يرممون ما هلك وبينون

ما انهدم. والناس بفرح يعرشون الأسقف الهالكة، ويكلسون الجدران بالطين. والنجارون يمرون على الأبواب، يصلحون ما يمكن إصلاحه ويركبون بدلاً مما حرق.



يفور دم حسونة المنهمك في العمل، كلما رأى عبد الجليل قادماً ينصح فيما لا يفهم، فيلسعه بلسانه السليط: «يا شيخ، بما أنك لا تفهم شيئاً؛ اتركنا لحالنا!»؛ فيرد عبد الجليل بوجه غاضب، وعروقه تكاد تنفجر من الغيظ: «النصح فرض العارف، يا حسونة».

وحسونة يشيح بكفه في وجه الشيخ المعمم ثقیل الدم، ويهتف مترنماً بسجع مازح: «يا شيخ أبدأ الأليل، رُوح قبل الليل». ويتنفض عبد الجليل مصعوقاً من صفاقة حسونة، فيغادر والغضب يملؤه.



يمر صبيان «الثبيضين» على واجهات البيوت المرممة، يطلونها بطبقة من الجير الأبيض، ويدهنون أبواب الدور بالأحمر والأزرق والأخضر. وبعدهم يقبل الرسامون، يقيسون الواجهة ويرسمون سفناً تعب، وأبطالاً من الذاكرة للشجعان، وفوقهم مختار يرسم عملاقاً.



لم يسأل أحد كيف اقتنصت النار العمياء دور الخفر وأحرقتهم فيها؟! فقط كان سؤالهم الوحيد: «ممن سيتقم من نجا منهم وفر هاربًا بحياته؟». وعندما توالى الأيام والليالي بسلام، لم يصدق الناس أن الخطر انتهى، والبلد قد صار في عصمة أهله. وقد صار له دوار جديد سيتربع فيه رجل منهم، فأخذ الناس يتمنون ويتربون نهارًا جديدًا يشرق!



أبلغت السلطات، فدفع المطلوب وتم الاتفاق، ومن دار الجليلة، خرج مختار إلى الدوار الجديد، ليستلم السلطة التي منحها الناس له برضى وعشم. قبل كف الجليلة ورأس نجا وكتف خليل الذي همس بأذنه: «تزوج، يا مختار».

وأمام الباب لقي حصانًا بنيًا مهيبًا؛ فرمق خليل ممتنًا، وقفز على ظهر الحصان بخطفة واحدة، فتهلل الواقفون وكبروا. على ثغر مختار بسمه ناقصة، والناس أمامه وحوله يصفقون ويرقصون بالعصي.

نزل مختار من فوق حصانه عند باب الدوار الجديد. حيا الناس بكفه، وفي طريقه للدخول إذا بقنديل يشق الصفوف ويتقدم، ليضع كفه على كتف مختار، يقبله ويهمس: «اعدل واعتبر».

ويدفع ابنه إلى داخل الدوار دفعة رحيمة، ويختفي كحلم.



الليل والنهار يتعاقبان، والكل ينتظر.

✱

تنحني حسونة وهو يدخل القاعة الكبيرة وكله أمل، التفت إليه مختار، ووضع الكتاب المحترق الحواف -الذي كان يقرأ فيه- بجواره، وبنبرة جادة حازمة أوصى حسونة بالطاعة ثم فاجأه بتعيين عبد الجليل نائباً للعمدة! هز حسونة رأسه دون كلمة امتعاض، واستأذن خارجاً بوجهه الممتقع وحلقه الممرور. وقبل أن يتلعه الباب ناداه مختار -كأنه يلاعب فأراً- وبصوت هادئ قال وهو ينظر في عينيه: «عينتك شيخاً للخفر، فاحفظ مركزك ودعك من حركاتك!».

لم يكن مختار غافلاً ليعين ذلك الساذج، فالنفور الذي بين حسونة وجليل كان سبباً ليجمعهما في قفص واحد! مختار يرتب اللعبة ويقبض على خيوط السلطة في يده، وهو على علم بقدرات كل فرد، الظاهرة منها والخفية. فرغم إعجابه بمكر رضوان فإنه يسمع له ولا يأمنه، ويفكر طويلاً فيما وراء كل سر يبيحه، وكل قول ينصح به. يأخذ ما يحتاجه ويرمي بما لا يخدم هدفه في جعبة الإهمال. لذا عندما قرأ في عيون رضوان خشية ورهبة من جعفر، أدار الأمر في عقله وارتن إلى الحذر، فأوكل إلى جعفر رعاية الأرض المستولى عليها، وهو على يقين أن متاعبها وشقاءها سيلهيانه عن التطلع إلى ما هو أكبر من المرسوم له.

يخرج حسونة وقد قرر أن يغلب طبعه. يمشي في البلد وعلى وجهه يرسم أمارات الوقار والهيبة. ودون إرادة يخرج من فمه المزاح، فيضع كفه على فمه كتأنيب على نسيان قراره، ويهرب من المكان متصنعاً الوقار.



ينتظر مبروك عطيةً تُقَارِبُ ما منح لحسونة وجعفر. في دار أبيه الضيقة، المنخفضة كجحر فأر، ظل يحلم باستدعاء مختار له، وعندما طال انتظاره أخذ يستجدي ويتذلل حتى ضاق مختار وألقى بالأمر إلى نائبه. فتش عبد الجليل في طلباته فاستكثرها، وأعلمه بتحمل تكاليف زواجه وسبعة قراريط هبة يستلمها بعد أن يكمل نصف دينه. بسرعة بحث مبروك عن عروس، فأشار له رضوان على أرزاق قريبة كوكب، فطلبها في نفس اليوم للزواج فرفضت خوفاً من فضيحة عدم بكارتها، فلما علمت كوكب بالقصة حلفت وهي تمسك سوائف شعرها أن تنتقم من الميت وابنه. زارت أرزاق وانفردت بها، وفي أذنها همست: «بنت أم فض الختم؟!». صمتت أرزاق واصفر وجهها، فأعادت الهمس بوعده مؤكدة: «قولي نعم لمبروك وعندي الحل!».

فهمت البنت وأحست أن بيد كوكب سترها، وعندما أعاد مبروك طلب يدها امتثالاً لنصيحة رضوان وافقت مرحبة!
فرحت كوكب وقالت في نفسها: «سأرد الصفحة لابنك يا ميت!».

يوم الزفاف تصنعت أرزاق الكسوف، وعند كل لمسة من مبروك تضم أرزاق ساقها بفزع وتصرخ، ثلاثة أيام على هذه الحال، حتى خاف مبروك الفضيحة ووافق على مساعدة كوكب. اعترضت سيسبان لكن الظروف جعلتها ترضخ.

على السرير تمددت أرزاق متصنعة الخجل، وبداخلها قالت: «يا ستار!». وبعد إحياءات فاضحة من كوكب، رفع مبروك تنورة زوجته، فراوغت كوكب عيون مبروك ودست لأرزاق ما يشبه حوصلة حمامة محقونة بالدم، وأمرت مبروك أن يدخل إصبعه المعصوب حوله قماشة بيضاء، ووسط صرخات أرزاق المصطنعة. لوث دم الحمامة القماشة، فخرجت كوكب تزغرد، وهي تفرد القماشة المدماة في عيون أهل الدار.

تنهدت أرزاق وهدأ مبروك، وفرحت سيسبان وسكتت شرقاوية، ومشت كوكب وأقارب أرزاق يرقصن في شوارع البلد، وهن يطوحن القماشة المصبوغة بالدم كي يراها الناس.



أرزاق شغوفة بمتاع الدنيا، كرهت مبروك من أول طلة، ومن شدة ضجرها حلفت ألا تهبه جسدها اللين المنحوت بدون ثمن. ومبروك خادم مطيع، فبرغم بخله جاءها بلحم ضأن ليلة، وبعقد من زجاج ليلة، وبتفاحة ليلة، وفي الليلة التي طلبها دون ثمن أعطته ظهرها ولم ترد، رجاها فتأففت. فنام مكدرًا يفكر في صنع شيء يرضيها!

أرزاق تنام حتى الظهيرة وسيسبان تكنس وسط الدار. أرزاق تتأخر في الليل عند قريباتها وشرقاوية تحلب الجاموسة. ولما ادعت أن ظهرها يؤلمها وهي تكنس الدار هم مبروك ليكمل الكنس بدلاً منها! نهريته أمه وتعاركت مع زوجته، فأقسمت أرزاق أن تكون سيدة الدار وحدها، وأخذت تكيد لحمايتها وحماها! ولم تمر أيام حتى همست لمبروك بضيق: «عيونه تأكل أردافي وأنا أتحرك!»، ثم نظرت في عيون زوجها وسألت: «ما الحل في أبوك، يا مبروك!؟»، ثم زمت فمها وسكتت.

يخاف مبروك على أرزاق، لكن ماذا يفعل والدار حجرتان؟ واحدة له ولامرأته والأخرى لسيسبان والميت، وفوق ظهر الفرن في وسط الدار تنام جدته شرقاوية!

عيون مبروك تتابع الميت بضيق وشذر، وما إن يخرج من الدار حتى يهدأ مبروك ويستريح. لأنفه سبب يسبب مبروك أباه، والميت يسامح ولا يرد. وتأتي سيبان وتقول لمبروك بحنو: «أبوك زعلان. صالحه»، فيصرخ فيها: «يا رب يأخذه، وأرتاح!».

كل يوم يذهب مبروك إلى عبد الجليل يستعطفه ويتودد بكلام سمج كي يسلمه القرايط السبع، وعبد الجليل بضيق يخبره: «غداً، يا ولد... بعد الغد، يا ولد... اذهب الآن، يا ولد... ليس وقته الآن، يا سمج!».

وعندما ضاق عبد الجليل من إلحاحه المتواصل نادى خفيراً شاباً وهمس في أذنه بمكان الأرض كي يسلمها إلى مبروك.

تهلل مبروك؛ فحذره عبد الجليل وتوعده إن أزعجه أو أزعج
مختار أو اشتكى!

بصق مبروك على نفسه وهو يستلم سبعة قراريط شبه مالحة
أقصى أطراف البلد، ورجع يلعن في سره: مختار، وعبد الجليل،
وحسونة، وجعفر، ثم لعن الحظ واليوم الذي ولد فيه لأب شؤم
ملعون.



ليس لمحبة ولا لعشق يضع مختار عينيه على فرحة فقط
لأنه يراها الأنسب لتكتمل مهابته، يشق طريقه بعد الغروب على
صهوة جواده البني. يصعد الرهوة. يتبادل الأشواق والسلام مع
نجاة و خليل، ويطلب من الجلييلة مباركتها زواجه من فرحة، فتهاز
رأسها مباركة راضية، ثم تأمره أن يذهب مع أبيه ويطلبها من أمها،
يقبل مختار كف الجلييلة وينهض، وعندما يقترب من الباب يدوي
في صدره سؤال لم يجرؤ أن يستدير ويسأله: خليل أم قنديل؟!

بدا الماضي في صدر مختار ورجاله، مشيناً وحجر عثرة،
في غمرة تنعمهم، أقسم مختار بينه وبين نفسه أن ينكره ويقلب
صفحته أما بقية رجاله فحاولوا أن يغيروه ويزوقوه!

ولدا عبدة يلحان عليه، كي يترك داره ويسكن مع أحدهم،
يستغربان رفض والدهم المستميت، فكلاهما لا يعرفان أن بين
عبدة وجدران داره الضيقة محبة وعشرة. في هوائها أنفاس

أبيه وأمه والذكريات الحلوة والمرة، كل حين تلح زوجته عليه وتخبره عن جمال دار جعفر الواسعة التي وهبها له مختار وهواء دار حسونة البحرية حتى ضاق وقال مهدداً: «لو خرجت من داري ولو إلى قصر سيكون فيه موتي!».

برغم رقابة حسونة ورجاء جعفر، ما زال عبيدة كما هو يمشي حافياً واضعاً البلغة تحت إبطه، يشارك الناس أحزانهم وأفراحهم، ويتقبل المزاح الثقيل بصدر رحب. ويأتي حسونة إليه في الدار غاضباً يؤنبه كلما عرف بأمر: «أيام زمان ولت يا رجل».

وعبيدة يسد أذنيه حتى ينصرف حسونة فيهمس شاكياً لزوجته بصوت موجوع: «الناس أحبابي، وأنا حبيب الناس يا أم جعفر».



ذهب مختار إلى دار سكيئة التي وقفت على عتبة بابها تنتظره وهي تعرف ما جاء لأجله! على وجه سكيئة ارتسمت كل علامات الإكبار، وعلى وجه فرحة ارتسمت كل أمارات الحب والوله، وعقب شربه لشايه، طلب بثقة يد فرحة وهو يخبر أمها بالمهر الكبير وبما أعده للعرس، ويتغير وجه سكيئة فتقاطعه وهي تنظر في عينيه: «ليس هذا مهرها يا ابن الكرام!».

- وما مهرها؟

فأشارت فرحة إلى الجدار القاطع لدارها، وقالت: «تهدم الجدار، وتقتص من الهارب».

هز مختار رأسه ممتثلاً فزغردت سكيئة وتهلل قلب فرحة.

20

ليس الليل كالنهار، ومع أول الليل عُرس من لذة وهناء،
فُعُرس مختار عُرس للبلد.

اليوم عبدة سيد على كل الأعمال، ينهض قبل الخيط الأول
من الفجر، وليس بصدرة غير الرضا والراحة، يأمر صبيان الغيطان
بالتزام الهدوء وتنفيذ ما عليهم من أشغال دون صخب، ومن
ركن ندي في قلبه يرضى بالجلبة والبهجة التي يحدثها الأولاد
وهم يسحبون العجول الذكور لأطراف الساحة الفسيحة، قرب
دار الجليلة، ويوقفونها أمام البشكار، جعفر يساعد بفتوته، يقفل
أنشودة غليظة من الجلد البقري حول كارعي العجل الأماميتين،
ويشد الجلد؛ فتسقط البهيمة على جنبها، ثم يشد سير الجلد
على كارعيها الخلفيتين وهو يُكبر ويسمي. والبشكار يجثو على
ركبتيه، مظهرًا خنجره من وراء ظهره، ويحز لحم رقبة العجل،
غائرًا بنصله حتى يشق الخنجرة، ويخفي خنجره عن عين البهيمة
وراء ظهره تاركًا لحلقوم العجل أن يُخرج الروح ويتنفذ رافسًا،
وقد حقق سنة القاهرة فيه. البشكار يُكبر وجعفر يضحك خالي
البال.



البلد تكسوه سماء رائقة، والشمس تملأ طرقاته بالفرح والأمان. لكن حسونة فقط هو حسونة، نار من المسخرة! اليوم يظهر كدمية الأراجوز، شاربه خط أسود دقيق كحاجب عايقة منتوفة الوجه، فارع الطول نحيل، مصفر الجبهة، محمر الخد، بجلبابه المزهر يمشي يغني:

«قلبي وعاشق دنيته ضحكي وتغريدي.. يا ورد طُيب مهجتي
لقا الحبيب عيدي»*



ويرفع ذيل جلبابه، يعبر الشارع ثم يتوقف، يضرب جبهته بكلوة يده متذكراً تحذيرات مختار فيعض شفته بأسنانه، وبعد وقت يركن لطبيعته ويبطئ أمام دار كوكب، يخاتله ما شاهده زمان في مساءات تلصصه فيهب جنونه يكاد أن يقتحم العتبة وكأنه يسأل عن رضوان يدعوه إلى الفرح، ينتبه إلى العيون التي تحدق في ظهره فيقفز في الهواء تاركاً من كفه ذيل جلبابه صارخاً: «يا رضوان، يا خفير رضوان»، ويؤكد عليه أن يتيقظ، ثم يمضي محاولاً رسم المهابة وهو سائر!

يقف حسونة أمام شجرة توت صغيرة، يقصف غصناً أخضر، يصعد الربوة وهو يقطف أوراقه ثم يرميه في الهواء، يكمل الصعود قاصداً الربوة، يلف بجوار الحيطان العالية، يرى الجليلة ترفع رأسها نازرة إلى بعيد وكأنها لا تراه، يخطف السلام ويمر، يعلو عتبة الدار العامرة، يشم عطر خشب الكرسي العتيق، ينادي

وهو يتقدم خطوات في صحن الدار نصف المكشوفة للسماء: «يا ست نجاة». تأتيه مرتدية جلبابها الأسود المطرز الجديد، فيهمس بكل الحقائق المسكوت عنها وأولها أن مختار ليس ولدها! تقف نجاة مبهوتة. تهز رأسها مندهشة، شفتاها ترتعشان، وجهها شاحب، عيناها زائغتان كأنها ترى أشخاصًا لا يراهم غيرها تتحدث إليهم بحديث لا يفهمه سواها، تنفث الهواء الساخن، ترفع كفها المرتعشة فوق شفيتها، تطلق زغرودة كالصراخ، ودون كلمة تخطو بوهن وخذلان نحو بوابة الدار الكبيرة، ترتقي عتبتها وتعطي وجهها للشمس وظهرها لظل الدار، يلحقها خليل وكفه فوق كتفها، يوقفها راجيًا أن يصحبها، نجاة تُنحي كفه عنها وتغمغم، تمضي وحدها، و خليل يومئ لحسونة أن يتبعها وهو يهمس بقول مختار: «هذه الحياة لا تستوي بغير السفهاء، وهذا الولد الملسوع، حسونة، لديه من الحماقة وفتوة الجهل ما يجعله ينجز ما يعجز عن فعله الراشدون».



يقف خليل جوار مقعد الجليلة يتملئ السماء ويعجز عن تصور الوقت الذي تتضح فيه حقائق الموت والغياب لنجاة: «لِمَ تاهت خطاك ولم تفعل شيئًا، يا خليل؟».

ويقترّب خليل من حافة الربوة يتملئ ماء النهر وهو ما زال يكلم نفسه: «افعل شيئًا، يا رجل».



نجاة تمشي مذهولة تتساءل: كيف لقيت حالها مبسوبة؟ وروحها منشرحة؟ وصدرها يتنفس براحة وعافية في نور الشمس؟ كيف رأت أن الدار الكبيرة ليست سوى جُبَّ استكانت إليه طوال عمرها المفقود؟ كانت قد قررت أن تخرج كل يوم، تمشي في نور الشمس باكرًا قبل كل الناس، لتفض أوجاعها أمام قبر الأحبة! مشت نجاة خائفة على سرها الصغير، مع الخطي ضاع منها الذهول كما يضيع الضباب في قلب النور، وأدركت أنها كانت كل يوم في الصباح ترتق خيوط قلبها المفتوق ومع ظلام الليل تراه يتقطع فيسهدها، يدميها الوجع والحسرة، مشت تجادلها الأفكار حتى وصلت إلى دار سكينه، تنظر ولا تتعرف على أحدٍ ممن يلقون السلام عليها وحسونة يرد عنها التحية!



تتمطى كوكب وتنقلب على ظهرها فوق فرشتها الدافئة، وتحس بنفسها رائقة، تخلع أرديتها الناعمة المزوقة وترسم يومها وهي عارية، تتحسس جسمها وتهدهد استدارته، وتشهق وعيناها تبرق، تلحس العسل الذي نَزَّ عن شفيتها، تقوم بتجهيز حمامها وعطرها النفاذ، تختار ثوبها الأسود اللاصق. في المرأة تحدث صورتها: «آه، لو كانت الدنيا عادلة لتزوجت عمدة يا كوكب، جسمك منحوت، ونهدك تفاح، وخذك رمان».

ثم فجأة يكتسي صوتها بالحزن وتساءل نفسها وتجيّب: «كم رجلًا عرفت؟ كثيرين كثيرين، كم مرة فرحت؟ قليلٌ قليل، كم

ليلة تمتعت؟! ما المتعة؟! . تتيه في الشرود قليلاً حالمة بكلمات
محبة ودت أن يقولها لها رجل دون غرض، تفيق على حقيقة أن
هذا الرجل أبداً لن تراه!

✱

تسلل نجاة من الصخب، وتظل تمشي حتى أول تخوم
الصحراء، تنصت بخشوع، لصوت رجل شائب الرأس ينشد
وهو يجلس على جزع نخلة ويدخن، يعلو صوته العذب بقوس
الأفق المفتوح:

«ما هب نسيماً من جنوبٍ وصبا
إلا إليكم حن قلبي وصبا
لله زمان بين لهوٍ وصبا
ولي فقيداً أورث القلب وصبا»✱

✱

ويرتعش صدر نجاة، تبكي وتسير خطوات لترفع موالها
للخلاء دون خجل:

«أقوم من النوم عيني تبكي
على حبيب كان مني وراح مني
أكلمه بالأسى ما كان يرد عليه

يضحك ويفرح لكن ساعة يختلي يبكي»*

✱

تجلس على الرمال، وحسونة يتوقف بعيداً عنها، يلعن النهار الذي رآها فيه.

✱

حانقاً يقف مبروك، في وسط قراريطه المالحة مدرّكاً دوام بوارها واستحالة استزراعها، يصيح: «استغفلوني، أعطوني قطعة ملح، لن تُنبِت حتى الكلاء، كلهم يروني صغيراً. مختار، وعبد الجليل وجعفر، وحسونة، الكل يضحك على مبروك، المغفل، ملعونة الأرض وملعون البلد»، ويبصق على الأرض المالحة، ويواصل لعناته، وينفض جلبابه ويستدير عائداً إلى الدار، يرى أباه يتربع جالساً، فيمر مقتحماً الزريبة. تتبعه جدته شرقاوية، تربت على كتفه رافّة بحاله: «ما بك يا «مبروك»؟».

دون أن يلتفت إليها يسأل: «ماذا يريد مني الناس؟».

- مَنْ يا مبروك؟!

- كُلّ الناس!

تزدرد شرقاوية ريقها ودون وعي لحنقه تُكرر عليه شراء جلباب بدلاً من ذلك المُرقع الذي يلبسه أبوه. ينتفض مبروك ويهتف: «أما زال المجنون على جناحه!».

وعندما يستعيد كلمات زوجته المحرصة على أبيه انفلت
وينقض على أبيه جاذبًا طوق جلابه وأبوه مستكين صامت ينظر
إليه غير فاهم. جاءت سيسبان مذهولة، وشرقاوية تحاول واهنة
أن تفصل بينه وبين أبيه، حتى تصرخ سيسبان صرختها الممتدة
فيفلت عنق أبيه صارخًا: «أقسم بالله، لا عيش لك بعد اليوم بيننا
يا مجنون».



بأقدام واهنة وقلب متعب؛ مشت نجاة عائدة حتى عتبة دار
العروس تلقاها سكيئة فتلقي جسدها في صدرها وتبارك.

تعرف نجاة أنها ليست مخبولة، لقد صارت كارهة للشفقة
التي يبدونها نحوها تدرك أن بقلبها حنينًا يملكها و يشق قلبها
نصفين فتبكي وهي تتجه إلى حجرة فرحة هامسة: «يقولون ساعة
الفرح: هذا دمع الفرح، وساعة الحزن: هذا دمع الحزن، لكنك
تعرفين، يا نجاة، كيف يكون الحزن، وتدركين معنى الفرح».

تقف فرحة لمرأى نجاة في ثوبها البهي تتملاها نجاة طويلاً،
وتقول: «يا حلوة يا فرحة».

تفتح ذراعيها، وتحتويها في حضنها، وتقبل جبينها، وتبتسم.



شرقاوية لا تملك من الأمر شيئاً، غير أن تسأل: «كيف
توحش الولد مبروك؟!».

وسيسبان هي الأخرى تخاف أن يشملها جحود ابنها،
وحدها أرزاق أحست بالريح! أرزاق تعرف أن للدنيا وجهين
فقط، مالكا ومملوكا، وهي ملكت مبروك. تحركه كيفما تشاء،
وبرغم أنه عاد دون هبة تستحق ذله لكنها ملكته، وملك الدار،
ماذا تريد بعد أن صار البيت في قبضتها، طرد أباه، وصارت أمه
مهزومة وشرقاوية طائعة.



ولأن الليلة ليست كأي ليلة يأتي حسونة ببرميل خمر معتقة
من الضفة الأخرى، يقسم أن يسقي كل أحبابه، يضع الخفراء
البرميل في ركن بعيد بعد أن يشرب كلُّ منهم قدحا. يدخل
الشراب لاذعا في صدورهم، تنشق الأرض عن رضوان، بمكر
يملا الأقداح للخفراء مبتسما بعد أن زادهم الشراب حمقا
وبدا الجميع في نشوة ممتعة، رضوان معهم يتسم ولا يشرب،
يعزم بالقدح تلو القدح وهو يخطط ليلته المتخيلة السعيدة مع
كوكب.



بلا غضب ولا نقمة، بلا كلمة واحدة يحمل الميت صوته
تحت إبطه وأثر قبضة ابنه على عنقه، يخرج من الدار. تعب من
أصوات الصراخ، وشفقة أمه، ساكتا يمضي مرتاحا أنه صار حرًا،
يصعد تلة المقابر، يمشي خفيفا بين الشواهد، بحوش صغير
نصفه ظل ونصفه نور يلقي صرته على بسطة طينية ويجلس،

يشعر بهدوء وسكينة بعيداً عن صخب الناس والدنيا، تُمحي كل الأسئلة ويبقى سؤال واحد في قلبه عن الفرق بين أماكن الحياة، وأماكن الموت؟ يمد يده يداعب بأطراف أصابعه ضوء الشمس، يتذكر وطأة كشف الوجه المخبوء وليالي الأرق، يتملى جلده المحترق، ويرى وجه البنت المستسلم لحظة الحريق، والدخان الأبيض والنور الذي رآه، ينسل الظل ويتمدد فيحتوي سماء الحوش الذي قرر أن يتخذ سكناً وأرضاً. في ركن الحوش يضع الميت رأسه فوق صرة متاعه وينظر إلى السماء ثم يغمض عينيه مرتاحاً.



مبروك غير نادم على طرد أبيه؛ بل سعيد برضا أرزاق عنه، يخبرها بعدم رغبته في حضور عرس مختار، لكنها تروض غضبه وتوسوس له بأن يبدي محبة ولو من وراء ظهره لمختار. يذعن مبروك ويرتدي جلبابه ويذهب إلى العرس ببسمة متكلفة، قرب الدوار يراه حسونة فيناديه كاظمًا غيظه بعد أن سمع بخبر طرده لأبيه، يُفاجأ مبروك بجلباب أخضر ممزق بين يديه، يحاول الاعتراض والرفض؛ فيجبره حسونة على ارتداء الجلباب المهلهل صاغراً، ويُزفُّ فوق رأسه قرطاسٌ من قماش مرقع، يَربُطُ له حسونة حبالاً حول خصره، يعطيه الدُّف، يقبل أحدهم فيلون وجه مبروك باللونين الأخضر والأحمر، وبقماشة محروقة يضخم حاجبيه، يضع وشميتين على خديه، مبروك مستسلم لا

يعرف من سلبه كرامته؟ مختار أم حسونة أم عبد الجليل؟ ويهتف في نفسه بحق: «كلهم يا مبروك، كلهم».



تخرج كوكب في كامل زينتها مخبأة أعوامها الخمسين، أملاً في أن تكون بهجة الفرح وحديث الرجال والنساء. تتمنى أن تشتهيها عيون الناس الذين رموها بالخبل، وأن تُهيج عيون عشاقها القدامى فتقسم: «الليلة سيعرف الجميع أن كوكب لا تزال ست الستات وتاج رؤوسهن، الليلة ستغار كل النساء منك ويتمنين أن ينعمن بما تملكين، الليلة ليست ليلة فرحة، الليلة ليلتك يا كوكب».



حافية مهمومة؛ تخرج شرقاوية من الدار، لا ترى أحداً في طريقها، ولا ترد سلاماً على أحد، تصعد الربوة وعند أقدام الجليلة تجلس مهدودة، تستنجد: «ابني يا خالة»، وتنفلت منها الدموع.

تلمس الجليلة بعصاها كتف شرقاوية وتأمّر: «اذهبي الآن إليه».



فوق حصانه البني يخرج مختار من الدوار، يرفل في عباءة بيضاء بهية، وإلى دار عروسه يمضي، يتبعه الهودج المزين

والرجال الستة يضربون بالدفوف في إيقاع ما إن يتغير حتى يُعاد، وما إن يلمح أحدهم مبروك حتى ينفجر بالضحك، يقرصه هذا، يلعب الآخر بحواجه كنوع من السخرية. سيسبان التي خرجت تبحث عن حمايتها ما إن رأت ابنها حتى ضربت كفاً بكفٍّ وقالت بأسى: «العوض على الله!»، وتسلفت من بين الواقفين مخزية.

ينزل مختار من فوق حصانة وسط زغاريد النساء أمام دار سكيته، يقترب خليل منه، يسرع مختار مقبلاً جبينه فيؤكد عليه خليل: «فرحة أمانة، إياك ألا تصونها».

يبتسم مختار ويهز رأسه معلناً استجابته، يتحدث خليل بطلاقة عن طيب العشرة والمحبة، يدعو فيؤمن كل الواقفين، يؤمن مختار ويقبل كتف خليل ورأس عروسه، يتحركان إلى الخارج وسط دوي طلاقات الخفر ودقات الطبول والغناء.

تتربع فرحة بداخل الهودج المزين، يعتلي مختار حصانه، يسلمه عبيدة لجام الجمل، يعلو الغناء، وترش الأيدي الملح على الهودج، وفوق رأس مختار، وأمام باب الدوار، تدق الطبول، وتدوي الطلاقات، وترقص الخيول لحظة أن يحمل مختار عروسه بين يديه، وسط استغراب كل أهل البلد لهذا.



على حرف السرير تجلس فرحة، يشملها الخجل والارتباك، يمد مختار يده يحتوي بكفه الكبيرة كفها الدافئة المرتعشة، عيونه

تستعيد ذكرى أنيسة وعيونها تتلألأ بنور العشق والوله، يحتويها في صدره، تتنفس وتهمم بكلمات لا تبين، لكنها مترعة بحلاوة لا توصف، قبالتها ضئيلة لكنها كالشهد، همسها خافت لكنه أسر كزقزة عصفور الجنة، من فرط سعادتها وهي بين أحضانها بكت!



ينزوي مبروك بعيداً عن صخب الفرح، ينزع الجلباب الأخضر المهلhel وينظف به وجهه، يتملى الألوان التي علقت بالجلباب، يدرك أنه كان مسخرة الفرح ومسخرة الناس والبلد كله، يسأل نفسه كم يحتاج الناس من وقت كي ينسوا؟! يهمس: «الناس لا تنسى شيئاً، يا مبروك، خاصة إن كانوا هم صانعيه».



من بعيد تظهر لعيني شرقاوية الشواهد فوق تلة المقابر العالية، تتنهد وتهمس: «عمر ك طويل وحزنك ثقيل، يا شرقاوية!».

تمشي صاعدة تلة المقابر بقلب واهن، تصلها أصوات الزغاريد متقطعة، لكن دوي رصاص الخفر يفزعها، ذيل جلبابها الأسود يتعفر بالتراب، تعلق بقدميها الحافيتين كور الشوك، تفرص، تنزع الشوك من كعبها وتكمل الصعود.

نصف غسق، نصف قمر، أول الليل، الرهبة قابضة، تناسى روعها وتكمل الصعود غارسة خطاها الحافية وسط الصبارات

البرية، تتملى شواهد القبور، تنادي بخفوت متهيبة السكون،
تتذكر بخوف أنها لم تُسَلِّم، فتتوقف واجفة وترفع صوتها:
«السلام عليكم يا أصحاب الدار».

تسير ببطء، تتوقف أمام فتحات الأحواش الصغيرة، تتملى
داخلها عليها تجد الولد، تسلم وتسمي القبور بأهلها، في فتحة
الحوش المظلل تراه راقدًا على جنبه، متكئًا على يمينه، رافعًا
وجهه إلى السماء، عيناه تحاوران القمر، تقترب منه، يلتفت
إليها بعيون مبللة. تتملاه وتدمع، ينهض وهو يأسى لحالها،
يمد ذراعيه ويضمها إلى صدره العريض فتتوارى بين ذراعيه
وتجهش، دون وعي تهمس: «آه يا كبدي، يا عبد الحي!»؛ فينظر
لها الميت مستغربًا.

تربت شرقاوية براحة يدها على صدر ولدها وتبتلع الدموع،
تقعد على الأرض وتمسح وجهها بشالها المهلهل وتهمس
بسرها: «مات قبلك إخوة كثيرون، أبوك وهبك للموت، وأسماك
عبد الحي، وأنا قلت يا بنت يمكن سيدنا ملك الموت يعرف
الخلق بأسمائهم فناديتك أمام الناس والأقارب الميت، خبأت
اسمك عنك، ورميت على أحزان أخوتك رمال البحر وتراب
النسيان». تتسم شرقاوية وتكمل: «واقرب الموت منك مرة
بعد مرة وأنا أخفيك بعيدًا عن الدار، وفي مرة ألقيتك بداخل
قبر جديد مفتوح، وتفرصت أسد فتحتة بظهوري، أتعرف مات
كل ولد اسمه عبد الحي بطول البلد وعرضه، لا أحد اسمه عبد

الحي عاش إلا أنت. ولا أحد يعرف اسمك إلا أنا والجليلة، يا كبدي، وأنت عشت وكبرت ونسأك الموت يا عبد الحي».

يقوم الميت، يحس بطراوة هواء الليل، يتسع صدره ويفتح ذراعيه، يتسم ثم يضحك لنصف القمر الذي ينير السماء، ووسط النجوم اللامعة ينطق: «أنا عبد الحي»، وشرقاوية ترتجف خوفاً عليه دون أن تدري من أين يأتي كل هذا الخوف والوجل.



تسلل كوكب بنعومة منزلقة بين أجساد الرجال، ينزل الفرسان عن خيولهم ويتعدون بها إلى طرف الساحة، الراقصون بالعصى يهمدون في أماكنهم وعيون تنغرز بلحم كوكب وهي بمنتصف الحلقة تقف وتضحك بغنج، تهز خصرها بخلاعة، فيهب الشره في أصلاب الرجال.



فرحة بين ذراعي مختار عود نعناع طري، وجهها كالبدر، وعلى ظهرها تنسدل جدائل الشعر الغزير المعطر، بعينيه المتخدره يتملى خجلها، تبسم وهي تذكر لعبة صعودهما إلى السماء فوق حصانه القش، تذكره؛ فيضمها بيديه كعصفورة ودیعة تتنفس، يضمها فتشقق، يأخذ شفيتها بفمه فيملؤه الدفء، وعندما تهمس له بحبها، يسكت محاذراً التورط في العشق!

الغرفة واسعة، أرضها مغطاة بالأبسطة، في وسطها السرير بأعمدة نحاسية، وهما في قلبه عاريان إلا من ستائر تلف

العمدان. ضوء المصباح يرتعش، والصمت كلام، فرحة شفافة
كماء زلال ومختار عطشان لأي ماء، روح فرحة ترفرف بالأمان
المشتهاة، وروح مختار مثقلة بالجراح والندوب.



يأخذ خليل كف نجاة، ويبعدان عن صخب العرس، تلتفت
إليه كما لو أنها تراه لأول مرة، تسري في روحها سعادة لم
تعهدا وهو يصحبها، لم تسأله إلى أين؟ امتثلت طائعة، أخبرها
بما كان يخشى أن يقوله لها يوماً عن ضياع الولد وموت صفية،
وهي تنظر لعينيها راضية وكأنه بما قال قد رفع عن صدرها
همومه، يطبق خليل على كفها برقة، ثم يبتسم بأسى ويدمع،
لتختلط دموعها ببسمة بريئة وهي تسأله: «كيف حالها الآن؟ هل
كبرت؟»؛ فيخبرها أنها صارت ملاكاً لا يشيخ. وبلطف يسألها
إن كانت تريد زيارتها فتهز رأسها بالقبول، وهي في أوج سكينتها
ورضاها، ينظران إلى بعضهما ثم ينظران إلى الطريق، ويمضيان
معاً كفها بكفه.



الخمرة ملكت الرؤوس، شرخت الأدمغة، عبأتها
بالخيالات، فتحت القلوب، عبثت بأهوائها، فضحت النفوس
على شهواتها، كثير من انغوى، وقليل من نجا، جليل وعبيدة
وجعفر غادروا مبكرين، مكتفين بالشبع من اللحم دون شراب،
أما الذين انتظروا وليس في نيتهم الشرب؛ فذاب تمنعهم، بعد

أن رأوا الانتشاء، وألق الوجوه، واشتعال الدم في العروق التي امتلأت ونفرت بالجباه. بعيونهم الدنيا تلونت، وأصبح الليل بهيًّا، وحلا السهر.

يتلمظون اللحم بالشفاه المبتلة بالشراب، وبين كل ضربة سكر وأخرى ينتفض أحدهم ويهلل باسم مختار في نشوة فيهلل الجميع وراءه: «زينة الرجال»، ويقهقهون ويحلوا السهر.



رضوان بعد أن أجبره حسونة كي يشرب يتعد بنفسه بعيدًا متربعا فوق جذع شجرة توت دون أن يعي كيف اعتلاها؟! يرفع الطاقية عن رأسه الساخنة، ويهفهف فوق صلعته، وتتجسد له خيالات الليل نغمًا، وكوكب فوق سرير من ماء ترقص عارية، ومع كل ضربة سكر تهف نسمة رطبة على وجهه، فيبرق بعينه ويحدق ويصفق بيديه مشجعًا: «يا دلع، يا دلع».

العيون مشغولة، والرؤوس نشوانة، والشفاه تتلمظ، الكل انفلت من قيد الكبت وأغلال الرزانة مخافة الخطأ، الكل انفلت من ضجر الحياة وتعب الشقاء، تتمايل الأجساد مع النغم، وتأكل العيون جسد كوكب الذي يتمايل مع إيقاع الطبل، وضوء القمر رقيق يكشف ولا يجرح، البطون شبعانة مليئة باللحم، والعقول في لذات الغفلة منشغلة بالخدر الجميل، الليل ونيس، والسهر حلو بلا تفكر في الغد، لا أحد يعبأ بأحد، يرتعون في خيالاتهم وكأن الدنيا ملكوها بين أيديهم، وكوكب تملأ المكان بفتنة غاوية

تلاعب النغم، نهذاها لعوبان على صدرٍ من مرمر، وذراعاها
من عسل، وقبتيها من لحم مشقوق عن نهر شهد، الغناء يعلو
والصوت حارق:

«قلبي يحبك يا أبو الشال منقوش، حل العمامة وطوح
الطربوش»*

فينزعون شيلانهم وعمائمهم يرمونها ويقهقهون.

✱

تصمم شرقاوية ألا تفارق ابنها، فيحضنها ويترجاها أن
ترجع، تبكي فيمسح دمعها وينهضها مودعاً، مرغمة تفارق ابنها،
على وعد أن تأتيه كل يوم، تنزل التلة، وحدها، بخطواتٍ بطيئة
محاذرة، تتلفت خلفها وتقف لتنصب ظهرها، وجهها يتملئ
السماء، وشفاتها تدعوان: «سلم يا رب، سلم».

يمضي الميت بين شواهد القبور يفكر: الموت مقدر يا
ولد ومكتوب، حتى العلل لا تنهي حياة، الشباب يموتون وهم
يضحكون، والعجائز ينظرون ويتنظرون، الموت سيد والمَلِك
يختار، آاه... يا عبد الحي، لكل شيء موعد موقوت.

يمشي شاعرًا أن سؤاله كان بلا معنى، وأن شغفه كان ضالاً!

السماء تقفل قبة ليلها على المقابر، وهو مشتاق إلى النور،
وليس في قلبه نقمة على أحد، بل يحمل جميلاً لمبروك أن
حرره. يخطو عبد الحي وخیاله أمامه يتمدد، يتسمع في الصمت

همسة ود، ويبصر بين شواهد القبور طيفاً، ويسمع حديثاً مختلطاً
بنهنه بكاء لرجل وامرأة في قلب ظلام الليل، فيقترب ويسأل:
«من أنتما؟!»، ويتحشرج صوته وينكتم، عندما يلمح كف رجل
تمسح عن عيون سيدة دمعها، ويهتز على صوتٍ رخيمٍ أسيان
يجيب: «أنا خليل يا ميت»؛ فيرد لأول مرة بصوت جلي: «لم
أعد الميت. يا سيدي خليل أنا عبد الحي».

يتركهما ويمضي بين الشواهد حتى حوشه الصغير الذي
يسكنه. يود أن يعود إليها ليخبرها أن الدنيا طريق توصل إلى
راحة بلا تعب ولا حسرة ولا فقد، لكنه كالعادة يهنأ بصمته.



تحت خدر السطل؛ يختلي حسونة بكوكب بعد أن جن
طوال مراهقته من فتنها. يطيل الحديث ويطلب الوصال، تجيب
كوكب بما يوقد شهوته، وعندما يحاول أن ينفرد بها وسط النخيل
جانب الساحة تراوغه وتتدلل فتزيد فتنها وهي تغادره متقصعة
بميوعة تشي بموافقتها على الوصال. تنادي على رضوان؛ فيقبل
بعد وقت، يسيران في الشوارع شبه الخالية ويدخلان الدار، لتريه
كوكب ليلة هنية لا تنسى.



في الساحة يفتح النوم آباره، ليرتمي فيه كل السكارى،
وفي عمقه يرون أنفسهم تحفهم الأحلام التي يستفيقون منها

والشمس تحرق أقميتهم، ينهضون، ينفضون ملابسهم ويستردون
وجوههم، ليباغتهم خبر سرقة كرسي الجليلة العتيق من أمام
الدار الكبيرة!

جعفر غاضب، وعبد الجليل يلم الناس ويرفع كفيه يدعو
على السارق طالبًا من الله أن يعجل بكشفه، وعبيدة حزين على
حزن الجليلة، أما حسونة فيذهب ويهمس لمختار من خلف
الباب يخبره، فيقوم مختار من مرقدته متجهماً، يبصق في الهواء،
ويسب ويأمر.

21

تجلس الجليلة على المصطبة دون راحة، تُحرك طرف عصاها، تتلمس النور. وجهها إلى النهر وعقلها في الذكريات، كم من الغرباء جاؤوا وهيمنوا؟ تتخيل وجوههم المتحدية عند وصولهم، وأقدار هزيمتهم في ليلهم الأخير، ماء النهر يجري، والسؤال كموجة لا تنتهي: لمن الرسالة؟ أليها أم لمختار؟ للكرسي حنين وذكريات، من خشب الأبنوس فُصِّل، وبالأحجار الكريمة رُصِّع صدره ومسندته، ومن القطن الهائش مقعده احتشى، يقف شامخاً في مكانه، شاهداً على كل من أتى ومن ذهب، يؤرخ لذاكرة البلد، ورفيق انتظارها الطويل.

تحبس أسئلتها المؤرقة عن فقدانها الموجه، وتنهض على مهل، تجمع من على الجسر بعض العيدان الخضراء، وشعاع الشمس يخيل وجهها الحزين، تلوك عوداً بفمها الخالي من الأسنان، وتهمس: «اخلف ظنوني!».



كل الناس استيقظوا على قلق، يفكرون في الأمر، تصيبهم
الرغبة، فيُسَكِّتُون مخاوفهم ويهمسون بيقين: مختار لها!
وينتظرون فعله.



يجلس مختار غارقاً في حسيةٍ عسيرة، عله يهتدي إلى الفاعل
الذي تجاسر ليضرب بذلك الأمان، تُرى أيكون بحر؟ أم عصبة
ممن نجوا من الحريق من رجال أبو جميل؟ هل لهم عيون في
البلد تدعمهم بالأخبار؟ وأين يختبئون؟ أفي متاهة الصحراء؟
أم في كهوف بمتاهات الجبل؟ أم يترقبون في الضفة الأخرى؟

المعركة مُربكة مع عدو خفي، يرصد ويقنص ويختفي.
مختار ليس بغافل ولن يكون -للحظة- هو المهزوم، يفكر أن
يكنم لعدوه؟ وينسج بخيوط الدهاء خيَّة! علَّ غريمه يأمن،
ويعود ليضرب فيقتنصه، الآن عليه أن يخبي النار التي بداخله،
ويرسم ابتسامة طمأنينة كاذبة على وجهه للجميع، لا فرق بين
عدوٍ وحبيب، ابتسامة تجعل منه خصماً هيناً، لكن هيهات أن
يكون ذلك؛ فمن هذه اللحظة عيونه لن تنام حتى يقبض على من
تجرأ، ويسحبه ذليلاً مُهاناً للموت، وهتف مختار في نفسه أمراً:
«لتكن من هذه اللحظة أمكر من الثعالب، وأخبث من الذئاب!».
وبدا له البلد هيناً في إسكاته. إنه يعرف أهله، بدُفٍّ يجتمعون،
وبزعقةٍ يهربون، وانتبه على صوت فرحة، وهي تتقدم والبسمة
تملؤها، الحق أنه يراها ولا يراها، فمن كانت معه بالأمس ليست

فرحة بل أنيسة التي فقدوها، وأحس مختار بأنامل فرحة تلمس كتفه، وهمسها يطن في أذنيه: «أحُبُّكَ».

يبتسم لها وعينه شاردة، وينسحب حامداً الصدفة التي جعلت الخادمة تنادي عليه، تعلمه بحضور حسونة، تُوصدُ الحجرة عليهما، يجلس حسونة مُتَيْقِظاً، يُنصت لأمر مختار الذي لم يأت صريحاً: «أله الناس بحكاية، وأيقظ خفرك بالحذر، وأطلق عيونك في الشقوق».



يخرج حسونة يرتب تفاصيل الحكاية على هواه، يجمع أناساً، ويصرخ يخبرهم بثقة وثبات: «ربما كانت السرقة من أفعال الجن، يا ناس».

ويزم الناس الشفاه، ويشيحون بالأيدي، فيباغتهم حسونة سائلاً باتهام: «هل تنكرون حياة الجن بيننا؟».

وتتغير وجوه المعترضين، فيصيح في أقرب خفير أمامه متصنعاً الغضب: «أحضروا الراقي صانع الأحجة من بيته في الحال!».

والراقي كهل مطيع، كل عمله أن يقرأ قصار السور على الصغار، ويتمتم بالدعاء للمرضى، ويقبل أي هبة! فيرفع الناس أكفهم ويهمسون باستغراب: «ما للراقي بالأمر الجلل؟!»، وتُسمع بعض أصوات الهمهمات وأسئلة التعجب! ولا يمضي

وقت حتى يجيء الراقي، وكأنه كان ينتظر في مكان قريب:
«أمرك يا عم حسونة؟».

وبلهجة أمرة يعلو صوت حسونة: «نريد أن نعرف: هل
سارق الكرسي إنس أم جان؟!».

يهز الراقي رأسه، وينظر إلى السماء بوجه مصفر، ويقول:
«الأمر صعب، يحتاج وقتًا وصبرًا، و...».

فيقطع حسونة تهتة الراقي سائلًا: «أتقدر أن تعلمنا من
فعلها؟!».

يصمت الراقي، فيشجعه حسونة: «كل ما تطلب مجاب فلا
تخف».

وفي عيون حسونة ينظر الراقي بخوف، قائلاً: «الأمر أكبر
من قدرتي».

فيسأله حسونة: «ومن يستطيع أن يجيبنا بيقين؟».

ينطق الراقي اسم أوجا جلبي بخوف، مؤكدًا أنه لم يعجزه
أمر قط؛ فيلتقط حسونة كلامه ويشير إلى رضوان، وبصوت
مسموع يقرر: «سأبعث له من يعرفه كي يخبرنا بالجواب اليقين».

ويمسك حسونة بكف رضوان، ويقول مخاطبًا الناس:
«ادعوا لرضوان أن يوفقه الله في سفره، يا أهل البلد!».

يصيح القليل من الناس، يدعون لرضوان أن يوفق في

مسعاه، ويضرب آخرون أكفهم على ما يسمعون. يزداد الهمز واللمز بين الناس، ورضوان يرمق حسونة بعين تخبيء نقيمتها، وهو يسمع من الراقي وصفًا للمكان الذي سيسافر إليه. فيقرر حسونة بسرعة أن يكون سفر رضوان غدًا في الليل. ينسل رضوان من بين الواقفين في ساحة الدوار دون اعتراض أو قبول، وفي طريقه إلى داره، يسب جنون حسونة ويسأل نفسه: «ماذا سأصنع في تلك المصيبة؟!».



المسجد وسط البلد ممتلئ صحنه بالناس. مختار في أول صف جالسًا يُسَبِّح، رائحته عاطرة، وجلبابه أبيض، ووجهه خمري يلمع، خليل عن يمينه، وجعفر عن يساره، ورضوان والخفر خلفه مخافة الغدر، أما حسونة ففي ركن منزو يخاف انكشاف ضحكته، وعبيدة كما اعتاد، جاء متأخرًا وبين أنفاره جلس.

عبد الجليل فوق المنبر يحمد الله ويشكره، مُسَبِّحًا لله المَلِك الأعز القادر القاهر مولى النعم، ثم يصلي على رسول الأنام، ناعيًا بالجهل والضلال من يستهزئ أو ينكر عالم الجان، يشرح أن عوالمهم اثنان، علوي، وسفلي؛ فينجذب الناس إلى الخطبة. مأخوذون بشرح ذلك العالم الخفي، يطربون لكلام عبد الجليل المسجوع وصوته المنغوم: «الجان أعمارهم طويلة، وأعدادهم كبيرة، أولهم إبليس طاووس الشياطين عدو العالمين». يستغفر عبد

الجليل من أفعاله، ويستعيد من شروره، ثم يحكي عن ملوك الجان الأحمر الملقب بـ «محرز» الذي يحول التراب ذهبًا، يصفه بأن تاجه أحمر، ورداءه أصفر، وعيونه عقيق، ولما يرى في عيون الناس الخوف يطمئنهم، ثم يرجع يتحدث عن الملك أبو السعد المذهب، الحاكم على أمر جن كُثر، يعرفه بأن ثيابه من حرير، وتاجه من ماس، وأنه معروف بقوته وشدة بأسه ويده الطويلة في الليل، وتطول خطبة عبد الجليل، والناس مأخوذون، مختار يُسَبِّح، وخليل متذمر يهمس: «ما هذا الخرف؟!». يدعو عبد الجليل بالخير للناس، والبعد عن وسوسة الخناس، ثم تقام الصلاة ويخرج المصلون من المسجد وليس في عقولهم شيء غير أحاديث الجان، ينضمون في حلقات، يتحدثون بانبهار عن الملك محرز الذي يحول التراب إلى ذهب، ويطلقون أحلامهم التي أشعلها عبد الجليل بخطبته، وحسونة بمكره الفطري، ومختار بدهائه الذي يحرك كل شيء!



لم تكن كوكب تحسب أن حسونة مكار إلى هذا الحد. إنه نوع آخر من الرجال لم تألفه؛ مدهش رغم تفاهته، طلب منها الوصال في النهار، فضحكت وقالت: «كيف ورضوان لا يبرح الدار؟!»; فرد ييقين حسبته تهوّرًا في حينه: «سيرحها، وربما لن يرجع!»; فانتفض قلب كوكب هلعًا، وقالت بخوف: «كفى الله الشر عنه، يارب عدوه!». ثم تلطفت متصنعة الضحك وأكملت: «كله إلا رضوان!».

وقد أشارت دون أن تدري إلى معزة كبيرة مخبئة في قلبها، جعلتها تشعر بوحشة غامضة ورضوان يخبرها بسفره. وازداد حزنها لما انتهى من جمع بقجته، وحضنها مودعًا، فقالت بإخلاص: «بالسلامة ترجع، يا حبيبي».

يخرج رضوان والغروب يوشك أن يفرد خيمته على السماء، ومع دنو الليل يتسلل حسونة إلى داخل الدار عبر الباب الموارب، تستقبله كوكب بقميص بهيج الألوان، يقبلها قبله جائع إلى جسد كان حلم مراقبته، ويستطعم في القبل مذاق غواية يكاد يولي، يخرج من جلبابه زجاجة عرق، جلسا يشربان وهما عديما المراس بالشرب؛ سكرا وانفلتت أقبح الكلمات والأسرار منهما دون خجل. وحرر السكر حسونة من كل قيد؛ فنهض عاريًا يرقص، وأمسكت كوكب طبقًا ودقت عليه حتى أتعبه الرقص، وتمدد جوارها بوجه محمر وصدر متعرق يخفق، تحدثا ببذء الكلام، ثم غطَّ الاثنان في النوم، وعندما أحست كوكب بالعطش مدت كفها لتحسس الفراغ حتى لامست أصابعها القلّة، خايلها طيف -وهي بين النوم ونصف اليقظة- يمرق بسرعة من أمام الباب، لكن التعب والسكر غلباها فنامت، وصحت ناسية كل شيء!



الناس لم تنس صورة مبروك يوم زفاف مختار، وما فعله حسونة ما زال محفورًا في ذاكرتهم، حتى إن جار مبروك في

الحقل وضع طرطورًا على رأسه وأخذ يتطوح في حركات
ساخرة تحمّلها مبروك، وعندما كررها على مرأى من آخرين
اندفع وقبض بكفه على عصا غليظة وهرول خلف جاره بالسباب
واللعنات، يقطع الجار شوطًا طويلاً في الركض مذعورًا، ويحتمي
برهط من الناس أخذوا يلاطفون مبروك كي يهدأ ثم بدؤوا في
عتابه عن طرده لأبيه ناعتين ما صنعه بالخسة. لم يستطع مبروك
الصبر على وخزات كلماتهم، فاستشاط يسب الواقفين، واندفع
ضاربًا رأس جاره بالعصا، فانفجرت الدماء غزيرة ملوثة وجه
جاره وثوبه. ورأى مبروك في عيون الناس رعبًا منه وخشية لم
يرهما من قبل، وتحول كلامهم المقرع إلى لطفٍ ولين؛ فقال في
نفسه: «الناس لا تخشى غير القوي»، وانسحب عائداً يفكر فيمن
أذلوه وهو يهمس: «يوماً سنصفي الحساب يا أولاد الكلب».



وصل ما حدث إلى أرزاق، فظلت ترقب «مبروك» بعينها
-وهما يتناولان العشاء- ثم سألته: «ماذا حدث؟». وعندما
تحولت نظرتها إلي تأنيبٍ صريحٍ، أجاب والضجر بادٍ في صوته:
«عراك وانفض».

تأففت، فود أن يلطمها على خدها لتلزم حدودها وتسكت
لكنَّ عجزًا مبهمًا جعله يكتم غضبه بداخله ولا يتجاسر حتى
على النطق، غاب في شروده حتى أفاق على جملة قالتها بقرف
لكنها رنت في أذنيه كأنها زغرودة فرح: «في بطني ولد!».

تهلل مبروك وبعد وقت شرد مفكرًا في حاله البائس وحال
ابنه القادم، أترك له الفقر والذل كما تركه له أبوه؟ يلاحقه اليأس.
فلا يجد غير الأحلام يهرب إليها!



الآن لا أحد يرضى بحاله، مثلما نجاة، لأول مرة لا تفكر
فيمن فقدت! عيونها ممتلئة بالرضا، و خليل بجوارها يجلس،
يحادثها وتحادثه، كفها في كفه، وشوق حميم يكبر بينهما، بين
البسمة والضحكة عيونهما سارحة مع الماء الجاري وصفحة
النهر المستكنة. تهيم بهما الهمسات فينظران إلى بعضهما
في شغف؛ وينهضان معًا كعاشقين جائعين، الحب شغلُهُما،
والمواويل ونسُهُما، يسمعانها من فم الجليلة التي لا تكف عن
قول ما يدهش أو التلميح بما تريد.



- أسعيدة يا ابتتي؟

ولا تعرف فرحة بماذا تجيب على أمها! تضحك ضحكة
ناقصة وتقول كلامًا طيبًا من وراء قلبها دون أن تعلم: أهى سعيدة
أم لا؟! تبرر لمختار إنشغالاته، وتنتظر أن تنتهي!



مختار يعرف المخبوء ويخفي ما يعرف، في جلسته التي
قص فيها رضوان ما حدث في رحلته، كان يتصنع الإنصات،
وفي داخله كان يسبه معجبًا بدهائه!



رجع رضوان من سفره -بعد شهر- نحيفًا بجبين محروق،
امتلاأت دار كوكب بالرجال والنساء، وتعلق الأطفال على
النوافذ وفي مدخل البيت وأمام الباب، تطردهم كوكب فيبتعدون
خطوات ويرجعون، يقسمون على الصمت ويرجون كوكب
السماح لهم بالجلوس؛ فتركهم.

الكل ينظر إليه وينتظر: مبروك، وأرزاق، وشرقاوية،
وسيسبان، والمزارعون والخفراء الذين أنهوا وقت خدمتهم.
حتى كوكب متشوقة لسماع الحكاية. ينظر رضوان إلى الجالسين
وبصوت ممتلئ بنبرة حزن، يقول: «والله لولا الجليلة لرجعت
من السفر خوفًا على عمري».

يزفر رضوان نفسًا مجهدًا ويكمل: «أخذت الأمر والوصية
من العمدة مختار، وركبت المركب وفي رأسي عنوان أوجا،
كما قاله الراقي الحمار!». ولما يرى استغراب الناس على اللفظ
يؤكد: «حمار وابن حمار وستعرفون لماذا؟»، ويأمر الجالسين
أن يصلوا على النبي، ويكمل: «الناس على المركب نعسانة،
ومع الغروب شق السماء غراب أسود، نطق كأنه ينعاني فخفت

وقلت: استر يا ستار! الليل طويل، والناموس كما الجاموس يلدغ كما الحية، ومن التعب نمت، وعلى شقشقة النهار فتحت عيني. وصاحب المركب يجمع الأجرة، ويسألني: «أين مرساك؟!». ذكرت له المرسى والعنوان؛ فقال بعد تفكير: «دليلك حمار، وسفرك صعب، لكن ما تاه سائل!». انخطف قلبي وقلت: «ببركة الله وبركة الجليلة المعجزات هينة، وعند كل مرسى أنزل وأسأل الناس عن أوجا، وأرجع إلى المركب خائب الرجاء! السفر من غير ونيس طويل ومسكون بالوجع، ظهري مسنود على جانب المركب، وهمس الكلام بين الرجال مسموع، مرسى وراء مرسى، القلق يكبر، والنهر يفتح صدره كما الوحش، والمركب عكس اتجاه الريح تسير، وأنا أنفخ في الهواء ضيقي، سحب ثقيل وأسود انفك بعد المطر، والمطر قربة مفتوحة من السماء، نزحناه بالمواعين وجلست مبلولاً. الليل غاب والحزن عني ما غاب. المراكبي رمى قلوعه والمركب وقف، وأنا وسط الناس على الجسر أهمس لنفسي: «المكان خطر والمهمة أخطر وربنا ستار». في الجنوب البعيد عجب العجب؛ لسان الناس إغوّج، والكلام أصبح إشارة، التاجر يبدل حصى الملح بالذهب، وأهل المرسى سُمِر طوال، وجوال الملح فوق أكتافهم كأنه كنز!.

وينطلق السؤال من فم مبروك معجون بالدهشة: «الجوال بجوال يا عم رضوان؟».

ويطل رضوان على دهشة مبروك؛ فيخرج من جيبه قطعة من ذهب يلوح بها أمام العيون، ويقول: «الجوال بجوال من هذا، يا مبروك.. الجوال بجوال!».

وتلمس أرزاق بأصابعها قطعة الذهب وعيونها مسحورة، ثم تنظر إلى رضوان وبلهفة، تقول: «احك، يا عم رضوان كلامك ذهب وحكايتك عجب»؛ فتمتلئ أوداج رضوان بالثقة، وقد أدرك أن ما يحكيه يثير فضول الناس أكثر مما توقع، يهز رأسه ويكمل وسط الإنصات التام للجالسين: (كل شيء هناك غريب؛ لا الشمس كما شمسنا خفيفة العشرة! ولا القمر خجلان! وعلى الضفتين البيوت عشب مجدولة بالتيل، والأرض حمراء، والنفس مكتوم بلا نسمة، بلدنا نعمة والله يا ناس، كل من كانوا معي نزلوا، وأنا في المركب وحيد مع أغراب. اليأس مر والأمر الانتظار، ولما رأيت البرق شق السماء نصفين وزلزلها نزلت بخوفي تائهاً، ومن يأسى صرخت بكل عزمي: «أوجا!!!»، وسمعت صوت من بعيد يناديني: «رضوان، رضوان». وضعت كفي على صدري، وسألت بخوف: «أنا؟».

- رضوان... هيا!

نحيل، طويل، أسمر، خط العجز شقوقاً على جبهته وخده، لكن بسمته حلوة، جريت خلف خطواته الواسعة، وبعد طول السير والتعب وقفنا أمام كوخ بائنه عالٍ، دخلت ورأيت أوجا

كما هو، عيونه شرار الجمر، وبسمته لؤلؤ، سألني عن رحلتي والحال وأنا ارتعدت وكتمت فرحتي وخوفي وقلت: «طويلة، رحلة طويلة».

لمعت عيناه، وبضيق قال: «العتب على الدليل الحمار».

وما انتظر، وبسرعة ردَّ بالجواب: «السرقة من فعل الجان، ملاعين الملك طارش، الكرسي عندهم، وبالحجاب يرجع المسروق لكن بعد مُدة»، ونظر أوجاً إليّ وهتف: «رحلة مجيئك في شهر وعودتك في غمضة عين. سلامي لسيد الناس، مختار، وللجليلة سلام كبير، هيا يا رضوان يا ابن الحلال».

أغمضت عينيّ وفتحتهما، فوجدتني واقفاً على مرسانا!.



انصرف الناس ونام رضوان وصحا يحمل حكايته ويتنقل بها من هنا إلى هناك حتى سمعها كل أهل البلد، انبهر بعضهم كما انبهر حسونة، واستعاذ بعضهم من السحرة وشرهم كما جعفر، ورتل الحفظة آية الكرسي والمعوذتين في سرهم كما عبد الجليل، وعندما حكاها إلى الجليلة خرج خليل ينعته بالمخرف وهم يضربه ويطرده لكن الجليلة صدته، ثم ابتسمت لرضوان ابتسامة ذات مغزى يعرفه، وقالت: «أنت داهية، يا رضوان، اذهب. كان الله في عونك من شر ما رأيت!».

ثم انصرفت عنه بالصمت وتملأ النهر، نهض رضوان حزيناً مأخوذاً بما قالت، وفي طريق نزوله من الربوة همس: «خليل حكيم، وكل أهل البلد مخايل، والجليلة فيها شيء لله».



الليل في أوله، والنهار بعيد، النجوم تنبض على صفحة السماء وخليل يخرج من الدار، يسند ظهره إلى حائط المصطبة ويدخن، قلبه هائم وعيناه تتأملان القمر، أما فمه فيناجي ما فات وشيء وديع غامض يتسلل إلى روحه، وصوت الجليلة يسمعه رغم همسه: «قدر ومكتوب!»؛ فأيقن أن في القادم سر. نظر إلى السماء عله يتلمس الوقت، رأى القمر يضحك، وصفحة السماء تضوي، والنجوم تتسامر، فرمى حيرته لليل الطويل، وابتسم.

22

السحب الرمادية تتتابع. شرقاوية فوق سطح دار الجليلة
تصرخ بذعر وهي تنغز بعصا طويلة طيرًا أسودَ يحلق بين طيات
الغمام: «اتركها، خذني أنا واتركها».

تتابع هروب الطائر الأسود فتستريح. شرقاوية فوق السطح
تهش بالعصا طائر الموت عن دار الجليلة، وهي تحدث نفسها:
«الهم والغم لا ينساك يا شرقاوية، الجليلة -ست الناس- يقولون
إنها مع مرضها ستذهب! إلى أين تذهب، وتترك البلد والناس؟!
أتذهب وتتركك، يا شرقاوية في هذه الدواهي والنوائب؟ تبدلت
الأيام وغدر الزمن. وبنت الحية أرزاق -خسارة الاسم فيها-
ذئبة، نمرودة وحرباء، ملكت مبروك وجعلته عبدًا في يدها،
فأمسينا كالأغراب في دارنا، والله لو ولدت قردًا ستدوسنا
بالنعل».

السحب الرمادية تتابع وعبدة يجلس ملتصقًا بالبواب العالي،
بقلب مغسول من كل سوء يداوم تسبيحه، كل حين ينهض يسأل
عن الجليلة، يحمد الله عندما تهمس له فرحة أنها في سلام، يرفع
كفيه ويتوسل: «سلم، يا رب، سلم».

عبيدة يمنع عن نفسه الزاد، فقط يشرب الماء إن أرقهه العطش ويعاود الجلوس، بين الحين والحين تنظر له شرقاوية من أعلى تسأله عن الأحوال فيرد: «خيرٌ بإذن الله».

فتطمئن شرقاوية وتعاود الحديث مع نفسها: «الولد عبد الحي، منظور محسود، فمن غيرك يرقيه يا جليلة؟ أقول لك: منذ أيام حملت له الطعام الساخن وغطاءً ثقیلاً، والولد أكل ونام، ولففته بالصوف، وقلت في الدفا عفا، ولم تمر سوى دقائق حتى فتح عينيه، وحول وجهه إلى السماء. أتعرفين؛ بعد أن صارت المقابر أرضه، والحوش المعرش بيته؛ يسألني الناس عنه: كيف أحوال الميت، يا شرقاوية؟ ورغم تعبني أرد: الميت بخير! وأستعبد بالله من كل شر، ومن عين كل حاسد وناظر. عجيبٌ فعل الناس، يسألون الآن عن الميت! ومتى سأل الناس عن الميت؟!».

جسد شرقاوية يرتعش من البرد، فتصعد لها فرحة تناولها طعاماً وتضع على كتفيها غطاءً وتطلب منها النزول فتأبى. تنظر لها فرحة بمودة، وترجوها بعشم: «غني يا شرقاوية، غني».

وتنظر شرقاوية لها مستغربة، ومع إلحاح فرحة تغني: «أهل الهنا للهنا يا رب هنيهم، وأهل الشقا للشقا يا رب قويهم، راحوا بلاد الهنا؛ كبش الشقا فيهم»*.

ورغم الأسى الذي أبداه صوتها الحزين؛ تحكي: «الدنيا زمان كانت حلوة، يا ست فرحة، وأنا كنت مثلها حلوة وصيبة،

لا فرح ولا حنة كنت أتركها، أكحل رموشي ورموش البنات في العرس، وأدق على الطبله أغني وأرقص، والولد السيد يونس مليح وطويل وعريض، أحبني وتزوجني، لكن الموت لف كما الثعبان وحزمني، والعمر فات يا ست فرحة، والههم أمامي وورائي هم».

تنزل فرحة، وفي حجرة الجليلة تجلس متيقظة مع أمها سكيئة ونجاة، وفي منتصف الليل؛ ترفع شرقاوية وجهها فترى كائناً يختبئ بين طيات السحب، تمسح عينيها وتتأمل وجهه المفجع؛ فتتوسل إليه: «اتركها، خذني أنا واتركها».

وتراه يتجسد بوجه وحشي فتطلق صرختها بكل ما تملك من صوت، لكنه لا يأبه لها وتراه ينسل هابطاً من وسط سحابة سوداء بأبشع صورة، وفي اللحظة التي يغيب فيها عن عينيها. تفيق من حلمها على دوي صرخة قادمة من داخل الدار، فتوقن أن طائر الموت خدعها بالنوم ونزل ليقنص هدفه!

تتوالى الصرخات من فم فرحة وأمها، فيقبل الأقارب يهرولون إلى الدار، وبلحظة ينتفض البلد ولسان القادمين ينطق باسم الجليلة بعدم تصديق.

عبيدة ملقى بجوار الباب يبكي بحرقة، وشرقاوية تسأل نفسها مستغربة؛ وهي تنزل من على سلالم السطح غير مصدقة، ونهنية بكائها تضنيها: «أمات؟.. كيف ماتت؟!». تتعثر وتسقط

على وجهها، تنهض والسؤال المستغرب لا يكف في فمها:
«كيف ماتت؟».

والأقارب يهرولون إلى الربوة، ويندفعون إلى داخل الدار،
وفي حجرتها يقفون شاخصين حول سريرها بجوار خليل، وفي
حلقهم صرخة وعويل.



تحدث أرزاق عن حسونة؛ فتلمع عيناها، مبروك يداري غله
مما يسمع، يراه سفيهاً، وتراه زوجته في موضع من يمنح ويمنع،
تطلب أرزاق في لحظة صفاء دعوته إلى العشاء، وتتستر على ما
بصدرها.

مدفوعاً بالطمع في منحة؛ يدعو مبروك للعشاء. يتسم
حسونة، ويهز رأسه موقناً أنها دعوة من أرزاق، بعد الغروب
يمشي في حراسة خفير، وعند دار مبروك يأمر حارسه بالمغادرة.

جسد أرزاق يتبجح بالفتنة أمام عيون حسونة، تشد الجلباب
على ظهرها فتتجسد انحناءات جسمها المغربي، تبرز نصف
نهد أبيض وهي تصب له الماء ليغسل كفيه، أمام عيون زوجها
تتصرف بوقار امرأة مخلصه، وفي الخفاء؛ تغمز إلى حسونة،
وترد له قبالات في غفلة من مبروك.

تأخذ مقعدها على الحصيرة ما بين حسونة ومبروك،
وبلمسات وإشارات خفية يشتعل حسونة، وقد بدت فتنها

أشهى من أي طعام، بدلالٍ ولينٍ تتكلم وهي تفسخ البطة إلى نصفين، نصف للضيف والباقي لهما، وحسونة مأخوذٌ بفتنتها كما السكران.

يُشعل مبروك ركية، ويضع براد الشاي على الجمر، حسونة يحكي، وعيونه تتغزل مفتونة بأرزاق. أرزاق تبسم، والشبق بجسد حسونة يهتف: «أريدها، أريدها».



كل رجل من رجال مختار يتصور أنه الأقرب إليه، ومختار فطين، لا ينفي ولا يؤكد، يترك الجميع يتبارون في إرضائه، واهمًا كلاً منهم أنه يصطفيه بالمحبة، وحده رضوان يعرف أن قربة مرهونٌ بنفعه، ورضوان لا يباريه أحد في النفع، مكار لسيدته ولئيم، لكنه للأسف جاهل، وفي الجهل تهلكة.

يوم الحريق بحث بين الأنقاض، حتى عثر على كتاب السحر الذي استولى عليه أبو جميل من غريب العراف، احترقت أطراف الكتاب وظلت كل كلمة خطت فيه سليمة فعد رضوان ذلك أول الأسرار، وكلما سنحت الفرصة يهمس ويذكر مختار بالكتاب، حتى جاء يومٌ وقف فيه رضوان يرتجف خوفاً، ومختار يبصق على الكتاب ويصيح قاذفاً به: «تخاريف!».

ولأن رضوان لا يخشى شيئاً بقدر خشيته من السحر، التقط الكتاب بتوجس ثم نظر إلى مختار، وسأل بحذر: «وماذا أفعل بالكتاب، يا عمدة؟!».

- بله، واشرب ماءه.

وهز رضوان رأسه وخرج بقلب خائف! في الليل رنت كلمة مختار في أذنه فتشجع، وقال: «جرب، يا رضوان، ولن تخسر!». وخاتلته المعجزات وهو يتمعن في الحروف المقلوبة، وكوكب ترمقه بخوف وتحاول أن ترده: «اعقل، يا رضوان».

لكن رضوان، في لحظة شجاعة نادرة؛ نهض وأحضر دلو ماء، وقطع الأوراق وأغرقها، فلما اختلط الماء بحبر الورق وسواده، استعان رضوان بالله وشرب من ماء الدلو قدر استطاعته! في الليل أوجعه بطنه بمغص، تحمله شاعرًا أن السحر بدأ يفعل فعله، ثلاثة أيام حتى أنهى ماء الدلو، وابتسم منتظرًا معجزة!

ولأن لرضوان ذاكرة لا تنسى؛ تمنى معجزة تمنع سفره الخطر لأوجا، ليلتها ذهب إلى مختار حاملاً بقجته، ليودعه، أمسك مختار بسمته وقد أدرك ما رمى إليه حسونة؛ الخفي منه والمعلن. بلين أجلس رضوان جواره على غير العادة! فاقتنص رضوان طيب تلك المعاملة وأسر باستيائه من أمر حسونة بالسفر لأوجا! وبعد كلام مستتر ورد مقنع؛ بدا لرضوان أن مختار أحوط مما يتصور أحد، وانجلى ذلك في أمره: «بحر ذئب يختبئ. ولن تعجز في لقياءه، أعطه هديتي وأبلغه سلامي، ولا ترجع إلا ومعك رد: أعدوا سيغدو أم صديقًا سيمسي، وبعد رجوعك احك للناس ما تشتهي فلن تعجز!».

عرف رضوان القصد وحدد الطلب؛ فابتسم، وقال بإخلاص:
«أمرك يا كبير».

نفحه مختار أربع قطع ذهبية؛ واحدة له جزاء على السر القديم، والباقي هدية لبحر، وقبل أن يذهب تفرسه مختار وتوعد: «السر في صدرك، فإن خرج على شفيتك لأحد -أي أحد- فالويل لك!».

انصرف رضوان مُدركًا خطورة التحذير، فلما لامست كفه قطع الذهب؛ قرر الذهاب إلى داره ليخفي نصيبه ويرتد بسرعة. أمام باب داره؛ لم يتنحى ولم يحدث صوتًا، عرّفه السكون على صوت حسونة، المثل بالثوة والسكر، فتح الباب بهدوء، ومرق كالسهم، خبأ الذهب وقد لامسه شعور بأنه مخفي بسحر الماء الذي شربه! تحمل رضوان كل شيء: الضحكات، آهات الوجع الشبق من كوكب، همس الكلمات النابية، لكن شيئًا واحدًا خطف قلبه، وأشعل جبينه: عندما أسر حسونة أن كل الناس تعرف أنه يعرف! عندها تألم رضوان، وخرج من الدار مسرعًا.

في دروب الصحراء؛ راوده الانتقام من كوكب؛ فهتفت روحه ترده: «كيف تنتقم من نفسك؟»، ومضى في طريقه!

لم يكن الوصول إلى بحر، بالأمر الهين، لكن رضوان ثعلب، والثعلب لا يتوه في الصحراء. في مكان يعرفه سأل. سلمه رجل

إلى رجل. وفي كهف قديم ترك رضوان يومًا وحيدًا بصحبة زاده والماء، حتى عاد له الرجل، وسلمه لآخر كي يصحبه إلى بحر.

من كهف مخيف يخرج بحر ليسلم على رضوان ويؤكد أنه يعيش في هذا الكهف مع ذكرياته، وكانت تلك أول خدعة!

بمجرد هروب بحر، أدرك ملاذًا واصطفى بعض الرجال دون أن يأمنهم. صنع منهم مخلبًا في الجبل وفي الصحراء، تاركًا ولده الذي أنجبه وزوجته في مأمن بالضفة الأخرى، يزورهم في الخفاء كلما سنحت فرصة ويكفيهم مالا ومحبة.

للكهف الذي جلس أمامه بحر مخرجان، يقلب بحر الجمر في حفرة ويعد شايًا ويتحدث إلى رضوان، موقنًا بفراسته أن رسالة مهمة أتت بها هذا الذئب، لم يستعجل معرفتها ولم يسأل! شرب شايًا وأشعل لفافة وهو يسمع من رضوان ما عنده، فكر في الرسالة، واحتار في الجواب وفي قبول الذهب؛ فطلب وقتًا يقضيه رضوان معه!

لم يُشتر بحر بالذهب، بل قدم عرضًا وانتظر وعدًا! ولأن رضوان لم يفوض بالرفض ولا بالقبول؛ نظر إلى بحر وهز رأسه وابتسم.

بقي رضوان في حماية بحر ما يُقارب الشهر، يفكر ويشرد، يسأل ويجيب، يتوعد ويصفو، يوما بعد يوم استلبت رضوان فتنة الصحراء، لا بسمائها الرحبة، ولا بنجومها الأثيرة وهوائها

المنعش، فقط لأنه بجوف سكونها بدت له حقيقة ذاته فارتضاها
على مضض!

في طريق الرجوع اخترع حكايته التي قصها على الناس،
وظل متوجسًا؛ حتى أيقن أن كل الناس تسعدهم الأوهام
وتؤلمهم الحقيقة!



كلما رأت كوكب رضوان شاردًا تسأل: «ما بك؟»؛ فيهز
رأسه، ويجيب: «لا شيء»، ويدبر وجهه. ولأنها على يقين أنه
يخبئ بين أضلعه سرًا؛ تعاود السؤال، ويعيد نفس الجواب.

أبدًا لن يكون بين رضوان وكوكب مكاشفة؛ فصمته يشي
بأنه يعرف ويسكت، ونظرتها الثاقبة لوجهه تؤكد أنها عرفت أنه
يعرف!



دار مبروك خالية وأهل البلد كلهم فوق الربوة ينتظرون
الجنائز، أرزاق تعطرت واستحمت بعد أن حنت أقدامها
وكفيها. حسونة يمشي خفيًا، والشوارع كلها خالية وصامتة،
وعند دار مبروك ينظر يمينًا ويسارًا ثم يهرول داخلًا بسرعة من
باب الدار الموارد، تسحبه أرزاق إلى حجرتها وتقفل، يمص
شفتيها ويحضنها؛ فتهمس: «أين هديتي؟!»، فيخرج لها عقدًا
لامعًا، يتحسس بياض رقبتها وهو يلبسه لها، وفي أذنهما يهمس:

«وأين هديتي؟»؛ فستدير إليه بميوعة. يتعريان، ويتصلان كجسد واحد.



- أين خليل؟!

عيون الناس تسأل، والنعش يخرج من الدار محمولاً فوق أكتاف الرجال.

- أين خليل؟!

وتنفتح فرجة ضيقة بين الأجساد، بالكاد تسمح لحاملي النعش بالسير.

- أين خليل؟!

والشوارع محتشدة بالرجال المنتظرين في صمت، مستغربين من غيابه

- أين خليل؟!

والنساء يُنَحْنَ ويُعَدِّدْنَ، والنعش الأخضر المطرز بالحرير الذهبي يمر أمام بيوتهن.

- أين خليل؟!

والشمس تحجبها سحابة بيضاء: جعفر وعبيدة ورضوان وعبد الجليل تتهدل أكتافهم من ثقل الحمل لرفضهم أن يجيرهم أحد.

- أين خليل؟

والرجال يتلاقون في الشارع الكبير، ويصعدون تلة المقابر صفوفاً، وأمام قبر العائلة يقفون، تلتقط يد عبدة الجسد إلى فتحة القبر، فيسجى الجسد مرتاحاً فوق التراب، ويقفل القبر.

مختار يقف شاردًا، وعبد الجليل يدعو، والناس يؤمنون، ورضوان بصوته الجهير يعلن أن العزاء أمام الدوار.



ينتفض الميت، ويفيق من نومه على دمة سيسبان وقد جاءت له بالطعام. يسألها بحنو: «ما بك؟». تزم شفيتها متحسرة ولا تنطق. يسألها وقد ملأ الشroud عينيه: «ما بك؟!؛ فتجلس أمامه، وتحكي. يسمع قليلاً، ثم يغيب شاردًا في السماء، وتظل سيسبان تحكي لزوجها الذي طلق الدنيا واستراح!



مع خفوت النور، وخلو المكان من الناس تقبل القطط، من الصحراء من وسط الزراعات، ومن أفنية البيوت، وأمام قبرها تقف، تخفض رؤوسها صامتة، كأنها تقدم العزاء، يخرج مواؤها أقرب إلى نواح أطفال يتتحبون! خليل يقف بينهم تحت ستر الظلمة، يتأمل القبر حزينًا، ولا تطاوعه عيناه على البكاء، وقبل طلوع النهار ترجع القطط لأماكنها، ويشق خليل طريقه إلى الصحراء وحيدًا يحمل وجعه.



الهواء ساكن، والجو ملتهب، الدار الكبيرة ساكنة والكل
يتربص صرخة العويل الأخيرة التي سينقضي بها كل شيء،
ويبهت الجمع الملتف من الأقارب على يد الجليلة تتحرك
وظهرها ينتصب، تتكئ إلى حرف السرير بوهن، وتتلقت بعيون
شبه ناعسة مستغربة الواقفين؛ تسأل بصوت من صحت من نوم
طويل: «ما الوقت الآن؟!».

يستفيق كل الملتفين حولها من ذهولهم، ويجنهم الفرح، ثم
ينظرون إلى بعضهم بعضاً حائرين، كيف يخبرونها بموت ابنتها،
نجاه المباغت دون علة؟!!

23

تخرج الجليلة من باب الدار، وهي تتلو ورْدَهَا، ومن نسائم
 الفجر الندية تملأ صدرها، تتملئ طويلاً في قبة السماء نوراً
 تبصر فيه كل ما هو بعيد! وإلى جسر النهر تمشي، وعلى خطو
 كعبها تتبعها طيور الدار، يهدل الحمام، ويطيّر إلى السماء؛
 فترهف السمع إلى صوت يشق المدى إليها، تعاود الجلوس
 فوق مصطبتها الطينية. بيدها عصاها، ترفعها وتهتف: «عليك
 السلام يا نجاة». وتنظر إلى صفحة النهر - كأن نجاة تسير على
 تخومه إليها - وتبتسم!

تفيق من شرودها على عبيدة يقبل من بعيد، يحييها وخلفه
 ولداه، ترد ببشاشة على صباحه فيقترب هامساً: «أحضرت
 ولدي، كما طلبت!».

ترفع عينيها، تنظر بروية، ثم تشير إلى جعفر بعصاها، وتسأل
 وكأنها لا تعرفه: «ما اسمك، يا ولد؟»؛ فيرد بود ومحبة، والخلجل
 يملأ وجهه: «ابنك جعفر يا جدة، أنسيتني؟!».

تبتسم، وتنظر إلى حسونة، وهي تشير بعصاها: «ومن أنت يا
 ولد؟»؛ فيرد بفخر: «أنا حسونة شيخ الخفر».

تتجاهله وتعيد النظر إلى جعفر أمرة: «من هذه الليلة، أنت وزوجك ستسكنان هنا في الدار يا جعفر». وتلفت بتسم إلى النهر، كأنها ترى على صفحته المنتظر.



يمر حسونة من جوار بيت أرزاق، ينظر إلى الباب الموصد بلهفة، عقله مشغول بها، وعشقه لها مفضوح لكل العيون، ولولا سطوة منصبه، لجُرس بسبب عشقه في البلد! مبروك في عيون حسونة نكرة ورذيل، لكنه حجر عثرة مانع، لذا لا بد أن يزاح الحجر كي يستمتع حسونة بأرزاق على مهل، ووقتما يشاء!

المكائد كثيرة، والحيل أكثر، لكن ماذا يناسب مبروك منها؟! تتمنى أرزاق قتل مبروك، ولأن بقلب حسونة ما زال الخير عامراً فإنه يؤثر السلامة ولا يجنح لدم، يمسي إبعاد مبروك أسلم حل، لكن كيف يُبعد؟ فكرت أرزاق بطفولة في حكايات الراوي على الرابطة، وقالت: «يذهب إلى الصحراء ويؤسر هناك»، فضحك حسونة وقال بدهشة مماًزحاً: «يؤسر! في أي حرب يؤسر؟!»، ثم تفرس في الهواء كأنه يقتنص منه فكرته، وقرر بعزم: «يحمل أمانة، يأخذها منه قاطع طريق، ويحجزه شهراً أو شهرين».

تهمس أرزاق متمنية: «ولم لا يكون عاماً أو عامين؟»، فيبتسم حسونة بمكر، ويقرر: «سيقضيهم في السجن عندما يعود إن شاء الله!».



الناس تظن أنها ترتب القدر، والأقدار لا تحتاج عوناً من أحد! مبروك يتبدى مطيعاً، لكن تحت قشرته الرخوة رأس عنيد، ويذُ صلبة، وقلب قاس، مع وسوسات أرزاق يلين ويطمع، فيحمل الأمانة، وينصتُ إلى سر حسونة: «شرق الجبل، أول الطريق المطمورة جوار الهضبة، رجل ينتظرك، أعطه المال وخذ منه الأمانة، ومكافأتك لن تخطر على بالك، بعد رجوعك!».

يخرج مبروك للمهمة حافظاً سره، يخفي المال وما تيسر من زاد في جراب أتانة الهزيل، تودعه أرزاق وداعاً بارداً متمنية -في سريرتها- قتله لتتعم بحريتها مع عاشق وعد أن يلبسها ذهباً من رأسها إلى أخمص قدميها!

ينحرف مبروك إلى الصحراء، فوق أتانة التي تعثرت كثيراً في الرمال يتحمل ظلمة الليل ولفحات البرد ثم حمم الشمس المصوبة على رأسه العاري في الضحى. ينحرف من خلف تلة شرق الجبل تسلمه إلى مسارب ضيقة طويلة، وإذا بهضبة تنحرف به في طريق مطمورة بالكاد ترى، عندها ظن أنه قد أدرك مكان من سيوصل له الأمانة، وكان الرجل الذي اتفق معه حسونة ينتظره، لصٌ يده خفيفة وقلبه ضعيف، أدرك في مبروك صحة وفرط قوة؛ فجبين وقرر أن يحصل بالمكر على ما سيحصل عليه بقوة لا يملكها.

قال اللص إن الأمانة سيسلمها له في نهار الغد؛ فصدق مبروك، ونام مطمئناً. سرق اللص المال بخفة، وسحب الأتان

متسللاً واختفى! صحا مبروك من غفلة نومه يود أن تنشق الأرض وتبلعه؛ فبعودته إلى البلد خيبة وتنكيلٌ، وفي بقائه في الصحراء هلاك! ولم يجد من سبيل أمامه إلا أن يقتفي أثر السارق ليطحن عظامه ويسترد ما سرق!

مشى مبروك على أقدامه دون دليل يوماً وليلة حتى أنهك، فَرَدَّ جسمه في مخبأ، راح في النوم بسرعة دون أن يعلم أنه على حدود مخبأ بحر الذي رصد رجاله وجه مبروك القميء.



لم يشعر مبروك بوخز رأس الخنجر الموضوع على رقبتة، لكنه انفلج بضربة قدم قوية في خاصرته؛ ففتح عينيه على عين مخيفة وصوت بحر القاطع يسأل: «من أوعز لك أن تجيء إلى هنا؟». ويرتعد مبروك مجيباً: «جئت لأحمل أمانة!».

- ممن، ولم؟

صمت مبروك، لا يعرف جواباً! بمهارة وخشونة قيده بحر في حوض صخرة، وتركه مصلوباً نهارين كالفأر المرتعد لا ماء ولا طعام، بين الفينة والفينة ينظر بحر في عيون مبروك المذعورة وهو مقيد مذلول، يسأل ومبروك يجيب، أسر مبروك بكرهه لمختار وعبد الجليل، وحسونة، وبحر يسمع ولا يصدق! يومان مرّاً كدهر قال فيهما مبروك كل ما يعرفه عن البلد، وكلما ترجى ماءً، يسأله بحر: «عطشان؟»؛ فيhez مبروك رأسه المثقل، فيعيد

بحر سؤاله: «من الذي جاء بك إلى هنا، يا ولد؟ قل الحقيقة؟!»؛
فيخبره مبروك بقصته التافهة التي لا تتغير!

ولسداجة القصة كان شك بحر عظيمًا أن يكون مجيء مبروك
بنية الخلاص منه، وتزداد قناعة بحر؛ كلما نظر إلى عيون مبروك
ورأى عيون قاتل! وعندما يئس بحر من انتزاع الاعتراف قرر أن
يقطع رأس مبروك ويبعث به في كيس إلى مختار.

أراح وثاق يد مبروك ونفحه ماءً وزادًا، شرب مبروك ككلب
لاهث، وأكل كما لم يأكل في حياته، ولما انتهى نظر بحر، بهدوء
مفزع والخنجر في غمده يتلمسه: «وداعًا، يا كذاب!». ويرتعد
جسم مبروك، وينزل على ركبته، يبكي ويصرخ: «اتركني أعيش.
الحقيقة قلتها لك، اتركني».

ينظر إليه بحر، وبكل صرامة يجيبه: «الأمر ليس بيدي!».
تخرج حروف السؤال مرتجفة من فم مبروك: «ومن غيرك
بيده نجاتي؟».

يرفع بحر سبابته إلى السماء بخشية ورهبة، ويقول: «الله».
وإذا بنصل الخنجر يلتهم إثر خروجه من غمده، وإذا بالدنيا
تظلم ومبروك ينطرح على الرمل غائبًا عن الوعي، قبل أن يمسه
الخنجر. وكان ذبح مبروك في ذلك الوضع من محرمات بحر!



فتح مبروك عينيه بعد ساعات على غبشة، أخذت تتبدد عن جبل وقرص شمس يلسع قفاه، وبحر يخرج من كهفه يرتدي جلبابًا وقورًا، ويقف أمامه، ينظر في عينيه ويتسم: «مبروك نجاتك!».

ورغم شغف مبروك لم يسأل لم تركه؟! لكن عندما هم بحر بالمضي في طريقه سأله مبروك: «أين ستذهب؟!؛ فاستدار بحر وقال دون مواراة: «لأتم قدرًا».

- خذني معك، كابن يحمي ظهره.

خرجت الكلمات من مبروك صادقة، ودخلت قلب بحر، فأدرك حينها صدق ما حكاها مبروك. وهتفت في رأس بحر فكرة؛ فالتفت إلى عيون مبروك، وقال: «تعاهدي؟».

- أعاهدك.

تخضب مبروك بدم، وأقسم بعهد، وترحم على كل ضحية كتب الله قدرها على يده.

وفي الطريق لاحت لمبروك دنيا جديدة، عرف أن الخوف مقبرة الأحياء، وأن النفس تموت مرة واحدة. سار مبروك لأول مرة بقلب لا يهاب شيئًا في الدنيا إلى الضفة الأخرى عبر؛ فأنفذ مبروك بخنجره الجديد حكمة القدر، وبقي مع بحر شهرًا فأخر يتعلم. وفي ليلة يحيطها الدخان الأزرق، والليل، والهواء الطري،

والعهد، ودفع النار، ووجع ذكرها رنت عيون بحر إليه، وقال
بيقين: «عد إلى البلد، والغلبة لنا قريبًا، يا ولدي!».



أقبل مبروك من الصحراء، فوق أتان عفية، خاض في شوارع
البلد، لا يعرف أحد أين ذهب ولا أين كان! يوجه أتانُه عند
انعطافات الشوارع، وجهه متحدًا، وعلى شفثيه بسمة ساخرة
ينفثها في وجوه من يبغضهم، بعينه الزجاجيتين خطف برق
ودم، شيء فيه مات وشيء ولد، ينظر إلى البيوت وإلى الناس
نظرة متفحصة هادئة، تسحب على وجهه وقارًا غامضًا ورهبة.

في منتصف الشارع الملتوي، يظهر له رضوان، فينحرف
بالأتان تجاهه، وعينه تتفرسانه. يمسك رضوان بلجام الأتان،
ويتنظر مبروك أن ينزل ليسلم عليه، لكن مبروك يظل فوق أتانِه،
وقال باحتقار: «كيف الأحوال، يا رضوان؟».

وأحسها رضوان استهانة، وقبل أن يسأله رضوان عن سر
غيابه، ينغز مبروك الأتان ويتعد متجهًا إلى داره!



تَفَلَّتْ أرزاق في صدرها لما رأت مبروك، ودت أن تشتمه
وتقول له: «ياما جاب الغراب لأمه». وعندما نظرت في عينيه
خافت وخرست على غير العادة! لم يكن في الدار غيرها، وهو
قفز من على الأتان وشد من الجراب كيسًا وأمرها بصوت صلب

واثق: «ورائي!». دخلت الغرفة خلفه، فتمدد على الكنبه. أغمض عينيه متنهدًا، ثم فتحهما وسأل: «ماذا صنعت في غيابي؟!». - كل خير، والله.

قالتها بصوت مرتعش وقد سرت الرهبة في بدنها، فلما ابتسم بلغت ريقها الجاف وتنهدت، أخذ يتفرسها لوقت ثم فتح كيسًا والتقط قطعة ذهب مررها أمام عينيه ورماها، تتبعت أرزاق بريق الذهب في الهواء حتى استقرت على الأرض؛ فانكفأت تلتقطها وتتملاها صارخة بجنون: «ذهب يا مبروك.. ذهب!». وهو لم يرد، بل أمر: «خذيها، واخلمي جلبابك». ورغم ارتباكها، خلعت الجلباب وبقي آخر على جسدها فالتقط قطعة أخرى ورماها فانحنت بصعوبة والتقطتها من على الأرض، ولما وضعتها في كفها؛ أمر: «اخلمي الآخر». نظرت أرزاق بخوف لكنها امتثلت وخلعت الجلباب وبقيت بقميص قصير، تملاها، ورمى بقطعة أخرى، وأخرى. وعندما أمسكت بخمس قطع كانت تقف أمامه عارية، وقد بان بطنها على وشك الولادة؛ فتفرسها، وأمر: «اتركيني الآن، ولنا حساب».

ارتدت أرزاق ملابسها، وجسدها يرتعش، وقلبها يخفق، وعقلها يشرد!



قبل أن يترك خليل الدار الكبيرة طبع قبلة ممتزجة بالدمع على جبين نجاة البارد وغادر، مشى في الصحراء هائمًا تائها!

حتى اقترب من الكوخ وسمع قنديل يناديه: «أقبل»؛ فطرق الباب بمحبة، وقال بشوق: «افتح». وسمع الصوت الهادئ يخبره: «أنت دخلت». وحسبها سخيرية، فتراجع خطوة، يفتش في قلبه؛ فذهل كيف دخل؟! انكشف لخليل في قلب النداء حكمة، وفي ضوء النهار رسالة، وبجوف العتمة رحمة، وبالغمام نبوءة، وفي المصيبة لطف، فبكى لصفاء ما رأى. غسل سكون الكوخ وحشة في قلبه، وأضاء مشكاة نور في روحه، فطبع قنديل قبلة المحبين على كتف حبيبته خليل وهمس: «في موعدك جئت، يا صاحبي».



واسعة غرفة جعفر وزوجته بهية، مطلية بالجير السماوي، وتلاصق غرفة نجاة. بخيرية تدير بهية شؤون الدار؛ تطبخ ما تشتهي، وتخبز في الوقت الذي تختار. لا تسألها الجلييلة عن شيء، ولا توجهها إلى شيء. تنادي بمحبة وتطلب ماءً، فتضع بهية نعناعاً أخضر بفوهة القلة، وتمدها مبتسمة: «تفضلي، يا أمي!».

وتنغرز الكلمة لصدقها منبته في قلب الجلييلة شجرة محبة. تصطحب بهية فرشة الجلييلة إلى الهواء والشمس كل يوم، تشتكي الجلييلة من ألم قدمها فتنهض بهية مسرعة تحضر صوفة ودهاناً؛ تدلك للجلييلة قدمها بالدهان، وتلف الصوفة عليها. في الليل تدعو لها الجلييلة راضية وهي جالسة وسط الدار المرشوشة أرضها بالماء المبخر تلوك تمرات عشائها وبود تتحدث معها.

مع الأيام يصير جعفر كخليل، وبهية كنجاة، والولد سيد يحبو كحبو مختار، ليصفو قلب الجلييلة من أسى فقدھا الموجع.

جعفر في دار الجلييلة مستريح وفي أرض مختار التي ورثھا عن الغرباء الراحلين، يعمل دون راحة، العيون تراقبه، تنقل تحركاته وهمساته، جعفر يرعى الأرض بإخلاص من لحظة الزراعة حتى الحصاد، بعدها ينتهي عمله وتلاشى إمرته. يوصل رجال عبد الجليل المحصول إلى الشونة، ومنه ينقل إلى الصوامع التي بناھا مختار، وصارت ملكه كما الأرض.

أوكل بيع المحصول لعبد الجليل؛ فاصطفى من الرجال أسوأهم، يوقرونه ويغالطونه في المكيال والحساب، يوهمونہ بالأمانة وهم يسرقونه، يباع نصف المحصول إلى تجار غرباء، ويقبض جليل النقود عدًّا، ثم يذهب بها إلى مختار سعيدًا بشطارته.



أمسك مختار بالمنع ومقاليد النفوس، وعندما استتب له الأمر انفلتت الأهواء، مَيَز القراية على الحاجة، والمصلحة على الحق، صارت العطايا لمن لا يستحقون، والتقطير على من يحتاجون، ولضيق الحاجة أخذ الناس يتبارون في التقرب إلى النافذين من رجال مختار صونًا لحقهم المشروع، وسرعان ما تحول التقرب إلى مذلة، ولما غابت الكرامة أخرجت النفوس أسوأ ما فيها فعم البغض والكراهة والوشاية. ولما رأت الجلييلة

ما يجري عبر همس شكاوي الخائفين، حملت جعفر رسالة بها قرار لمختار.



قبل أن يشتري مبروك بيته الجديد ذهب إلى حسونة موارياً ناره مخفياً غلّه. أعطى حسونة ضعف المال الذي حمله أمانته، واخترع قصة ضاع فيها المال واستُرد مضاعفاً بالقوة والشجاعة، مُرغماً بلع حسونة ما سمعه، وقد أحس أن شخصاً آخر قد تلبس مبروك، شخصاً ماكرًا، وقاسيًا، ومهابًا، صلبًا وغير مأمون. عندها أيقن أن الطريق إلى أرزاق صارت مسدودة، انتابه شرود وكمد، وأمسى ضجرًا من كل شيء. نسي واجباته فتراكمت الأخطاء، ومع الغفلة اهتزت صورته في عيون الجميع، وانتظر مختار أن يفيق حسونة من كبوته لكنه تمادى فاقدًا كل حاجة إليه، رأى مختار ألا مفر من وقفة حازمة أو قرارٍ ماكرٍ.

صارت لمبروك سطوة أخذت تقوى وتتسع، يمنح من يبغضه حتى يصير بين يديه ذليلاً، ويتربص بكل ساخر يرهبه حتى يخترق القدم وييدي الأسف. لم يترك أحدًا أهانه إلا وردَّ له الإهانة، ثلاثة فقط لم يقربهم، رتب لهم في خياله انتقامًا يليق بهم، وانتظر الفرصة متلهفًا!



بجلباب صوف، وشالٍ من حرير، ومداس من جلد يتجه مبروك إلى المرسى ويصعد المركب، لا صرة بيده، ولا أجلة

على كتفه، يخبر الناس بأنه يتاجر، لا يتأخر أكثر من يومين، يعود بجلباب جديد ومال وفير، رأسه مختال، وعيناه متحديتان، في إياه الأخير أتى بمرضعة شابة لابنه بحر، ولم تفهم أرزاق لذلك سببًا.

عندما رفض الولد صدر مرضعته، ضاق مبروك وصرخ في طفله يؤنبه كأنه يفهم، وكلّف المرضعة بنصف أعباء الدار، وبقي لأرزاق النصف الآخر، وأخذ هو يعد الأيام والليالي، ينتظر فطام الولد.

ما إن يدق مبروك باب البيت بقدمه ليلاً حتى تنهض أرزاق من نومها ملسوعة تفتح الباب، وترمي نفسها في حضن مبروك الذي لا يبالي. ترفع عن كتفه عباءته، فيتقدمها مترفعاً ليدخل الغرفة. يجلس على حرف الكنبه فتحنّي تخلع المداس المتسخ لتنظفه، وتضع قدمي مبروك في طست ماء بملح، تحك بطن قدميه بحجر خشن وهي تتملى حدقتي عينيه الجامدتين، وتسأل: «كيف أحوالك يا حبيبي!»؛ فيهرز رأسه، ويخرج من سيالته كيسًا، يفتحه ويمسك برأس ثعبان مرقط يتلوى، يقربه من وجه أرزاق التي تنتفض مذعورة إلى ركن الحجرة، تترجى: «ابعده عني»؛ فيشير بكفه منتشياً بذعرها: «قفي هنا يا بنت الكلب». ويحدد بإصبعه نقطة على فراغ الأرض تقترب منها أرزاق ببطء، تقف وجسدها يرتعش، ومبروك ينظر إلى عينيها المذعورتين ويقهقه.



بقلبٍ راضٍ، ولسانٍ صامت نزل خليل البلد، مشى في الشوارع ينظر إلى الناس منصتًا لأوجاعهم كأنها شاغله الوحيد، وما إن اعتادته عيون الناس حتى تشجعوا وسألوه: «لم غادرت دار الجليلة؟» فيومئ إليهم ولا يرد بكلمة، يكتب حينه إلى الجليلة والدار وينصرف، يترجل عائداً إلى الصحراء ومنها إلى الكوخ، وقد أمسى سؤاله مع صاحبه، وراحته في تتبع النور أعلى الجبل.



عبد الحي يجلس متوحدًا مع نفسه لا يرى ولا يسمع سواها، عبد الحي الذي شرب الحيرة حد الامتلاء لم يعد يتذكر شيئاً غير تواريخ ضالة تهف عليه دون موعد، وتذهب دون موعد أمه وزوجته جالستان تبكيان عليه، لا تعرفان سبباً لما ألمَّ به أمه تقول: «محسود»، وزوجته تدعو على أرزاق وتبكي على مبروك.

ينهض عبد الحي مبتعدًا عن نواحيهما. يجر جر قدميه شاردًا دون هدى. وعند أول الطريق تهف عليه مع الريح ذكرى. يتخيل نورًا رآه منذ سنوات بعيدة. يهمس بأسى: «كعب الخير!».

كفه المرتجفة تقبض على عصا يتكئ عليها، جلبابه صار متسعًا على جسده الذي يضمر، حافيًا يشق الطريق بين الشواهد، ينزل تلة القبور بصبر، ولا يكثر لنداءات سيسبان وعديد شرقاوية.

البيوت تقترب، والشوارع تتشابه، يسأل نفسه: «أين الدار؟». يلف في الحارات تائهاً، وبالمصادفة يصل. يجلس على المصطبة متوحدًا مع صمته؛ ينتظر الناس و ينتظر خروج نعش كعب الخير. لكن الناس لا يأتون، والدار لا تُفتح، وهو على المصطبة جالسٌ ينتظر، الشمس تغيب وهو على حاله مع نفسه، وقرب منتصف الليل يمر به رجل، يقترب ويقف أمامه محدقًا، فيسأله عبد الحي بوهن، وبعيون شاردة: «من أنت؟».

ينظر إليه مبروك، دون حزن، ويمضي في طريقه إلى داره.



في اليوم الموعد؛ يأمر مبروك -زوجته الثانية- المرضعة: «افتحي الغرفة المعزولة». ويشير لأرزاق دون أي انفعال: «ادخلي قبرك!».

ينخطف قلب أرزاق، فتترجى وتتذلل وتبوس اليد: «في عرضك».

- عرضي بعثيه، يا زانية.

- أقسم بالله لم أخنك.

- لا تقسمي، بل اعترفي، عندها أسامحك.

وتصمت أرزاق وقد أتاح لها مبروك مخرجًا؛ تعترف بوزر مرة فيسألها: «مع من؟»؛ فتتكس رأسها: «حسونة»، وترتمي

على قدم مبروك تقبلها وتطلب الغفران، فيأمرها بصوت متجبر: «انهضي يا بنت القحبة». تنهض، ويصفعها مدميًا وجهها، وبخشونة يقيدها ويدفعها بقدمه: «أظننتي رضوان يا رخيصة». ويأمر زوجته: «لا زاد ولا ماء».

يومًا إثر يوم، يبدو الوهن على أرزاق من منع الزاد والماء، أمسى الدهول عنوان وجهها، لكن ذلك لم يمنع زوجة مبروك من التفنن في إهانتها، تسبها وتبثق على وجهها، حتى جاء يوم وجدها مبروك زائغة العينين ميتة، فأخرجها من الحجرة، أعلن موتها، ودفنها في المقبرة، وتقبل العزاء من الناس التي أتته مجبرة خائفة.



يدخل جعفر قاعة الدوار مترددًا، يجلس على مقعد بعيدٍ عن عين مختار المتربع في مجلسه العالي. الناس يجلسون تحت قدم مختار صاغرين، وكأنهم يستعذبون الخضوع، لم تعد أحكامه تروق لأحد لكنهم يأتون إلى الدوار خائفين من البطش، يلتزمون بحكمه حذرين من التفوه بكلمة تشي بما في قلوبهم. لقد ورث مختار كل شيء، خيرات البلد وأبهة من سبقوه. الحق أن مختار لم ينتزع ما فيه عُنة، الناس طائعين وهبوه كل شيء دون أن يعطيهم شيئًا، لقد أمسى يهينهم فيوقرونه، ويدلهم فيعظمونه! هذا كان حالهم في الماضي وحالهم الآن.

عين مختار تحدج في عين جعفر كل حين بنظرة مستريية، حتى انتهت الجلسة وانصرف كل الناس، تقدم جعفر وجلس بجوار مختار الذي نظر إليه، وقال: «ما الذي جئت من أجله؟». وتلعثم جعفر حتى نطق: «الجليلة أمرتني أن أشرف على أرضها التي أعطتها لك».

ويصمت مختار قليلاً، ويهز رأسه مدعيًا الرضا؛ فينهض جعفر مستأذناً بعدما يسكت الكلام، وحين يدنو من الباب، يلسع ظهره أمر مختار: «ابعث بمفتاح الدار التي وهبتها لك، ولا تقرب أرضي».

فيهز جعفر رأسه، قائلاً بأدب: «أمرُك يا عمدة».

24

الليالي الحزينة تتمدد في عيون حسونة بلا نهاية، يسأل نفسه: «أين الراحة؟»، بموت أرزاق انكسر، ذهب ضحكة القلب، وانطفأت رغبته المُحِبَّة للحياة، وكأن أرزاق أخذت حياته معها، نفسه تأبى غيرها، وعقله لا يفكر إلا في رحيلها المفاجئ.

سحب مختار من تحته بساط السلطة بهدوء، ودون أن يخبره صار بين يوم وليلة على الهامش، لا يأبه به أحد، ولا يسمع كلامه أحد، ضاقت الدنيا في عينيَّ حسونة حتى أفلت فباعها ومضى غارقاً في أحزانه، تلسعه كلمات المواساة وتكويه الذكرى.



سر مبروك تلوكه الألسن في الخفاء: «من أين له بالمال الذي اشتري به بيتاً؟ وإن كان يتاجر فأين تجارته وفيه يتاجر؟». وتراكت الأسئلة وكثرت الأقاويل، والحكايات المرهبة التي يهمس بها الرجال ويقصصها الشباب في السمر. رضوان يُفْلِي الأقاويل ويلضم القصص، ليخرج منها باتهامات وحقائق، يسمعها مختار بصمت وتفكير، وبصوت هادئ يأمر: «أريد أن أراه».

ويرتب رضوان الأمر، ويحضر مبروك، يسلم ويجلس بثقة في القاعة الواسعة ويظل ساكناً، ولما يطول سكوته ينظر مختار إلى رضوان ويأمر: «اخرج أنت».

ويغلق رضوان الباب وهو يسأل نفسه: «كيف ستسير الأمور؟».

ينظر مختار إلى مبروك ويسأل: «أخبرني كيف ماتت أرزاق؟». وفي اللحظة التي يهم فيها مبروك بالجواب، يقهقه مختار قائلاً: «أقول لك لا يهم!». ويحجج مبروك بنظرة تقول الكثير، ثم يسأله: «أخرجك مسنون؟»؛ فيجيب مبروك: «مسنون ويتنظر بشوق». فيتيقن مختار أن مبروك صار نافعاً لمهام لا يمكن لأحد غيره في البلد أن يفعلها!



القمر قرص جمر في عيون مختار، يلسع عينه وينبش ذاكرته! ما بينه وبين القمر من جفوة يشبه ما بينه وبين فرحة، ضفتان بلا جسر، هو في ضفته حائر ومتوجس، وهي على ضفتها تفتش، فلا تجد غير الجفاء والإهمال، ومع كل صبح تتسع الهوة بين الضفتين حتى افترقتا وجف الماء.

انطفأت فرحة وأمست تجلس في الدوار خرساء، لا تأمر خدمها ولا تعضب منهم. اعتادوا سُكاتها ونسوا أنها سيدة عليهم، تعمل مثلهم يدها مع أيديهم لتبدد الوقت الثقيل دون أن تعباً بنصائح مختار الغاضبة: «أنت سيدتهن، وهنَّ خادماذك».

قدمت فرحة كل شيء قرباناً للمحبة، لم يرد لها مختار شيئاً، ظلَّ خائفاً أن يقع في براثن هواها، تسأله عن محبته فيهرب متعللاً بانشغالاته، شيئاً فشيئاً لم يعد يجمعهما غير الطعام في يوم الجمعة والسريير كلما صرخت غرائزه.

مختار لا يعرف عن الحب غير حكايات العذاب والأرق، الضعف والمذلة، الخضوع الممتلئ بالغفلة! لذا عندما يسمع كلمة الحب، يصرخ في نفسه يصدها: «في الحب هلاكك يا مختار».



هل هرب النور الخفي الذي خاتل عبد الحي عمرًا؟! أم أن هذا النور كان وهمًا في عيونه؟ تربت سيسبان على كتف زوجها، وتترجاه شرقاوية، فينهض في صمت وهو لا يعي ما يقال. يمشي واهنًا يتكئ على عصاه، يخرج من المقابر التي سكنها عائداً إلى داره بعد موافقة مبروك على طلب أمه وإلحاح جدته.

تجمد العالم في قلب عبد الحي، فلم يعد يعرف الحياة من الموت، ولا الفرح من الحزن، ولا اليوم من الأمس، ولا المقبرة من الدار. إنه الآن غريبٌ أمام دنيا غريبة لا يعرف فيها شيئاً. يسير يتوسط زوجته وأمه غير واع لكلامهما ولا لنظراتهما الحزينة عليه! فجأة يسمع نباح كلبٍ هرم لا يعرف من أين شق طريقه وجاء، يتمسح في أرجل عبد الحي طوال طريق رجوعه، تظل الناس ترقب إنكسارهم وتهمس حتى وصولهم، عيونُ الناس

مثل عيونهم منكسرة حزينة بعد أن كانت ترفع راية الأمل في
الغد الذي وئد!



عبد الجليل عنده الآن من الدور ثلاث، ومن الفدادين عشرة،
وله من الجباية مقسوم، ومن حصاد الأرض عطية، والخدم عنده
يعرفون مزاجه: الدواجن في يوم، واللحم في التالي، والفاكهة
أمامه من كل الصنوف على صينية تلمع، يأكل بنهم، ويمشي
باعتداد بعد أن أمسى غريمه حسونة، نكرة، يبعد عنه الناس كأنه
الجرب. عبد الجليل، يؤمن أنه محروس، ومن يمسه بسوء ينزل
عليه غضب الله.

ويومًا بعد يوم أحس بأن الوقت حان ليتزوج، سافر أسبوعًا
بشوقه وبأطيب الهدايا لأهله، وزع نقودًا ليعلن عن جاهه، وتزوج
عروسًا فاتنة اصطحبها معه، ومعها من أبناء عمومته اثنان ومن أبناء
أخواله واحد. والباقون زاروه مرة، وفي الثانية أطالوا الجلوس،
وفي الثالثة قرروا البقاء في البلد ولم تمر السنة حتى أمسى لكل
واحد منهم بيت وخدام، والعزوة حلوة في السمر، والجلسة كلام
وحكايات، يهمس عبد الجليل لأقاربه: «علّمت مختار الكتابة
والقراءة وآويته في حجرة كان يدفع إيجارها أهلنا، و...».

الأقارب يهزون رؤوسهم لولي نعمتهم ويسمعون، الأقارب
منهم الفطين والثرثار، والثرثار يهمس سرًا لبعض زائريه بما يقوله

جليل، وزائره يهمس لألفٍ غيره، رضوان يسمع ويتعجب مما يسمع، حتى بان للكثيرين أن عبد الجليل، يُحضّر لوراثته مختاراً!



من داره خرج عبد الجليل متعطراً مرتدياً جبته وقفطانه، وإلى الساحة إتجه حيث ينتظر الكادحون توزيع الغلال بعد الحصاد، الناس في الساحة يجلسون بنصف روح ويسمعون بنصف أذن، وجوههم متعبة وأيديهم مشققة من الكد، يأخذ المعوزون أقل بكثير مما يكفيهم فقط كل ما يصنعونه هو تلك النظرة المعاتبة المستجدية التي لا يعبأ بها أحد! ثم يهمهمون في سرهم، وينصرفون بحسرة.

وإذا بخليل يخترق الصفوف حاملاً على لسانه ما بقلوب الناس من وجع وشكوى. يتنفض عبد الجليل مُرحباً، لكن خليل لا يعبأ بترحيبه، وبعد نظرة لعيون الخفر؛ يهتف بصوت حاسم: «لم تسرقون حقوق الناس؟!».

وبصوت متلعثم يتكلم عبد الجليل بدفاع باهت، ثم يحلف بأنه يوزع كل شيء بالعدل، وأنه يراعي الجميع ولا يظلم أحداً، ويقاطعه خليل دون أن يعبأ بكلمة مما يقال: «ليأخذ الناس ما يكفيهم الآن وبعدها نرى».

مدعوراً يشير عبد الجليل إلى الخفر فيزيدون الكيل أضعافاً ويوزعون، تنفرج البسمة على ثغور الناس، ويهرب الكلام من

عبد الجليل فيسكت، ينهي خليل الصمت وبصوت قاطع يقول:
«أخبر الولد مختار أن يعدل!».

وينظر خليل في عيون الناس يلومهم وبلهجة أمرة يؤنبهم:
«لا تستعذبوا المذلة».

يأخذ الناس ما يكفيهم من الحبوب وقد اشتعلت عيونهم بالأمل. يقف الخفر في ذهول، ليس من صمت جليل بل من تلك النظرة الخائفة من شيخ نحيف جاوز الخامسة والستين، لو كان بيدهم الأمر لهجموا على المتبجح وأبرحوه ضرباً ومذلة، يقترب خليل وفي عيون عبد الجليل ينظر وبصوت واثق يكرر:
«قل لمختار عدل... وإلا...!».

بعد وقت قليل من مغادرة خليل للمكان؛ يفيق عبد الجليل مما هو فيه، يستعيد بعضاً من هيئته التي ضاعت ويشير إلى الخفر، فيضرب أحدهم طلقة في الهواء، يتسمر على إثرها كل الناس، وينطفئ الأمل في عيونهم ويتخشبون، يمسك القائمون بالتوزيع على أيديهم، يعطون للناس أقل مما كانوا يعطونه قبل مجيء خليل، وبغير همهمة مكتومة لم ينبس أحد بكلمة اعتراض!



تحت وطأة الملل، وقبل أن يبلغوه بما حدث، يمتطي مختار حصانه، خلفه ثلاثة حراس، وغير ديب حوافر الأحصنة لا شيء غير الصمت، يمر على بيوت الغرباء التي صارت ملكه فيتشهي، وعلى أطلال دوار أبو جميل الذي صار ملجأً للوسخ وللهمام

ييصق، ومن طريق ضيقة على جانبيها جنائن يرتقال وموز يترجل
 بخيلاء، يجتاز مسروراً أرض النشع الممتدة التي ضُمت لحيازته
 مع الجنائن، يشعر مختار بقوة السلطة ونشوتها، وهو يحرك
 حراسه الأشداء بإشارة من إصبعه. إنه يرى الموت أقرب إلى
 أرواح الجميع إلا روحه، يضحك وينطلق فوق حصانه يسابق
 الريح. يودع البلد ويمخر في الرمال، تحت صفحة سماء موشاة
 بنجوم تنبض بنور لا يراه!

الريح تصفر يسبقها وتسبقه، وفي الأفق البعيد خلف أمواج
 الرمال يرى أغصان شجر عالٍ، يحس أن أطراف الشجر تشير
 إليه، يهتف صوت في روحه يسأل: «أحان الوقت؟!». يمرق
 كالسهم صوب الكوخ، وعلى مسافة بعيدة منه يأمر الحراس ألا
 يتبعوه.

يقترّب، وفوق حصانه يتأمل المكان، وينزل مندفعاً، يشد
 خلفه لجام حصانه، يرى أشجاراً نبتت وأخرى علت، والأرض
 كعهدها مرشوشة بالماء، والأشجار متعانقة تنفث في الهواء
 رائحة حلوة، يربط لجام حصانه قرب البئر، يتجه إلى باب
 الكوخ، يدق عليه وينادي آمراً: «افتح.. افتح».

يضرب نداؤه أرجاء المكان ويرتد صده لاذنه عالياً دون
 جواب، لم يئأس وأخذ يدور حول الكوخ وأذنه تنتصت، غير
 وسوسة الليل لم يسمع، يوشك أن ينادي ثانية لكنه يتحير بماذا
 ينادي؟ هل يناديه أبي؟ أم يناديه قنديل؟! يعيد النداء كثيراً دون

جواب، فيسأل: «هل أتى في الموعد الخطأ! أم أنه أخطأ حين جاء؟!».

السماء تقطر ندى، والظلمة تعرش على عيونه، مختار جالسٌ يلسعه البرد، وتلفه الحيرة! إلى البئر يمشي واثقًا، يرى الدلو دون حبل، فيدفعه الفضول كي ينظر إلى قاع البئر. يبتسم هازئًا من دعر سقوطه القديم وصراخه، ينظر إلى ظل جسده المتعلق، ويستفزه إحساس غامض بالتحدي، فيقرر نزول البئر ليشرب من مائها ويملاً الدلو لحصانه. ينظر إلى فتحة البئر الضيقة بسخرية. يمسك الدلو ويضرب قدميه في اتجاهين ثم ينقل قدمًا وأخرى، وبعد متر أو يزيد من نزوله يدرك أن الظلمة خائته وأن البئر تتسع كلما نزل. تهتز أقدامه من قلة النوم وإرهاق الطريق، قدمه المرتجفة على وشك أن تخونه، يقرر أن يتجنب الشر ويصعد، وكلما رفع قدمًا تنهار جوانب البئر اللينة، يضرب الأخرى فتتسع المسافة ما بين قدميه، يحاول أن يمسك بشيء فلا يجد، وبمرور الوقت يفقد ثباته وكثيرًا من تركيزه، يخفض رأسه؛ فيبصر وحشة الظلمة في عمق البئر، يرفع رأسه فيدرك أنه في حاجةٍ إلى معجزة كي ينجو، ينادي حراسه فيخرج صوته من البئر ضعيفًا، وترتد صرخته إلى أذنه ممتزجة بالصدى، يحاول النجاة ويفشل، يستغيث بحراسه ولا مغيث. وعندما تنطفئ كل آماله في النجاة؛ يضربه الاستسلام. يشعر كم الدنيا رخيصة وماكرة، غالية لحظة فراقها، موحشة في سفرها، ثقيلة في توالي

لياليها، مخيفة بظلمتها. أخف من ريشة عند الفرح، وأثقل من جبل أوقات الأسى. وبقلب الخطر يغمض عينيه ويتأمل كل ما كان: طفولته، أباه، أمه، هروبه، الرُّبع، سليم، عبد الجليل، أنيسة، السجن، ويتأمل رجوعه والحريق. فيقول يائسًا: «أهكذا تكون نهايتك؟!»، ويستسلم بعد أن يوقن ألا أمل في النجاة، وقبل أن يرمي بنفسه في البئر لينهي وجعه بيده؛ يسمع النداء: «هات يدك».

يرفع رأسه وعندما يبصر منجده مشوشًا وبعيدًا؛ يصرخ مستنجدًا: «ارم لي بحبل».

فيرد منجده بهدوء وطمأنينة: «هات يدك».

كغريق يرفع مختار كفه لأعلى، موقفًا باستحالة ملازمة يده ليد منجده، الذي يبسمل ويقبض على كف مختار ويرفعه كما لو أنه ريشة بلا وزن، وعندما تلامس قدم مختار الأرض، يلمس قنديل ظهر مختار مترفقا: «أنت الآن بخير. فكر في الرسالة».

يود مختار أن يرتمي في حضنه ويبكي على كل ما فات، إنه يكرهه ويحبه، يجله ويحتقره، يشاق إليه ويأنف منه! ود مختار أن يبكي فحبس دمه، ود أن يصرخ فصمت. أخفض رأسه بين كفيه برهة ليأخذ نفسًا عميقًا، وعندما رفع رأسه رأى قنديل ينظر إليه بعطف وشفقة. لم يتحمل مختار تلك النظرة، فابتلع كل أسئلته وهمَّ مغادرًا يجرجر بقايا صورته المهترئة، ودون أن يشعر انفلت منه سؤال عمره الموجه: «أنت أم خليل؟ مَنْ منكما أبي؟!».

ينظر إليه قنديل نظرة معاتبة، ويسأله بصوت مقرع: «لم
أحرق البلد يا بُني؟»، ثم يمضي، ويختفي عن عيون ابنه في
متهاتات الجبل.



البردُ قارسٌ، والصحراء تيه، والزمن دائرة بلا نهاية، مختار
صامت فوق حصان يتحرك بلا قيادة، الحراس يسألونه ولا
يجيب! يود أن ينتهي الطريق، ويعتصم بجدران حجرته، متعب
يحمل على كتفه شقاء أيامه، يراوغ عتاب أبيه فيرجع الزمن
وينفي عن نفسه كل خطيئة، ويدين فعل الناس الذين رموه في
الغربة! يتجرع الذل والجوع والتشرد، روح مختار تتخبط في
الظلام وعينه يجرحها النور.

على مشارف البلد تترصده عين في الخفاء تطلق عليه عياراً
نارياً وتهرب. يسقط غارقاً في دماء كتفه، يندفع حارسان يبحثن
هنا وهناك، ويشق الثالث قميص مختار كاشفاً عن تهتك جرحه،
يكتم الدماء بقماشة، ويسوي ناراً يكوي بها الجرح بعدما ينتزع
الطلقة من بين اللحم المدمي. يُربط الجرح ويحمل مختار إلى
الدوار فوق حصانه وعلى وجهه شحوب الموتى.



لم تصدر عنه صرخة، أبعد فرحة إلى بيت أمها، وتحمل
وحيداً آلامه، وحُمى الجسد، وعلقم الشراب. يتحرك للضرورة

متحاملاً على ضعفه، جريحاً ومشوشاً ومهزوماً. رضوان يهمس في أذنه بكل ما عنده من أخبار عما قام به خليل، وبكل ما في صدره من شكوك، ثم يختم بسر أنس الذي سرّبه أقارب عبد الجليل. يغلق مختار عينيه فتخرج له كف أمه من ظلمة المجهول تستصرخه فيفتحهما على وخز ملمس خاتمها في خنصره وقد انطفأ عن صفحة وجه عبد الجليل بهاؤها، واغبر جبينه بالذنب!



في حديقة الدوار الخلفية: أعمدة من خشب مغروسة، وتكعيبة عنب يتدلى، على الأرض بساط من صوف خرفان، وفوقه مساند من قطن هش. في المنتصف طبق متخم بفواكه شتى، وبجواره نرجيلة. وحال تهل نسائم العصر يخرج مختار وقد قارب على الشفاء: يجلس وحيداً، يأكل ويدخن، يطلب مبروك إذناً بالدخول، حاملاً معه رسالة بحر القاطعة للشك: «هو من دبر لقتلك، ومن نفذ قُتل».

يتغير وجه مختار، يغمض جفونه على دهشته، ويزفر محذراً نفسه: «أفق من غفلتك»، ويفكر بما لم يكن يتصور أنه سيفكر فيه. ينصرف مبروك والدخان الأزرق يضرب نافوخ مختار فيحدث نفسه: «الأرض تحت قدميك والناس بين يديك، والحق أنه لا شيء ولا أحد، المعروف تبدد، والناس تتبدل، وذوو القربى تتمرغ قلوبهم في طين الأطماع، والغدر يأتي مع الجشع، والناس ما زالوا يأتون بلا انتهاء يتوسلون، وصدورهم تمتلئ بالسخط على

مقسوم الله! أبصر الحقيقة، يا مختار، الصغار يطمحون أن يكونوا كباراً، والأولاد يظنون أنهم صاروا رجالاً، وينسون أنك وحدك من حررتهم من عبوديتهم، وقضيت على الأغراب. وحدك من أصلحت الأرض البور، وعمرت الخرائب، وأدقتهم الأمن من بعد خوف، والآن لا ترى سوى أن كل الناس قد نسوا ما صنعت، وتهلّل الأوغاد في الساحة مع خليل يطلبون زيادة ما تهبهم من خيرك. أي عدل يريدون؟! كل يوم يخبرك رضوان عن همسات سخطهم على مقسوم الله فتضحك وتقول: هذه المرة سماح. لكن لو ظل الحال كما هو فلن ينعم البلد بخير. لا أحد يصبر، ولا أحد يشكر. عبد الجليل غبي؛ وسوسوا له فعصى وخان، وجعفر طماع، والطماع لثيم ماهر، جعفر الذي وهبته داراً وعملاً يقعد الآن مكانك في دار الجليّة! كيف تصنع الجليّة ذلك؟! بماذا أغراها ابن عبيدة؟ لكن هكذا الناس، يا مختار، وهكذا الدنيا، غفل راضي فصلبوه، وغفل الأبيض فقتلوه، وغفل أبو جميل فحرقه الله! هذا البلد دائماً يخضع للغالب، كل أهله خدام للقوي المالك، عبيد كل حاكم، يبجلون أسيادهم، ويهابون المتجبر، لو غفلت ستقوى شوكة الطماعين والخونة، ويضربك بلدك ويأكلك ناسك! أفق وأبصر الحقيقة يا مختار. هذا البلد صار لزاماً عليه أن يذوق طعم الوجع كي يتطهر، أوجعه يا مختار بلا رحمة ولا شفقة فعين العدل أن تنقذ الناس، وتخلص ممن يحتمل غدرهم. هذا البلد به من الشياطين ما يكفي لخسفه. إذًا؛ لتذهب الشياطين، ويبقى البلد».



يقعد قنديل أعلى الجبل، جواره خليل. وعن يمينه مقام عطية الكاتب بالأسفل يخفت ضوؤه، وعن يساره البلد. كتلة من طين وغبار تشبه قبضة يد ليس أكثر، قنديل يسند ظهره إلى حجر، وعلى صخرة خشنة يريح خليل خده ويسأل: «ماذا ترى؟».

فيرد قنديل: «الظلمة مقبضة، والعاصفة قادمة، والليل طويل يا صاحبي».

فيجفل خليل صامتًا، وقد عرف طريقه إلى النور.

25

غيوم ثقيلة في السماء، وغيوم أثقل في قلب مختار. في
حديقة الدوار التي صارت مقامه الدائم، وتحت تكعية العنب
يدخن مشطوراً نصفين؛ نصفٌ يبتسم، ونصفٌ يوارى حزناً.
مبروك بجواره يسمع أمره فتبتهج أساريه. ينهض مبروك كي
ينجز مهمته، وينهض مختار مضطراً تجنباً للغبار الخالق الذي
أتت به الرياح فجأة.



في لمح البصر ينطفئ النهار وتختفي الأرض وتضيع قبة
السماء، سعف النخيل وأغصان الصفصاف تنخلع وتذهب مع
الريح، الأشجار الصلبة العالية تتكسر فروعها الكبيرة وتهوى
فوق الدور مفرقة.

الغبار يتمدد فوق البيوت، وعواء الريح يقتحم طاقات
الجدران، تفح الأفاعي، ويهدل الحمام، وتؤذن الديكة في
محبسها بصوت مذبوح، قلوب الناس المستترين في بيوتهم
غُصَّت بالخوف، الريح تضرب الأسطح بعنف وتنهب الخزائن.

أكوام كيزان الذرة تتطاير، سحارات القمح تنشرخ ثم تتهدم،
تأخذ الريح الحبوب في دواماتها وتمضي، ساعة إثر ساعة صار
البلد كله في قبضة الريح العاصفة التي تنطلق كالتصال.



تفتح فرحة عينيها على دوي ضربات الريح لشباك حجرتها،
تقلب في فراشها، تسند ظهرها إلى مخدة السرير، تسمع مع
صوت الريح طقطقات عظامها، لقد أمست مهشمة الروح،
مطعونة الفؤاد، انسحب مختار من قلب فرحة وروحها حتى
تلاشى دون ذكرى، وتجسدت أوهام خيالها إلى واقع بشع،
وعت الآن أنها تزوجت رجلاً مهزوماً بلوعة ذكريات، رجلاً
قاسياً وجشعاً إلى أبعد مدى، خذاها لا يزالان يلمعان بخيط
دمع وجرح على جانب شفتها من لطمة كفه الغاشمة، جزاءً على
جدالها معه بأن يزيد حق الفقراء من خراج الأرض ويرضخ لأمر
خالها. كتمت ألم اللطمة، وسألته بعزة امرأة حرة: «كيف تراني
يا مختار؟» فأجابها بصوت قاطع: «أنت كما الأرض، ملكي».

بكت مدركة حقيقة أسرها ما بين أربعة جدران، تتمدد فيها
وحشة لا تحتملها، فكرت في الخلاص من كابوس حياتها
المُسيِّج، لكنها لم تهتد بالأمس إلى فعل.

تفتح فرحة شباك غرفتها الذي يطل على الحديقة، تصدم
وجهها دوامات الغبار الأصفر الذي يحجب السماء، يأخذها

الأسى للشرود، تفيق على نداء من عمق روحها يحثها أن تخرج وتحرر، تحذر نفسها، والنداء يعاد بإصرار، تتحسس جرح شفتها وتنحني تلبس مداسها، وهي تهمس: «حُبُّكَ سراب وحياتك حزينة!».

وتفيق على تحدٍّ وإصرار، يجعلها تتخطى الممر، في خطوات خاطفة دون أن يلمحها الحارس، تكمل السير وتخرج من باب الدوار، لا يشعر بها الخفر المختبئون من غبار العاصفة.

مطمئنة تمشي في الشارع الخالي. تنحرف في حارة يطوقها الغبار. ذرات الرمل تلسع جرحها وخدها، وتنفخ الرياح ذيل ثوبها، وحيدة مستلبة بالنداء الهامس لا تعبأ بالغبار المعتم للرؤية، تمشي كأنها على موعد مع الخلاص من وحشتها، لم تسمع صوت عبدة الذي رفع كفه وحياتها سائلاً: «أي خدمة يا ست فرحة؟!».

ولأنها لم تردُّ، سكت تأدُّبًا وأكمل سيره إلى غرب البلد.



عبدة لم يعلم، بعد بما تفعله الريح في الخزائن. عقله منشغل بترتيبات أيام ما بعد الحصاد من: حراثة الأرض، وتقليبها، وتخطيطها للموسم الجديد. ينظر إلى الأفق المغبر بدوامات العاصفة ويهمس بعشم: ستروق الدنيا ويصفو الجو! ويلف كوفيته الصوف على أنفه، ويحكم الطاقة على رأسه الأصلع، يمشي على مهل وقد أحس بوطء الزمن القاهر وثقله.

يصل الساحة مجهداً، وأمام أنقاض دوار أبو جميل يجلس تنغزه ساقه وتؤلمه ركبته، يفرد قدميه على «نورج» مكسور، تحرك العاصفة أمامه قطعة خشب متفسخة، يلتقطها ويمسح بكفه الغبار من عليها. تنجلي تعاشيق زخرف من أحجار عتيقة، مغروسة صورتها في ذاكرته، يتهلل لعثوره على قطعة من كرسي الجليلة. يخرج من جيب جلاببه حبل تيل مجدول، وينحني يمسح بعينه المكان؛ عله يلتقط أجزاءً أخرى مخفية، ومن هنا وهناك يجد الكثير، فيربط ما جمع بالحبل، وفوق كتفه يحمله ويمشي، يقاوم عصف الريح وعند دار النجار، ينادي ويطلبه أن يأتي بعده عند دار الجليلة في الصباح. يكمل عبدة سيره ماراً من جوار بيت حسونة، يضرب على الشباك عندما يسمع ابنه يغني بأسى: «الملح على الجرح يحرق ولا يداوي».

يدعو عبدة لابنه، مشفقاً عليه في محنته، داعياً له أن يصلح حاله ويريح قلبه.



حسونة لا يكف عن غنائها، يعيده وعيناه تلمعان بالدموع، ريح بالخارج وريح بقلبه، كلاهما مسكونان بعواء موحش، ينغز الروح ويتمدد يدميها.

ينهض حسونة خارجاً من الدار، يمشي حائراً يبغي الراحة ولا يعرف مقصدها، يتخيل أرزاق والدود يأكل فمها الذي قبله، وجسدها الذي أغواه! فيتحرق كالطين في النار ويستوي قلبه

باللوعة، يسأل: «أفي الدنيا حبٌّ خالص لا يُشترى ولا يباع؟
يمتد ولا ينتهي بعجز، يطول ولا يقصف بموت، ينير بلا ظلمة
تبدده، أو سوءة تؤرقه؟». ويظل يهمس بحيرته، وطوال سيره؛
يفتش عن جواب!



ينخطف مبروك مسرعاً في الشارع الذي يسكنه، عيناه تبرقان،
وجلبابه مبقع بدماء، الشارع خاوٍ، والحذر بالغ. يدق باب بيته
بقدمه دقات متفق عليها؛ فتفتح زوجته مطمئنة، بين يديها ابنه،
بحر؛ يقبله ويدخل مبتسماً، وقد أطفأ بعض ناره!



كالممسوسة وجدت فرحة نفسها تقف أمام النهر، غير آبهة
بدوامه الغبار التي تلفها، تشرّد مستعيدة تفاصيل حياتها، وتفريق
على صوت النهر كأنه يهمس باسمها، تزيج الحذر وتصد
هواجسها؛ تتقدم مستلبة إلى جرف النهر مأسورة بالنداء، وبروح
موجوعة تسأل: «لماذا تحتمل حياة لا ترغبها؟!». تبسم كطفلة
لا يحمل قلبها وزراً، تفك طريحتها وتنزل الدرجات الحجرية
حتى يبتل خصرها، تلمس بكفها صفحة الماء، تبعد عكاثره،
فيهمس لها وجه يشبهها: «عمرك طويل!». لا تنصت للهمس،
وتغطس في الماء وتختفي!



الأفق مسود، والليل مخنوق. والشوارع مقفرة، والبيوت موصدة، إلا بيتها.

كوكب مترددة، تنهض وتجلس. تقرر وتراجع، توقن أنها قد كبرت وصارت غير مرغوبة، وأن من استحسنته أن يزورها وضربت له موعدًا؛ لن يأتي كغيره! فتهمس لنفسها وكأنها هي من تقرر: «كفى!»، وتغلق باب دارها بالمزلاج في وجه الريح. تتوسد فرشتها، وتطفئ ما تبقى من شبقها، تحاول أن تنام في راحة، حاملة بشقشقة صبح جديد، حيث النور يتفتح على مرأى عينيها!



حسونة يمر من جوار باب أرزاق شاعرًا أن: الحياة وهم كاذب، وأن ما سبق من أيامه لم يكن سوى حلم، وأن ما كان يحكيه من نسيج خياله كان أكثر صدقًا، يناجي نفسه بكلمات من قلبه الملهوف ويسير. ودون توقع يصطدم حسونة بأبيه عند انعطافته إلى وسط البلد، على كتف أبيه قطع خشب -الكرسي- ملفوفة بحبل تيل، وقبل أن يزوغ حسونة يسأله عبيدة بلهفة وحزن: «ما بك يا حسونة؟!».

وحسونة يقف صامتًا حزينًا لا ينبس بكلمة، إنه في أشد الحاجة إلى كف أبيه الحنون وكلماته المهدئة المسامحة، لكنه خجلان من البوح، يسير بجوار أبيه صامتًا كما لو أن لسانه مقطوع!

يمشي حسونة خلف أبيه، يسأل نفسه عن معنى العشق
وغايته؟ فيتلمس حقيقة أن ما كان فيه ليس عشقاً، ويتحير في
قسوة ما يكابده الآن من وجع! وتمضي به الأسئلة وهو يسير
كظل لخطى أبيه.



الناس والخفر منزوون - في مخابئ آمنة - من نصال الرياح
التي كسّت واجهات البيوت والأسطح برمال الصحراء الخائفة،
على مشارف الساحة الخالية المتصلة بطريق الربوة يشم حسونة
رائحة موت طازج، يبصر من بعيد جثماناً مصلوباً يتأرجح على
فرع شجرة سنط عجوز! يتنهد عبيدة لما يراه، ويخفق قلب
حسونة، ينظران إلى بعضهما ثم يقتربان بحذر، عبيدة يستعيز
من الشيطان الرجيم، وحسونة ينظر إلى الجثة المصلوبة بذهول.
الجثة تهتز مع الريح، كما لو أنها تلهو فوق الشجرة، اليدان
مشدودتان من الرسغين بحبل لفرعي الشجرة، الأنف مجدوع،
الأذنان مبتورتان، وعلى الوجنتين والجبهة أشرطة جراح غائرة،
الفم محشو بالإصبع الوسطى المقطوعة، وعلى الشارب وبقايا
اللحية آثار دماء تجلطت، الوجه المعذب يخفي تماماً ملامح
المقتول!

ويتجسد المشهد مفرعاً لدرجة أن عبيدة وحسونة ظلا
يتأملانه في صمت كتمثالين من حجر، يتمعن عبيدة في الوجه
المشوه ولا يهتدي إلى صاحبه، وأعين حسونة حائرة حتى ترى

الجبة المصبوغة بالدم والتراب، واللحية المتوفرة تحت أقدام
الجثة، فيقترب ويتأمل الوجه بترؤ ثم يرتد إلى الخلف خطوة
ويصرخ بفزع: «عبد الجليل!».

يلطم عبدة وجهه، وعيناه مبهوتتان أمام فظاعة المشهد،
يتسرب الارتعاش إلى جسمه فيخر في مكانه؛ من قسوة ما رأى،
أما حسونة فأخذ يبكي بحرقة نادماً على كل ما اقترفت يدها،
موقناً أن الدنيا محض اختبار. ينظر إلى كفه التي صبت القار
ورمت كرات النار على بيوت الخفراء، لا طلباً للعدل ولكن
سعيًا للانتقام والتملك، يتذكر من أحرقتهم النار من أهل البلد،
ويرفع رأسه إلى السماء طالباً العفو.



ينتشر الخبر مع دوامات الغبار وفي إثر أول خفير، يقبل
الناس وبينهم أقارب عبد الجليل. الجميع أخذوا يتأملون الجثة
في ذهول وخرس، الخفر ينزلونها من على الشجرة، ويلفونها
في قماشة بيضاء، كل من كان يقف صنع شيئاً ليساعد في صمت
وذعر مكبوت، يحمل الخفر الجثة فوق الأكتاف إلى الدوار،
وهواجس الجميع لا يمكن حتى الهمس بها.



يرفع مختار الغطاء عن وجه الجثة الممددة على الكنبه
الخشبية، يفزع من تشوه وجهها، فتقلب عينه تحمل وعيداً

غامضاً يهمس مختار في أذن صاحبه كأنه يبلغه رسالة، ثم يسبل عينيه ويستره، وعلى شفثيه أسى يتحول إلى بكاء وهو يأمر: «ادفنوا صاحبي الآن»، ويسير إلى حجرته بقلب مشقوق؛ وفي طريقه يسأل عن فرحة، ويفاجأ بعدم وجودها، فيسب الخدم، وينهر الخفر!



تهز الريح العاصفة نعش عبد الجليل، الخارج من الدوار في خلاء الساحة الواسعة تضرب الريح النعش بقوة غاشمة؛ فينقلب وتتدحرج الجثة على الأرض. يلتقط أقارب عبد الجليل الجثة، ويضعونها في النعش. يهب الناس يحملون النعش بدلاً عن الخفر، وصوت عبدة الحزين يعلو: «كلنا لها!»، حتى لا يجرح أحدٌ جلال الموت السائرين في كنفه وبين الفينة والأخرى يردد الخفر بصوتهم الأَجَش في تناوب: «وحدوه».

وسط الهمهمات والأسى يستشعر رضوان انقلابات في الغد القريب، يبحث فيها أين يكون مأمنه، وهو يدرك أن طريقه هذه المرة ستكون على حد السكين!

ينظر المشيعون إلى غبار العاصفة على أنه نذير، فيطلبون الرحمة، شفة عبدة تدعو وهو سائر، وكلما اقترب يلمح جسداً مبللاً يقبل في خفة الملائكة، وفور تأكده أنها فرحة ينحرف مهرولاً يسألها: «كفى الله الشر، يا ست فرحة».

وتتحاشى عيون المشيعين النظر، ويلتف بعض الخفر حول سيدتهم تاركين الجنازة، كي يعيدوها إلى الدوار، ولحظة قربهم من باب الدوار يدخلونها غضبًا ويضعونها في يد خادمتها ويرجعون ليلحقوا بالجنازة.



الريح تعوي بقبر الغرباء الذي فُتح بأمر مختار، جداره الخارجي خالٍ من نقش أي اسم، وبدخله أكوام عظام نخرة، يعبر عبيدة ببطء وصعوبة إلى فتحة القبر؛ يوسد جسد عبد الجليل الثرى، كغريب بين الغرباء!

تسد فتحة القبر ويدعون للمتوفى. وفي طريق نزولهم تشتد الريح، خالعة أوتاد العشة -التي كانت سكناً لعبد الحي- وسقفها، تقلبها في الهواء وتذروها مع سؤال عبد الحي الحائر الذي باع عمره له.



يغلق الناس أبوابهم، ينامون تحت غيمة سماء سوداء وقد هربت من أبدانهم الدعة والسكينة، يفتح الصبح أعينه وسط ضباب العاصفة التي لم تنته.



طوال النهار والنجار يجمع ويعشق، مرممًا أجزاء الكرسي، حتى أوقفه على قواعده الأربعة، عبيدة وجعفر يلفان حول

الكرسي يتأملانه ويسألان بحيرة: «شيء ما ينقص الكرسي؟»، تتأمل الجلييلة، حزن عبيدة، واندھاشة جعفر، فتقرر: «لن يعود كما كان!».

يترك الكرسي في موضعه خاليًا؛ وتظل الجلييلة جالسة على المصطبة الطينية؛ تنظر بشرود إلى صفحة السماء المغبرة وتساءل: «ترى من أهلكه؟»، وتلتفت إلى رضوان يشق طريقه طالبًا استدعاء جعفر إلى الدوار.



يذهب جعفر، وبرفقة الحارس يمشي في الممر، تفتح له القاعة لينتظر فيها وحيدًا، هواجس جعفر ترمي به هنا وهناك، يحرق في الجدار ويغيب في نغباته، صوت أقدام مختار تدق على الأرض كأنها تختال، يسد مختار فتحة باب القاعة وهو ينظر إلى جعفر محييا: «ما أخبارك؟!».

- بخير.

يجلسان ويحادثه مختار، مرة عن حال حسونة، ومرة عن حال أبيه، ثم يسأله عن الجلييلة، وإذا به وسط الحديث يباغته أمرًا: «سأشتري غلال أرض الجلييلة هذا العام».

ينظر له جعفر بوجه مستغرب: «صاحبته من تقرر».

- أنا قررت، وأنت تنفذ.

- أنا عامل لديها، ولا أصنع شيئاً دون أمرها.

يحمّر وجه مختار، ويخفي وراء ابتسامته وعيداً: «صوامع الغلال تخربت وارتبطنا بكلمة مع التجار. انتظر الرد وبسرعة». يصمت جعفر وقد أبصر في عيون مختار الغدر.

✱

يخرج جعفر من الدوار، وهو يسأل: «كيف توحش مختار هكذا؟ وكيف لم يعد يراعي حرمة ولا مكانة لأحد؟!». ويحس بأطرافه تتجمد ويرى أمامه شجرة تكسرهما الريح، ثم تنفخ فيها، فينخطف ويحتمي في شجرة أخرى ثم يكمل سيره مهدوداً خجلان من إخبار الجليلة بأمر مختار.

✱

جعفر يرى الجليلة تجلس على المصطبة الطينية غير مكترثة بالعاصفة وولده الصغير يصعد على كرسيها الخشبي المرمم يحييها وعندما يحاول إبعاد ولده تشير برأس عصاها كي يتركه، وقبل أن ييوح بما حدث؛ تأمر: «دعك منه يا جعفر».

يهز رأسه ويجلس جوارها وهو متوجس من وعيد مختار المخفي في عمق عيونه الغادرة.

✱

خزائن القمح في الساحة تخربت وانهارت، فأخذت الريح الحبوب وانطلقت تذروها وتبددها في شقوق الأرض، وفي

رمال الصحراء. والناس الذين كانوا ينتظرون نصيبهم القليل من الحبوب؛ يقهقهون من حرقة النكات على حالهم وحال البلد، وتنقلب ضحكاتهم إلى أسى، فيهمسون: «فرج الله قريب!».



يقهقهه مختار وهو يخرج الدخان الأزرق من أنفه متلذذاً بصرخات فرحة المحبوسة في حجرتها؛ وبإحكام قبضته على البلد، الذي يرتعد قلوب أهله هلعاً، إن ذكر اسمه!



يهمس الناس بحذر، عن مبروك وملامحه المنفرة، وعن مختار وشروره أسوأ القصص، يضربون الشبه بين مبروك وبحر، ومختار وكل العمدة الذين سبقوه، ثم يهتفون متراجعين في خوف، خشية من الموت الذي يترصد للناس في تنكر والذي جعلهم يهمسون محذرين بعضهم: «خنجر عزرائيل يرتع في البلد بالليل!».

لكن النهارات لم تطمئن أحداً، ولم تراع خوف أحد، فعلى قارعة طريق وجدت جثة رجل قيل إنه كان عيناً على مختار، ذعر الناس ولم يعد أحد يمر من هذه الطريق، ولما استيقظت العيون ذات صباح على جثة عارية لخفير مفصول الرقبة صار الطريق المخيف طريقين وثلاثاً. وعندما تعددت الحوادث لم يعد مستغرباً أن تظهر جثة مخبأة في كومة قش هنا أو بين حطب عيدان

صفراء هناك. عندها صار القتل نكتة يطلقها الناس وهم يتحلقون حول النار وكأنهم يتسلون به عما أصابهم من قحط.



لم يعد أمام الجوعى غير ما تبقى من خزين الجبن المملح في الجرار، وتصدق المحسنون بقليل مما عندهم، ومن جراء قرصة الجوع يخرج بعض الناس من الحواري، في عيونهم مذلة العوز وفي صدورهم أسى الفاقة، يتجمعون أمام باب الدوار، يملؤون الساحة الرحبة، يتوسلون إلى الخفر كي يعطوهم شيئاً.

يتوه الخفراء بينهم، ويتلاشى صوت من يطالبهم بالانصراف، وفي اللحظة التي ينظر فيها الناس إلى بعضهم ويشعرون بكثرتهم يصيحون بعلو صوتهم، بأمر لا بترج: «أين حقوقنا؟».

يشم رضوان رائحة الخطر فيطلب مبروك في الحال، ويقبل مبروك مهرولاً يشق الطريق بين الناس، عيونه تمتلئ بالشر وسؤاله بالوعيد: «من جمعكم؟!».

تلجم الناس وخرسوا، فطلب مبروك بتحد: «كبيركم يتقدم!».

ولما انخرس الجميع خوفاً من العقاب؛ زعق مبروك بصلف: «سأقفل عيوني وأفتحها، ولو رأيت واحداً سأذبحه في مكانه كالنعجة!».

وفي أثناء هرولة الناس بوجوه مصفرة تطفح بالخوف؛ يظهر خليل بلحيته البيضاء النابتة ووجهه الهادئ، وعيونه الممتلئة بلمعة محيرة، ينظر إلى مبروك بشيء من التحدي، وبعلو صوته يصيح: «خاب الرجاء فيك يا مختار؛ أتحتمي بقاتل!»، ويلكز مبروك في صدره وينظر في عينيه بغضب وتحذّر ثم ينصرف وهو يصف مختار بأشنع وصف.

يدخل مبروك إلى قاعة الدوار، ويجلس عندما يُؤذن له بالجلوس مدعيًا حفظ المقامات، وينصت لما يؤمر به وهو ينظر إلى مختار بعيون طامع.



حسونة لم يعد يأبه ببرد. يمشي في ليل الشوارع، لا يعرف لحيرته ملجأً، ولا لقلبه راحة. بلوعته يمشي وحيداً، تنشق السماء عن برقة خاطفة، يتأمل ضوءها ويتوسل بفؤاده ويبيكي ويقشعر كلما تلمّس ماضيه، هل من سماح؟ ماذا يصنع كي يبرأ؟ ويتأمل فيما يراه ما لم يكن يراه! يتعد خارج حدود البلد، يشق الطريق إلى الصحراء، وحيداً يناجي نفسه والدمع في عيونه، يمشي ويمشي، وبقرب الشجرة التي يجلس تحتها كل يوم حتى طلوع النور؛ يسمع ضحكة شامتٍ وترحيبٍ مستخف: «لم تتأخر يا حسونة».

يبصر ملثمًا لا يعرف هل كان يتبعه؟ أم أن الأرض انشقت عنه كالجان؟! يكشف مبروك لثامه، وبغل يقول: «ساعتك الآن يا ولد؟!»، ويقترّب، يلف حول ضحيته، يقلب في الهواء نصل خنجره المسنون، فلا يُرهب حسونة؛ بل يبتسم باستخفاف، ولا يعبأ بالخطر!

الدنيا في عيون حسونة لا تستحق حذرًا، ولا دفاعًا، في موته خلاصٌ من أحزانه؛ يقف كأنه يبارك لمبروك غرس خنجره! ينشق اللحم، وينزف الدم، وتدوي شهقة، وينكفي حسونة على وجهه ويرتطم بالأرض، يقلب مبروك ضحيته بقدمه وهو ينظر في العيون المتألّمة ويهمس: «بلغ سلامي للزانية!»، وقبل أن يطعن صدره طعنة الموت؛ يفزعه وقع أقدام تهوّل وصوتٌ يصرخ: «قاتل.. قاتل». يهرب مبروك، ويهمس حسونة: «آاه».

يسرع قنديل الخطى إلى الجسد النازف، تمتد يده إلى صدر حسونة تتحسسه وتكتم الجرح، يد حسونة تلتف على كتف قنديل، حتى يصلا، يفتح باب المقام ويوضع الجسد برفق. عين حسونة زائغة تتألم لكن أنينه لا يتوقف، ويقشعر بدن قنديل وهو يمد يده يتحسس مكان الطعنة، الدم تجلط، والكلمة على مسمع قنديل؛ آتية بالأمر من هاتف قريب رغم بعده فتمتد كف قنديل الأخرى برفق للجرح النازف تداويه.



للعالم سر، وللجسد سر، وللروح موعد، والساعات تمر،
حسونة ينفلج، فيرتعش وجهه، يعود من غيبوبته، ويتلاشى
الغمام أمام عينيه. تتضح الصورة، ويتسم قنديل وهو يقرب فمه
من أذن حسونة هامسًا: «لك الآن، يا عبد الله، اسم جديد ودنيا
جديدة!». *

يمسك خليل بيده نصلاً يخرب به صور مختار المرسومة
بالجير على حوائط كل الدور، يقطع وجه مختار بطوله وعرضه،
ويتنقل من واجهة لأخرى كالمحموم، يضرب بكفه باب كل
دار، ويحث صاحبها على الخروج لأخذ حقه، من الأرض
والحصاد، ويعلن أنه سيكون على رأس من يخرج، يرسم الناس
على وجوههم حماسة الإقدام، وتعدده شفاههم وعيونهم الجائعة
بالخروج معه، وما إن يغادرهم؛ حتى يقفلوا أبوابهم، متراجعين
تحت وطأة خوفهم المذل. *

في الموعد لا يخرج أحد، ويتنظر خليل نهارًا، ويعود وحيدًا
في الليل، دون نصير أو داعم، يقطع الصحراء بقلب مطمئن
وقد أدى دينه وقال كلمته، وفعل شيئًا. ورغم ضباب الأفق يرى
مصيره ويتسم بشوق. *

البلد هامد وصامت، أهله مثقلون بالغم، والخوف كأنه قبة
سوداء سقطت من فوق السماء على البيوت، يخرج مختار؛ إلى
مكانه في حديقة الدوار، يشد أنفاس الدخان الأزرق، وينصت
إلى همس رضوان بما جرى؛ فيسب ويأمر الخفر، أن يأتوا بخليل
حيًا ويقرر له أسوأ عقاب ليكون عبرة للناس.

26

أوشك - عبد الله - حسونة أن يفلج رأس أحدهم، عندما رفع
 الفأس في وجوههم؛ مدافعاً عن خليل الذي بدا مستسلماً، بل
 وأوشك أن يبدو متهللاً، لكن دفعةً رحيمَةً في صدره من قنديل
 رده، كلمات واثقة قالها في أنفة المنتصر هدأت من ثورة الشاب
 الجريح: «عد إلى موضعك». ثم التفت إلى خليل قائلاً: «لقاءً
 قريب، يا خليل، يا صاحبي، مثلك لا يحتاج أن أذكره أن الله
 يستطيع أن يسقط السماء على الأرض وأن يرفع المسيح على
 جثث من آلموه لكنه فداء يا أخي، بيع وشراء. وبيعت رابح
 يا خليل، وبشرك قريب، وحظك وافر. الآن تطّلع بوجهك
 أينما شئت، في الماء، في السحاب، فلن يكذبك»، ثم اقترب
 واحتضنه، وقد فزع الخفراء خطوة إلى الخلف: «اذهب، يا أخي،
 واحبس الظالمين في دمك». ثم أدار ظهره عنه، فتقهقر الخفراء
 من خلفه بخليل كأنهم نجوا من صاعقة، ثم أخذوه إلى مصليه.



يهمس أحدهم ويوسوس آخر: «اعتذر.. كلمة واحدة من
 فمك تنجيك! ربما يشفع لك الود القديم.. لا تلتق بنفسك إلى

التهلكة! ألا تؤلمك السياط؟ عجيب أمرك، فوق إهابك يصرخ
الألم وظلك زائع كأننا نهدهدك.. انطق واعتذر وارحمنا وارحم
نفسك من السياط!». .

بطء يرفع خليل رأسه فتزداد ابتسامته صفاءً. كلمات قليلة
يهمهم بها لأحدهم: «قل لسيدك: خليل وجد يقينه وهواه. قل
لسيدك: لا».

ويصل الجواب إلى مختار فيستشيط غضبه ويسب ويأمر أن
تضرب السياط خليلاً طوال الليل.



زائغة؛ تدور الجليلة في غرف المنزل، تسمع وشوشة زوجة
جعفر، في سكون لم تلمس مثله من قبل، كأنه سكون ما قبل
الطوفان: «مختار يقتل خليل... يقطع لحمه بالسياط!».

الحمام الأبيض فوق البناني منكمش لا يحرك ساكنًا، كأنه
يتملأ موضعاً سيهجره، والربوة منعزلة عن كل ما حولها، والنهر
ناعس عن كل كلام.

تخطف الجليلة شالها الأسمر، مخفية في طرفه شيئاً، ثم
تمضي تتكى على عصاها، وقد دبّت في بدنّها عافية الفعل
الأخير، تشق الطريق شقاً حتى تصل إلى الدوار، يفسح لها
الخفراء طريقاً إلى من تقصده، ترفع رأس خليل وتمسح على
وجهه المخضب بالجروح، فينتبه إليها على رفق أخير. نظرت
فسرها شيئاً في نظرتها وأبكاها، سندت رأسه بكفها وهي تقبض

رأس العصا وشيء بطرف شالها. همست في أذنه بكلمات بش لها، ثم فتحت قبضتها عن قربة صغيرة بها ماء قد عطرتة بالورد، دسها في فمه فتلقفها كطفل يلقف صدر أمه، ثم ردت يدها وقد اطمأنت أنه قد زال العطش، ولما رأت بسمته الأخيرة التي تحدث كل خوف وتغلبت على كل أسي؛ أسبلت عينيه على جفون أرهقها السفر، وهمست: «نلتقي في النور يا خليل». ثم استدارت، وخطت خطوات تجاه مختار، رافعة عصاها: «رد البنت إلى أهلها. ليست منك، ولست منها».

- أخرفت يا عجوز.

قالها بتجبر، فارتسمت على شفتها بسمه ساخرة، وقالت: «أرجع البنت إلى أهلها، وإلا...»؛ فقاطعها بغطرسة: «على جثتي أن تخرج».

تسع بسمه الجلييلة، وتستدير وهي تهمس: «صدقت... على جثتك».



أمست الربوة دون كل البلد، وحيدة ومعزولة! الجلييلة في حجرتها مسهدة واجفة مؤرقة الجفون، تتملى في غيش العتمة أشباحًا تتجسد على الحوائط! تنصب ظهرها الموجوع وتسند رأسها المصدع على وسادتها المرفوعة خلف كتفها المتعبة، وبدا لها أن هذه الليلة طويلة وثقيلة.

تحاملت الجلييلة على وهن عظمها وقامت، خرجت من حجرتها تمشي في جنبات الدار، تلقي بنظرها على أبواب الحجرات. تفتح حجرة ابنتها وتنظر على المكان الذي كانت تجلس فيه نجاة ساهدة من وجع الانتظار، وعلى ملابس خليل التي لا تزال معلقة على الحائط. تنهد ثم تغلق الحجرة، تمر بجوار حجرة جعفر المغلقة عليه، وعلى حجرة زوجة حسونة التي دعته إلى الدار بعدما طردها مختار، وتفتح غرفة صفية وتردها مبتسمة، وغرفة فرحة المحبوسة الآن في الدوار مسهدة، تتملي كل حجرات الدار الخالية، وتستعيد ما كان من ليالي اللمة والألفة.

تخطو الجلييلة إلى صحن الدار الواسعة نصف المكشوفة للسماء، تلتفت إلى ديكٍ متحفز منفوش الريش، يقفز لأعلى السلم الكبير فتقول هامسة: «هيا إلى النوم». وعندما تدنو نحوه؛ تجفلها صرخة حادة تزيح هدوء الدار، ويقع بقلبها أن الصرخة نار تسقط من قبة السماء كلجنة؛ فترفع رأسها، ترى كرات حمراء لاهبة تُرمى بوسط الدار، تتمدد الصرخة كثعبانٍ بشع يتلوى بأعتاب الحجرات؛ وهي تنظر مسترهة: «الدار تُحرق!». ويخرج جعفر من حجراته فزعاً، يكاد يحمل الجلييلة التي تتمم وهي تستهول ما ترى!



لم يعد مختار يعرف غير القتل جزاءً لخصومه، وعندما تخلص ممن ظنهم خصومه، أمسى القتل عنده على الظن

وبالوشاية، ثم أمسى على أتفه سبب، ولم يسلم رجاله من غدره، فصار في عيونهم ذنبًا لا أمان له، وتبدى بشعًا وشريرًا في حكايات الصغار، يأكل لحم خصومه مشويًا، ويشرب دماءهم في قدح.

*

يشيع الخفر حكايات قديمة تؤكد كفر خليل، وتُبرّر صلبه، والناس تهز رؤوسها منصّعة للخفر، وقلوبهم تدعو لخليل، متوسلة إلى الله أن ينجيه وينصره!

*

عينا مختار تخافان النوم، وإن غفا ينفلج على كابوس مفزع. تحت وسادته خنجر، وفي صدره توجس من الجميع. يسمع صرخة تهز أركان قلبه فيعجب، ويأتيه رضوان بالخبر وصوته مضطرب: «مات الرجل».

ويخفي مختار ارتبأكه، ويحدث نفسه مقدمًا موت خليل كقربان لله جزاءً على عدم إيمانه بكتاب، ثم يلع ريقه الجاف، ويأمر رضوان بالانصراف وانتظار الأمر.

*

لمحهم حسونة وهم ينزلون من فوق الجبل، ويعبرون شعابًا ضيقة محفوفة بالمشقة والخطر، وعندما توقفوا أمامه همس يسأل قنديل: «من هؤلاء؟»؛ فرد باقتضاب: «السابقون السابقون».

ظل حسونة يتمعن في وجوههم المغسولة بالرضا، وعيونهم اللامعة بالمحبة، وملابسهم المحيرة التي فيها شيءٌ من لون السحاب الوديح، فلما حيوه بدوا وكأنهم يعرفونه، ساروا في الصحراء وهم ينشدون بصوت عذب كلامًا أسكر حسونة وأبكاه، برفق أنهضه قنديل واصطحبه إلى داخل المقام ليشير إلى موضع، ويقول: «افحت هنا للقادم الكريم».



مشى الرجال صامتين في شوارع يعرفونها. تسخر عيونهم من حيواتٍ ولَّت، وأقدار تراءت حينها موجعة، الناس نيام، والظلمة من حولهم تتمدد، وفي ساحة الدوار التفوا -إلا واحدًا- أمام جسد خليل، كان واقفًا مصلوبًا في عزة، والبسمة الوضيئة على شفثيه وكأنه حي.

بعد بضع كلمات، سمح الحراس لذلك الرجل الذي شبه لعيونهم أنهم يعرفونه، فاستدار وأشار إلى رفاقه ففكوا الوثاق عن الجسد المثخن بالجراح، فحمل الرجال جسد خليل وخرجوا بخفة، وقد تعهد كبيرهم أن يواروا جسد خليل خارج البلد كما أمر مختار، وعندما تخطوا أسوار الدوار وابتعدوا، سأل الخفر بعضهم وكأنهم قد أفاقوا من الغفلة: «من هؤلاء ومن أين جاؤوا؟!». .



النار تتناول مفرقة في عروق سقوف الحجرات، والجليلة
تقف منتصبه على قدميها، تزيع جعفر عنها وهو يصرخ صاعداً
فوق سقف الدار: «حرام... حرام».

ويشعر جعفر بالذعر، ويدرك مدى فداحة آلام الجليلة، حين
يرى قامتها ترتعش وهي تهز رأسها لأعلى، تخبره وتخبر قلبها
أن هذه الدار لم ترفي حياتها برغم كل ما مر مثل تلك اللحظة،
يجمع كل قوته ويحاول أن يخدم النار التي تشتعل في السطح،
ينكسر عرق السقف متحطماً ويهوي جعفر معه من أعلى السلم،
وتساقط معه النار ثعابين من ألهبه حارقة.



يهول عبيدة جهة الربوة، وهو يبصر النار تتناول على دار
الجليلة، يدق الأبواب يطلب النجدة، ويهرول غير عابئ بوجع
ساقه ولا بحمل السنين، يجري وقلبه مصمم وبعلو صوته يصيح:
«نجه يا رب».

زوجة جعفر وزوجة حسونة تركضان جيئة وذهاباً باهتياج،
وتقفزان إلى كوى الحجرات تفتشان عن ولد جعفر الصغير، كي
تسربه من الدار التي تضربها النار. وتسمع صرخات شرقاوية
التي أتت تلهث.

يخلع عبيدة جلبابه ويقتحم الدار مسرعاً، يلتف بجسده حول
هيكل زوجة ابنه جعفر وتلف زوجة حسونة حول ظهره؛ فيسأل:
«أين الجليلة، وأين جعفر وابنه؟».

وتستكين زوجته ابنيه لاهتتين تستنجدان بصدرة وظهره،
وتغمغان بكلماتٍ غير مبينة، وقد تعرى رأسهما وتلبد شعرهما
الأسود الأجعد، والتوى وجه زوجة جعفر الذي خططته الدموع،
وبفعل ألم قلبها يلثم عبدة قمة رأسها وهو ملثا ينش عن
إيمان قلبه يقاوم به؛ فيصيح: «أغثنا يا رب!».

ويُلوحُ لعبدة وجه الجليلة ويختفي بين نار ودخان، وينقبض
قلبه فيهتف منادياً: «يا ست الناس».

ويخرج زوجتي ابنيه بسرعة، ويعود يقفز نحو الجليلة، يهزها
بقوة في لحظة انخطف فيه عقلها، وقالت: «آن الأوان يا عبدة!».
والنار هبت من كوة الحائط، فصرخت الجليلة ثانية في
رضا: «آن الأوان».

يحملها عبدة وهو يشعر بقوة لم تكن فيه، وفي طريقه
للخروج من وسط الدار؛ ترتطم قدمه بحجر، فيسقط يتلوى على
الأرض، يبرق بعينه السقف المشتعل بألسنة اللهب، وتتطاول
أمامه النار على أبواب الحجرات فيجفل، وعندما يهجم بالنهوض
ولا يرى الجليلة؛ يدب بداخله وهن الاستسلام، ويطمس نظره
سواد الأدخنة، ويشعر بانسداد مجرى الهواء في حنجرتة، يحاول
أن يتنفس بجهد فيحدث صوتاً كالصفير، يحاول أن يقوم فيتعرش
بشيء طويل ضخم يقع على وجهه مرة أخرى وينكتم صوته من
الألم، يكاد أن يذهب عن الدنيا لكنه يشعر بحركة في ضبابه

الدخان، ويحس بيد تعانقه وتحتضن كتفه وترفع جزعه، وقميص طري يلتف حول وجهه من كف قوية تحنو عليه وهي تخرجه.



قطع الرجال الصحراء، والسماء تبرق على صفحتها النجوم. لكن نورًا أبهى أضاء بعد أن دخلوا المقام، أغلق حسونة الباب عليهم. وظل الصمت يسود، حتى همس أحدهم بصوت رخيم أسيان: «لا»؛ فعلا صوته الممتزج بالابتهاال والرضا: «لا إله إلا الله»، ووسدوا الجسد، وودعوا خليل بالدعاء والدموع.



برفقة سيسبان؛ يخرج عبد الحي من الدار، لا يعرف إلى أين تقوده اليد التي يشعر بحبها دون أن يعرف من هي! طريق الربوة غريب على عيونه الشاردة، صَعدها مُرهَقًا، وأجلسته سيسبان هامدًا وهي تحذره ألا يتحرك!

وانتبهت سيسبان على بوابة الدار الكبيرة تتفسخ، ويدخل المغيثون لصحن الدار العابقة بالدخان، والنار تستعر في سقف الحجرات وتساقط أفاعي من اللهب تلحس الجدران السميقة وتحرق كلسها، والأرض الواسعة خلف الدار يستعر فيها قليل مما بقي داخل صوامع القمح والذرة والشعير، وتنفث دخانًا كثيفًا. ووسط كل هذا الصراخ والصخب؛ يسمع عبد الحي نداءً فينهض مأخوذًا، لا تدركه سيسبان التي كانت تضم حماتها شرقاوية إلى صدرها، وهي تمشي بها إلى الهواء والليل الساكت

دونهما كي تتنفس وتكف عن إقحام نفسها في النار. لكن شرقاوية لم تكف عن الصراخ والعديد باسم الجلييلة، تتوسل سيسبان لحمايتها بكلمات معزية وهي تحاول بدأب أن تعجزها عن الخوض بروحها في النار.

يخطو عبد الحي في داخل الدار؛ كطفل غافل، لا يدرك خطر النار، وبعد خطوات قلائل في وسط الدار تمسك بكفه يد وتجذبه بقوة ورحمة إلى الخارج، فتهرول إليه أمه وزوجته، تجلسانه فيسند ظهره المتعب إلى جذع الشجرة، وتظل عيناه مصوبتين في عمق الدار التي تقدح فيها النار، ساكنًا دون وجع ودون خوف يبتسم، وكأنه قد رأى ما كان يود رؤياه. يحدق وتتجمد نظرتة، تناديه شرقاوية باسميه فلا يهمس، تهزه فيميل، فترفع كفها تلطم خده تترجاه ألا يذهب وألا يموت! وتضمه سيسبان إلى صدرها وتنوح!



يخرج الرجال، مغسولة وجوههم بالدمع، يشقون طريقهم في شعاب الجبل، يرى حسونة كما لو أن طيف الجلييلة بينهم! لكنه لم يحاول أن يقرر هل كل ما كان فيه حلم يقظة أم حقيقة! ينشغل حسونة بنفسه وحاله، يخطو عابراً باب المقام المفتوح، يستنشق بقايا رائحة حلوة تملأ المكان، ويرى فراشه في مكانه مبسوطاً كأن لا شيء حدث، ويبصر جلباباً معلقاً فوق وتد مغروس في

الحائط تركه قنديل، لبسه حسونة راضيًا؛ وخرج الذي صار عبد الله من المقام وحيدًا، ينظر إلى السماء ويعبئ أنفاسه من النسيم الطري ويتبهل: «الله»، ويخطف: «حي».



صوت خليل لا يكف عن الصراخ بلا في أذن مختار، تطارده الكلمة حتى في أحلامه وتحت سترها يتسلل ملثمٌ في الظلام، يختبئ خلف شجرة في حديقة الدوار. رضوان يفتح الباب الخلفي للحديقة ويمضي، يجلس مع الحراس يضاحكهم.

الصرخة تعلو والملثم يغطي الحجرة، يتملى وجه مختار المتعرق وعينه المغمضتين، ويأبى إلا أن يذيقه حرقه الألم، يلكره بمقبض خنجره، فيفزع متحشرجًا: «من...؟».

وبحد النصل يمزق وجه مختار بطوله ويطعن رقبتة، يقبض مختار بما بقي له من حلاوة روح، على يد قاتله وبذهول يصيح: «مبروك؟».

يغمد مبروك الخنجر بين ضلوع مختار، ثم يفلته. يتخبط مختار في ظلمته حتى يتنبه الحرس من غفلتهم على صراخه المتقطع فيجدوا جثته مقرضة في زاوية الحجرة وهو يضع كفيه على أذنيه كي لا يسمع الصراخ الذي كان ينغزه بألم أقوى من الخنجر الذي ذبحه!



في ستر الجلبة التي صنعها الخفر بعد تأكدهم من مقتل مختار؛ تخرج فرحة من الدوار، تمشي في الشوارع، يتلاطم جسدها في أجساد أهل البلد المهرولين إلى الربوة، إنقاذاً لدار الجليظة.

أعمدة الدخان الأسود تصعد صوب السماء، وفرحة تنتابها رجفة وهي تهمس باسم الجليظة. تهرول، حتى تقف أمام الدار تنادي بكلمات محبة، وتهش الدخنة بكفها، وبلا وعي تندفع إلى الداخل دون أن يقدر أحد على منعها!

ويندفع جعفر نحو الزير بعد أن أخرج ولده سالماً، يسكب الماء فوقه فيلتصق قميصه المبتل بجلده المحروق، ويقتحم وسط الدار وهو يصرخ وينادي، وعيناه زائغتان تفتشان، وفي متاهة الدخان؛ يسقط جسد جعفر على الأرض ذاهلاً، لقد أفلتت قطعة من عرق سقف وهوت عليه فأصابت رأسه، لم يتحسس فداحة إصابته، بل نادى بما بقي له من عزم: «أين أنت يا جليظة، أين أنت يا فرحة؟».

ويجاهد ليحبس أنفاسه ويقلب عينيه اللتين كلتا بحثاً وهو يناديهما. ثم يركع ويدب على يديه وركبتيه ويحبس أنفاسه ويزحف على الثرى والحصى، يتملى المكان فلا يرى شيئاً، يقترب ويلقي نظرة أبين، فيراها واقفة في قلب الدخان، كأنها تكلم فرحة دون أن تلمسهما النار. فينحني جعفر ويعبئ نفثاً عميقاً ويزفره، وهو يهتف: «يا الله! إنها تحيا!»، ويلقف أنفاساً قصيرة بسرعة، لكنه ما عاد يقدر أن يشهق نفساً عميقاً من الدخان

الذي صار ساءاً، ويرى فرحة فيمد يده إليها بقليل مما تبقى له من قوة، ويتناهى إلى أذنه كما الناس صوت الجليلة قادمًا من المجهول مودعًا!



شعاع الخيط الأبيض من الفجر ينزل فوق البلد شاحبًا طريًا، وفي الساحة الواسعة أمام الربوة العالية يلتف أهل البلد حول بعضهم بعد أن أطفأوا النيران عن دار الجليلة. ينظرون إلى جعفر بإجلال؛ بعد يقينهم من قتل مختار. يعلقون على جعفر أمانيتهم؛ دون أن يقرأوا علامات ألسنة اللهب على جدران بيت الجليلة التي تعددت أساطير الغياب عنها.



نهار يشرق، ليل يغرب، فصول تتوالى، سنون تمر، وفرحة تجلس طوال النهار على المصطبة الطينية فوق الربوة العالية لتاج شمس، كأنها وحيدة في هذه الحياة، ترفع رأسها وهي تمسك بوداعة عصا تشبه عصا الجليلة، يخاتل عينيها السحاب الذي يتبدل وجهه في السماء كل حين، يزيغ لاهيًا في بهاء زرقته أو هشاشة بياضه أو حيرة كهرومانه، وأمامها يترفع النهر عن براح لين آنس بالحكايات، وغناء النسيم، وصلصلة الموج، وسكرة الفقد، وكلما لاح شراع أو تلاشى، تطل بعينيها تقرأ وجه السماء وصفحة النهر، وتنتظر!

تمت

هامش

(*) الأشعار «العامية والفصحى» من التراث

